الإمام علي

روائع نهج البلاغة

اختارها ورتبها وقدم لها بدراسة وافية

جورج جرداق

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

روائع

نهج البلاغة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام علي

كتا...
مركز تحقيقات كا...
شماره ثبت: ٨
تاريخ ثبت:

روائع

نهج البلاغة

اختارها ورتبها وقدم لها بدراسة واسعة
جورج جرداق

شبكة كتب الشيعة

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الكتاب : روائع نهج البلاغة
إعداد وترتيب : جورج جرداق
الناشر : مركز الغدير للدراسات الإسلامية
الطبعة : الثانية
ذوالقعدة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م
المطبعة : باقري
عدد النسخ : ٢٠٠٠

تقديم

الإمام عليّ بن أبي طالب(ع) هو إمام البلغاء والمتكلمين، كما هو إمام المتّقين. . وآيتُه في ذلك «نهجُ البلاغة» الذي يمثّلُ، في أسس البيان العربي، مكانة تلي مكانة القرآن الكريم. . . وتتصلُ به أساليبُ العرب، في نحو ثلاثة عشر قرناً، فتبني على بنائه، وتقبسُ منه جذوتها، ويحيا جيّدُها في نطاقٍ من بيانه السّاحر.

كان الإمامُ علي(ع) يرتجلُ كلماته، يلقيها، في مجالس القومُ، خلاصاتِ تأمّل، وفي محافلهم، خطباً تجيش في داخل الذات، فينطقُ بها اللّسان عَفْوَ الخاطر، فتأتي محكمة «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق».

اختار الشريفُ الرضيّ أواخر القرن الرابع الهجري نماذج من خطبه ورسائله وكلماته القصار، وجمعها في كتابٍ سمّاه «نهج البلاغة». والإسمُ يدلّ على أن هذه النّماذج المختارة تمثل نهجاً في البيان والأداء، يُوصلُ، إن اتُّخذ مثالاً، إلى البلاغة، بوصفها كشفاً عمّا في الذات والواقع وإيصالاً إلى المتلقي. وهذه هي غاية الأدب الخلّاق العظيم.

ومنذ ذلك اليوم الذي جُمِعَ فيه الكتابُ عكف العلماء والأدباء على قراءته وشرحه، فتعدّدت الشروحُ وتنوّعت، وبلغ بعضُها مجلّدات عديدة، يقتضي الاطلاعُ عليها وقتاً وجهداً قد لا يملكهما المرء في هذا العصر. ومن هنا جاءت الحاجةُ إلى كتاب يُيَسِّر للإنسان العاديّ معرفة «النهج»، من طريقِ اختيار نماذج منه وشرحها.

وقد سعىٰ الأديبُ المعروف جورج جرداق إلى أداء هذه المهمّة، فاشتغل سَنواتٍ طوالاً، ليسهّل الصعوبات أمام القارىء، فيجمع بين دفّتي كتابٍ روائع «نهج البلاغة» ويبوّبها وفق موضوعاتها من جهة، ووفق زمن صدورها من جهة ثانية، ويشرح الغريب والصعب من مفرداتها.

ثم زاد على ذلك، فقدّم بين يدي الروائع التي اختارها ورتّبها وشرحها، دراسة جديدة في نوعها عن الشخصية العلوية من خلال نهج البلاغة، أضافها إلى سلسلة دراساته الخمس الشهيرة (الإمام علي صوت العدالة والإنسانية).

يلبّي هذا الكتاب حاجة للقارىء العاديّ ولطلاب المدارس والجامعات، وللقارىء المختصّ، أيضاً، في هذا الزمن الذي لا يجدُ فيه المرء فرصةً للقراءة، وسط المشاغل العديدة، وطغيانِ وسائل الاعلام المسموعة والمرئيّة.

ويسرّ مركز الغدير للدرسات أن يقدّم هذا الكتاب في حلته الجديدة هذه بعد نفاد طبعته، راجياً أن تتحقق به الفائدة التي توخّاها.

مركز الغدير للدرسات الإسلامية

فِي أَدَبِ الإِمَامِ

حدود العقل والقلب

وكان شديداً ، قاصفاً ، مز مجراً ، كالرعد
في ليالي الويل !
والينبوعُ هو الينبوعُ لا حسابَ في جرْيه
لليل أو نهار !

مَن تتبّع سِيرَ العظماء الحقيقيين في التاريخ لا فرقَ بين شرقيّ منهم أو غربي ، ولا قديم ومُحْدَث ، أدرك ظاهرةً لا تخفى وهي أنهم ، على اختلاف ميادينهم الفكرية وعلى تبايُن مذاهبهم في موضوعات النشاط الذهني ، أدباء موهوبون على تفاوت في القوة والضعف . فهم بين متج خلاّق ، ومتذوّق قريب التذوّق من الإنتاج والخلق . حتى لكأنّ الحس الأدبي ، بواسع دنيواته ومعانيه وأشكاله ، يلزم كل موهبة خارقة في كل لون من ألوان النشاط العظيم !

فنظرةٌ واحدة الى الأنبياء ، مثلاً ، تكفي لتقرير هذه الظاهرة في الأذهان . فما داود وسليمان وأشعيا وأرميا وأيوب والمسيح ومحمد إلا أدباء أوتوا من الموهبة الأدبية ما أوتوا من سائر المواهب الخاصة بهم . وهذا نابوليون القائد ، وأفلاطون الفيلسوف ، وباسكال الرياضي ، وباستور العالم الطبيعي ، والخيّام الحسابي ، ونهرو رجل الدولة ، وديغول السياسي ، وابن خلدون المؤرخ ، إنهم جميعم أدباء لهم في الأدب ما يجعلهم في مصافّ ذوي الشأن من أهله . فلكلٍّ منهم لون من ألوان النشاط الفكري حدّده الطبع والموهبة ، ثم رعت النزعةُ الجمالية ما دخل منه في نطاق التعبير ، فإذا هو من الأدب الخالص .

هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب ، فإذا هو الإمام في الأدب ، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علّم وهدى ، وآيته في ذلك « نهج البلاغة » الذي

يقوم في أسُس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسُس ، وتتّصل به أساليب العرب في نحو ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيّدُها في نطاقٍ من بيانه الساحر .

أما البيان فقد وصل عليٌّ سابقَه بلاحقِه ، فضمّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتّحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً ، الى البيان الإسلامي الصافي المهذب المتحد بالفطرة السليمة والمنطق القويّ اتحاداً لا يجوز فيه فصلُ العناصر بعضها عن بعض . فكان له من بلاغة الجاهلية ، ومن سحر البيان النبويّ ، ما حدّا بعضهم إلى أن يقول في كلامه إنه « دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق » .

ولا عجب في ذلك ، فقد تهيّأت لعليّ جميع الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة . فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو ، ثم إنه عايش أحكم الناس محمد بن عبد الله ، وتلقّى من النبي رسالته بكل ما فيها من حرارة وقوة . أضف الى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة ، فإذا بأسباب التفوّق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة جميعاً !

أما الذكاء ، الذكاء المفرط ، فتلقى له في كل عبارة من « نهج البلاغة » عملا عظيماً . وهو ذكاء حيّ ، قادر ، واسع ، عميق ، لا تفوته أغوار . إذا هو عمل في موضوع أحاط به بُعداً فما يُفلت منه جانبٌ ولا يُظلَم منه كثيرٌ أو قليل ، وغاص عليه عمقاً ، وقلّبَه تقليباً ، وعركه عركاً ، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعنَها في الاختفاء كما أدرك أصدق النتائج المترتّبة على تلك الأسباب : ما قرُبَ منها أشدّ القرب ، وما بعُد أقصى البُعد .

ومن شروط الذكاء العلويّ النادر هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أنّى اتجهت. وهذا التماسُك بين الفكرة والفكرة حتى تكون كلٌّ منها نتيجةً طبيعية لِما قبلَها وعلّةً لما بعدَها . ثم إن هذه الأفكار لا تجد فيها ما يُستغنى عنه في الموضوع الذي يبحث فيه . بل إنك لا تجد فيها ما يستقيم البحث بدونه . وهو ، لاتّساع مداه ، لا يستخدم لفظاً إلا وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتمعن في التأمل ، ولا عبارة إلا وتفتح أمام النظر آفاقاً وراءها آفاق .

فعن أيّ رحبٍ وسيعٍ من مسالك التأمّل والنظر يكشف لك قوله : « الناس أعداء ما جهلوا » أو قوله : « قيمة كل امرىءٍ ما يُحسنه » . أو « الفجور دارُ حصنٍ ذليل ! » .

وأيّ إيجاز معجز هو هذا الايجاز : «مَن تخفّف لَحق !» وأيّ جليل من المعنى في العبارات الأربع وما تحويه من ألفاظ قلائل فُصّلتْ تفصيلا ، بل قُلْ أُنزلتْ تنزيلا !

ثم عن أي حدّة في الذكاء واستيعاب للموضوع وعمق في الإدراك ، يشفّ هذا الكشف العجيب عن طبع الحاسد وصفة نفْسه وحقيقة حاله : «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفَسٌ دائم وقلبٌ هائم وحزن لازم . مغتاظٌ على مَن لا ذَنْبَ له ، بخيل بما لا يملك !»

و يستمرّ تولّد الأفكار في «نهج البلاغة» من الأفكار ، فإذا أنت منها أمام حشد لا ينتهي . وهي مع ذلك لا تتراكم ، بل تتساوق ويترتّب بعضها على بعض . ولا فرق في ذلك بين ما يكتبه عليّ وما يُلقيه ارتجالاً . فالينبوع هو الينبوع ولا حساب في جرْيه لليل أو نهار .

ففي خطبه المرتجلة معجزات من الأفكار المضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم . وإنك لتدهش ، أمام هذا المقدار من الإحكام والضبط العظيمين ، حين تعلم أن عليّاً لم يكن ليعدّ خُطَبَه ولو قُبَيل إلقائها بدقائق أو لحظات .

فهي جائشة في ذهنه منطلقة على لسانه عفْوَ الخاطر لا عنتَ ولا إجهاد ، كالبرق إذ يلمع ولا خبرَ يأخذه أو يعطيه قبل وميضه . وكالصاعقة إذ تزمجر ولا تُهيّء نفسَها لصعق أو زمجرة . وكالريح إذ تهبّ فتلوي وتميل وتكسح وتنصبُّ على غايته ثم إلى مَداورها تعود ولا يدفعها إلى أن تروح وتجيء إلاّ قانونُ الحادثة ومنطقُ المناسبة في حدودها القائمة ، لا قبل ولا بعد !

ومن مظاهر الذكاء الضابط القويّ في نهج البلاغة تلك الحدود التي كان عليّ يضبط بها بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه وتعصف . فإن عاطفته الشديدة ما تكاد تُغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة ، حتى يبرز سلطان العقل في جلاء ومضاء ، فإذا هو آمر مطاع .

ومن ذكاء علي المفرط الشامل في نهجه كذلك أنه نوّع البحث والوصف فأحكم في كل موضوع ولم يقصر جهده الفكري على واحد من الموضوعات أو سُبل البحث . فهو يتحدث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس ، وطبائع الافراد والجماعات . وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء . ويسهب في القول في مظاهر الطبيعة الحية فيصف

خفايا الخلق في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها . ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين . ويبدع في التحدث عن خلق الكون وروائع الوجود . وإنك لا تجد في في الأدب العربي كله هذا المقدار الذي تجده في نهج البلاغة من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم ، في مثل هذا الأسلوب النادر .

أما الخيال في نهج البلاغة فمديد وسيع ، خفّاق الجوانح في كل أفق . وبفضل هذا الخيال القويّ الذي حُرِم منه كثير من حكماء العصور ومفكري الأمم ، كان عليّ يأخذ من ذكائه وتجاربه المعاني الموضوعيّة الخالصة ، ثمّ يطلقها زاهيةً متحركة في إطار تثبُتُ على جنباته ألوان الجمال على أروع ما يكون اللون . فالمعنى مهما كان عقلياً سجافاً ، لا يمرّ في مخيّلة عليّ إلاّ وتنبت له أجنحة تقضي فيه على صفة الجمود وتمدّه بالحركة والحياة .

فخيال عليّ نموذجٌ للخيال العبقري الذي يقوم على أساس من الواقع ، فيحيط بهذا الواقع ويُبْرِزه ويجلّيه ، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته . ويصبغه بألوان كثيرة من مادته ولونه ، فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً ، وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه !

وقد تميّز عليّ بقوة ملاحظة نادرة ، ثم بذاكرة واعية تخزن وتتّسع . وقد مرّ من أطوار حياته بعواطف جرّها عليه حقد الحاقدين ومكر الماكرين ، ومرّ منها كذلك بعواطف كريمة أحاطه بها وفاء الطيبين وإخلاص المخلصين . فتيسّرت له من ذلك جميعاً عناصر قوية تغذّي خياله المبدع . فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساوق في لوحات رائعة حيّة ، شديدة الروعة والحيوية ، ترتكز على واقعية صافية تمتدّ لها فروعٌ وأغصان ، ذات أوراق وأثمار !

ومن ثَمّ يمكنك ، إذا أنت شئت ، أن تحوّل عناصر الخيال القويّ في نهج البلاغة الى رسوم مخطوطة باللون ، لشدّة واقعيّتها واتّساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها . ألا ما أروع خيال الإمام إذ يخاطب أهل البصرة وكان بنفسه ألمٌ منهم بعد موقعة الجمل ، قائلاً : « لَتَغْرِقَنّ بلدتُكم حتى كأني أنظرُ الى مسجدها كجؤجؤ طيرٍ في لجّة بحر (١) ! »

---

١ ـ الجؤجؤ : الصدر .

أو في مثل هذا التشبيه الساحر : « فِتَنٌ كقِطَعِ الليل المظلم » .

أو هذه الصورة المتحركة : « وإنما أنا كقُطب الرحى : تدور عليَّ وأنا بمكاني ! »

أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبّه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيلة ، وتبدو له شرفاتهن كأنها أجنحة النسور : « ويل لِسِكَكِكُم العامرة ، والدور المزخرفة التي لها أجنحةٌ كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفِيَلة ! »

ومن مزايا الخيال الرحب قوة التمثيل . والتمثيل في أدب الإمام وجهٌ ساطع بالحياة . وإن شئت مثلاً على ذلك فانظر في حال صاحب السلطان الذي يغبطه الناس ويتمنون ما هو فيه من حال ، ولكنه أعلم بموضعه من الخوف والحذر ، فهو وإن أُخافَ بمركوبه إلاّ أنه يخشى أن يغتاله . ثم انظر بعد ذلك الى عليّ كيف يمثّل هذا المعنى يقول : « صاحب السلطان كراكب الأسد : يُغبَط بموقعه ، وهو أعلم بموضعه . »

وإن شئت مثلاً آخر فاستمع اليه يمثّل حالة رجل رآه يسعى على عدوّ له بما فيه إضرارٌ بنفسه ، فيقول : « إنّما أنت كالطاعن نفسَه ليقتلَ ردْفَه ! » والرّدف هو الراكب خلف الراكب . ثم إليك هذا النهج الرائع في تمثيل صاحب الكذب : « إياك ومصادقةَ الكذّاب فإنه كالسراب : يقرّب عليك البعيد ويُبعد عنك القريب ! »

أما النظرية الفنيّة القائلة بأن كل قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفن ، فهي إن صحّت فإنما الدليل عليها قائم في كلام ابن أبي طالب في وصف من فارقوا الدنيا . فما أهولَ الموت وما أبشع وجهه . وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجملَ وقْعَه . فهو قولٌ آخذٌ من العاطفة العميقة نصيباً كثيراً . ومن الخيال الخصب نصيباً أوفر . فإذا هو لوحة من لوحات الفن العظيم لا تدانيها إلاّ لوحات عباقرة الفنون في أوروبا ساعة صوّروا الموت وهَوْلَه لوناً ونغماً وشعرا .

فبعد أن يُذكّر عليٌّ الأحياء بالموت وبقيم العلاقة بينهم وبينه ، يوقظهم على أنهم دانون من منزل الوحشة بقول فيه من الغربة القاسية لونٌ قاتمٌ ونغَمٌ حزين : « فكأنَّ كل امرىء منكم قد بلغ من الأرض منزل وَحْدته ، فيا له من بيت وحْدة ، ومنزل وحشة ، ومفرَد غربة ! » ثم يهزّهم بما هم مسرعون إليه ولا يدرون ، بعبارات متقطّعة متلاحقة وكأنَّ فيها دويّ طبول تُنذر تقول « ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع

الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العمر ! » بعد ذلك يطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها العقل ، وتُشعلها العاطفة ، ويجسّم الخيال الوثّاب عناصرها ثم يعطيها هذه الحركات المتتابعة وهي بين عيون تدمع وأصوات تنوح وجوارح تئنّ ، قائلاً : « وإنما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم » . ثم يعود فيطلق لعاطفته وخياله العنان فإذا بهما يبدعان هذه اللوحة الخالدة من لوحات الشعر الحيّ :

« ولكنهم سُقُوا كأساً بدّلتهم بالنُطق خرَساً ، وبالسمع صمماً ، وبالحركات سكونا . فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سُبات (١) ! . جيرانٌ لا يتآنسون ، وأحبّاء لا يتزاورون ، بَليتْ بينهم عُرى التعارف ، وانقطعتْ منهم أسباب الإخاء . فكلُّهم وحيدٌ وهُمْ جميعٌ ، وبجانب الهجر وهم أخلاّء ، لا يتعارفون لليلٍ صباحاً ، ولا لنهارٍ مساءً . أيّ الجديدين (٢) ظَعَنوا فيه كان عليهم سَرْمَدا (٣) » .

ثم يقول هذا القول الرهيب : « لا يعرفون مَن أتاهم ، ولا يحفِلون مَن بكاهم ، ولا يجيبون مَن دعاهم ! »

فهل رأيت الى هذا الإبداع في تصوير هَوْل الموت ووحشة القبر وصفة سكّانه في قوله : « جيرانٌ لا يتآنسون وأحبّاء لا يتزاورون ! » ثم هل فطنت إلى هذه الصورة الرهيبة لأبدية الموت التي لا ترسمها إلا عبقرية عليّ : « أيّ الجديدين ظَعَنُوا فيه كان عليهم سرمدا ! » ومثل هذه الروائع في « النهج » كثير .

هذا الذكاء الخارق وهذا الخيال الخصب في أدب الإمام يتحدان اتحاد الطبيعة بالطبيعة ، مع العاطفة الهادرة التي تمدّهما بوهج الحياة. فإذا الفكرة تتحرك وتجري في عروقها الدماء سخيّةً حارّة . وإذا بها تخاطب فيك الشعور بمقدار ما تخاطب العقل لانطلاقها من عقل تمدّه العاطفة بالدفء . وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثر من آثار الفكر أو الخيال في

---

١ ـ ارتجال الصفة : وصف الحال بلا تأمل ، فالواصف لهم بأول النظر يظنهم صرعى من السبات ، أي النوم .

٢ ـ الجديدان : الليل والنهار .

٣ ـ سرمد : أبدي .

ميادين الأدب وسائر الفنون الرفيعة ، إن لم تكن للعاطفة مشاركةٌ فعّالة في إنتاج هذا الأثر . ذلك ان المركّب الإنساني لا يرضيه ، طبيعياً ، إلا ما كان نتاجاً لهذا المركّب كله . وهذا الأثر الأدبي الكامل ، هو ما نراه في نهج البلاغة . وإنك لتحس نفسك مندفعاً في تيّار جارف من حرارة العاطفة وانت تسير في نهج البلاغة من مكان إلى آخر .

أفلا يشيع في قلبك الحنان والعطف شيوعاً وأنت تصغي إلى عليّ يقول : « لو أحبّني جبلٌ لتَهافت » أو « فقْد الأحبّة غربة ! » أو « اللهم إني أستعديك على قريش ، فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي ، وقالوا : « ألاَ إنَّ في الحق أنْ تأخذه وفي الحق أنْ تمنعه ، فاصبر مغموماً أو مت متأسفاً ! فنظرتُ فإذا ليس لي رافدٌ ولا ذابٌّ ولا مساعد إلاّ أهل بيتي ! »

واليك كلاماً له عند دفن السيدة فاطمة ، يخاطب به ابن عمّه الرسول :

« السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك ! قلّ ، يا رسول الله ، عن صفيّتك صبري ، ورقّ عنها تجلّدي ، إلاّ أن لي في التأسّي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزّ ! » ومنه « أمّا حزني فسَرْمَد ، وأمّا ليلي فمسهّد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ! »

ثم إليك هذا الخبر :

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام علي قال :

خَطَبَنَا هذه الخطبةَ بالكوفة أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو قائم على حجارة نَصَبَهَا له جعدة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، فقال عليه السلام ، في جملة ما قال :

« ألا إنه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً . وأزمعَ الترحالَ عبادُ الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى ! ما ضرّ إخواننا الذين سُفكتْ دماؤهم وهم بصفّين أنْ لا يكونوا اليومَ أحياء يسيغون الغُصَص ، ويشربون الرَّنق ؟! قد ، والله ، لقوا الله فوفّاهم أجورَهم وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم ! أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق ؟ أين عمّار ؟ وأين ابن التيهان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة ؟ »

قال : ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء !

وأخبر ضرار بن حمزة الضابيء قال : فأشهد لقد رأيته – يقصد الإمام – في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وهو قائمٌ في ظلامه قابضٌ على لحيته يتململ ويبكي بكاء الحزين ويقول : « يا دنيا يا دنيا ، اليك عني ! أبي تعرّضتِ ؟ أم إليّ تشوّقتِ ؟ لا حان حينُكِ ، هيهات ! غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طلّقتُكِ ثلاثاً لا رجعة فيها ! فعيشُكِ قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير ! آه من قلّة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظيم المورد ! »

هذه العاطفة الحارّة التي عرفها الإمام في حياته ، تُواكبُه أنّى اتّجه في نهج البلاغة ، وحيث سار . تُواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط ، كما تواكبه في ما يثير العطف والرضا.

حتى إذا رأى تخاذل أنصاره عن مساندة الحق فيما يناصر الآخرون الباطل ويحيطونه بالسلاح وبالأرواح ، تألّم وشكا ، ووبّخ وأنّب ، وكان شديداً قاصفاً ، مزمجراً ، كالرعد في ليالي الويل ! ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله : « أيها الناس المجتمعةُ أبدانهم ، المختلفةُ أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصمّ الصِّلاب الخ » ، لتدرك أية عاطفة متوجّعة ثائرة هي تلك التي تمدّ هذه الخطبة بنَبْض الحياة وجَيَشانها !

وإنه لمن المعيي أن نسوق الأمثلة على تدفّق العاطفة الحية التي تبث الدفء في مآثر الإمام . فهي في أعماله ، وفي خُطَبه وأقواله ، مقياسٌ من المقاييس الأُسُس . وما عليك إلاّ أن تفتح هذا الكتاب ، كي تقف على ألوان من عاطفة ابن أبي طالب ، ذات القوة الدافقة والعمق العميق !

الوحـــدة الوجوديّة

• وكان ما تباعدَ منها مضموماً في وَحْدة
طَرَفاها الأزل والأبد !

الأدب اصالةٌ في الفكر والحس والخيال والذوق ، تربط بين صاحبها وجملةَ الكائنات في وحدة وجودية مطلقة . ثم تعبّر عن نفسها بحياة تُحيا على أصولٍ من هذه الوحدة ، وبأسلوب جماليّ هو تجسيم حيّ للتفاعُلِ بين الأديب والكون.

ولما كان العلم تجزئةً كان الفنّ توحيداً . ولما كان العلم ينظر إلى الأشياء من حيث هي كائناتٌ وَجَب فكُّها وتذريرُها ، كان الفن ينظر إلى الأشياء من حيث هي كائناتٌ مجزّأة في ظاهرها، موحّدة في أصولها وحقيقتها، مما يؤول الى فكرة الشمول الكوني والارتباط الكامل بين مختلف مظاهر الوجود !

وما كان الأدب إلا بهذا الشمول !

وإذا كان الفلاسفة قد فطنوا الى وحدة الوجود في العصور المتأخرة ، فإن الأديب قد فطن لها منذ كان الانسان وكانت في أعماقه بذور الفن وأحاسيس الأدب . ذلك لأن دليل الفيلسوف عقله وقياسه ، وكلاهُا محدود بالنسبة للمركّب الانساني الحيّ . ودليل الأديب شعوره وإلهامه ، وهما انبثاق عاجلٌ وامضٌ عن جملة كيانه .

ثم إن نظرة الفيلسوف الى الكون كوحدة متفاعلة متكاملة ، إنْ هي إلاّ نظرة تظلّ سطحية إذا ما قيست بنظرة الأديب . فالفيلسوف يشاهد ويراقب ويقيس ثم يسجّل. وأداته في ذلك العقل وحده ، والعقل شيء من الانسان الحي بل قُلْ هو جانبٌ منه . والأديب

يتفاعل مع الكون والحياة تفاعلاً مباشراً مستمراً إذ يحس ويستلهم بعقله وشعوره وخياله ومزاجه وذوقه جميعاً ، أي بجملة كيانه . وهو ، إلى ذلك ، أسبق وأعمق . فالأديب أستاذ الفيلسوف : أستاذه ودليله منذ كان ، وأستاذه ودليله إلى الأبد !

وإذا كان هذا هو الأمر ، وهو كذلك ، فإنّ عليّ بن أبي طالب عظيمٌ من عظماء هذه الطائفة من حيث النظرة والأسلوب : طائفة الأدباء الخالدين الذين ينظرون إلى نجوم السماء ورمال الصحراء ومياه البحار وكساء الطبيعة فإذا هي أشياء من نفوسهم ، هذه النفوس التي تستشعر في الكون قوة وجودية واحدة جامعة كانت منذ الأزل وتبقى الى الأبد .

يقول ميخائيل نعيمة الذي يمثل طاقة الفنان على الاحساس العميق بوحدة الوجود في أدبنا العربي المعاصر : « بل كيف يكون أديباً من لا يحسّ جذوره في الأزل والأبد ، ولا يحسّ ما مضى وما سيأتي ! »

إن هذا الإحساس بالجمال الأسمى الذي يلف الكائنات جميعاً ، على تبايُن مظاهرها ، بوشاح واحد ، هو ما تراه في آثار عباقرة الأدب مهما تنوّعت موضوعات هذه الآثار ، ومهما اختلفت ظروفها . فإذا أنت سمعت صوت الشاعر العظيم ينطق بلسان المسيح قائلاً : « تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، ولكنْ أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ! » سمعتَ صوتاً من أعظم ما سمع الكون ، وأدركتَ أمتعَ نظرة تخترق أعماق الجمال الكلّي ، وتساءلت : أنّى للتراب والصخر وسُحب السماء أن تأتي بمثل هذه الروعة وهذا الجمال ، جمال زنابق الحقل وهي تنمو ، لو لم تكن وحدة الوجود هذه ولو لم يكن الجمال مدار الوجود الواحد ، ورابطة أجزائه منذ البداية حتى النهاية ؟ وهو ، في الوقت ذاته ، مدار الفكرة والشعور لدى الفنان : الخالق الصغير !

ومن ذلك قول المسيح الرائع وقد جاؤوه بزانية جعلتْ على نفسها سبيلاً بحكم شرائعهم :

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجم هذه الزانية بحجر ! »

وإذا أنت سمعتَ قول الشاعر العظيم ينطق بلسان سليمان بن داود :

« جيلٌ يمضي وجيلٌ يأتي والأرضُ قائمة مدى الدهر . والشمس تشرق والشمس تغرب

ثم تسرع الى موضعها الذي طلعتْ منه . تذهب الريح الى الجنوب وتدور الى الشمال ، تدور وتطوف في مسيرها ثم الى مداورها تعود الريح ! جميع الأنهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن ثم الى الموضع الذي جرت منه الأنهار الى هناك تعود لتجري أيضاً ! »

وإذا سمعتَه أيضاً يقول :

« أنا وردة الشارون وسوسنة الأودية ، كالسوسنة بين الشوك كذلك خليلتي بين البنات . كالتفاحة في أشجار الغابة كذلك حبيبي بين البنين . قد اشتهيتُ فجلستُ في ظله وثمرهُ حلوٌ في حلقي . قد ظهرت الزهور في الأرض ووافى أوان القضب وسُمع صوت اليمامة في أرضنا .

« يا حمامتي التي في نخاريب الصخر وفي خفايا المعاقل أريني محيّاك . أسمعيني صوتك فإن صوتك لطيف ومحيّاك جميل ، إلى أن ينسمَ النهارُ وتنهزم الظلال . عد يا حبيبي وكن كالظبي أو كغفر الأيلة على جبال باتر .

« جميلةٌ أنت يا خليلتي ! جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك ، وشَعرُك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد .

شفتاك كسمْط من القرمز ونطقُك عذب . خدّاك كفلقة رمانة من وراء نقابك . عنقك كبرج داود المبني للسلاح الذي علقَ فيه ألف مِجَنّ ، جميع تروس الجبابرة . الى أن ينسمَ النهار وتنهزم الظلال أنطلق إلى جبل المرّ والى تلّ اللبّان . هلمّي معي من لبنان أيتها العروس . معي من لبنان انظري من رأس أمانة من رأس حَرَمون من مرابض الأسود من جبال النمور . شفتاك تقطران شهداً أيتها العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف ثيابك كعرف لبنان .

« عين جنّات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان ، هبّي يا شمال وهلمّي يا جنوب انسمي على جنّتي فتنسكب أطيابها ! »

إذا أنت سمعت ذلك ووعيته وعياً صحيحاً ، أدركت ان سليمان ينهل شعره من المنهل ذاته الذي ارتوى منه المسيح وإن اختلف الموضوع .

ومن ذلك قول فيكتور هيغو ، أحد عظماء الفنانين الذين نبغوا بعد الثورة الفرنسية ، وهو

حوار بين الكواكب يرينا الشاعرُ به الانسانَ وقد ضاع وكاد يختفي هو والأرض التي يسكنها ، لضآلتهما في سعة الكون الواحد العجيب :

ما هذا الصوت التافه الضعيف الذي يهمس ؟
أيتها الأرض ، ما الغاية من دورانك ، في أفقك الضيق المحدود ؟
وهل أنتِ سوى حبةٍ من الرمل مصحوبة بذرّة من رماد ؟
أما أنا ، ففي السماء الزرقاء الشاسعة أرسم إطاراً هائلا
فترى المسافة المكانية ، وهي فزعةٌ مرعوبة ، جمالي مشوّها !
وهالتي ، التي تحيل شحوب الليالي الى حمرة قانية
ككُرات من الذهب تعلو وتهبط متقاطعةً في يد الحاوي ؛
تبعد ، وتجمع ؛ وتمسك سبعة من الأقمار الضخمة الهائلة !

وها هي الشمس تجيب :

سكوتاً ، هناك في زاوية من السماوات ، ايتها الكواكب ، أنتم رعاياي !
هدوءا ! أنا الراعي وأنتم الرعية .
إنكما كعربتين تسيران جنباً الى جنب للدخول من الباب .
في أصغر بركان عندي ، المريخ مع الأرض
يدخلان دون أن يلمسا جوانب المدخل !

وها هي ذي نجوم الدب الأصغر تضيء مثل
سبع أعينٍ حبّة لها بدل الحبّات شموس !

وها هوذا طريق المجرّة يرسم
غابةً ناضرة جميلة مليئة بنجوم السماء !
أيتها الكواكب السفلى ، إن مكاني من مكانكم في درجة من البعد
حتى أن نجومي المضيئة الثابتة الشبيهة بمجاميع الجزائر المتناثرة في الماء ،
وشموسي الكثيرة ، ليست بالنسبة لنظركم الضعيف القاصر ،

في زاوية بعيدة من السماء شبيهة بصحراء حزينة يتلاشى الصوت فيها ،
سوى قليل من الرماد الأحمر قد انتثر في جوف الليل ! »

وها هي ذي نجوم مجرّة أخرى تصوّر عوالم لا تقلّ عن تلك العوالم . متناثرة في الأثير ، ذلك المحيط الذي لا رمال فيه ولا حصباء في جوانبه ، تذهب أمواجه ولكن لا تعود أبداً إلى شواطئه .

وأخيراً ها هو الإله يتحدث :

« ليس لديّ إلا أن أنفخ ، فيصبح كل شيء ظلاما (١) »
وإليك ما يقوله عليّ بن أبي طالب في صفة الطاووس (٢) :

« ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذي أقامَه في أحكم تعديل ، ونضّد ألوانَه في أحسن تنضيد . بجناح أشرجَ قَصَبَه . وذَنَبٍ أطال مسحَبَه . إذا دَرَجَ إلى الأنثى نشَرَه من طيّه ، وسما به مُطِلّاً على رأسه . تخالُ قَصَبَه مداريَ من فضّة ، وما أُنبتَ عليه من عجيب داراته وشموسه خالصَ العِقْيان وفِلَذَ الزبرْجد . فإنْ شبّهتَه بما أنبتتِ الأرضُ قلت : جَنيٌّ جُنِيَ من زهرة كل ربيع . وإنْ ضاهيتَه بالملابس فهو كوشْي الحُلل أو مُونق عَصْب اليمن . وإنْ شاكلتَه بالحليّ فهو كفصوصٍ ذات ألوان قد نُطّقَت باللجين المكلّل : يمشي مشيَ المرِح المختالِ ، ويتصفّح ذَنَبَه وجناحيه فيقهقهُ ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه !

« فإذا رمى ببصره الى قوائمه زَقَا معولاً يكاد يُبين عن استغاثته . ويشهد بصادق توجّعه ، لأن قوائمه حُمْشٌ كقوائم الديَكة الخلاسية . وله في موضع العرف قُنْزُعةٌ خضراء موشّاة . ومَخْرَج عنقه كالإبريق ، ومَغْرَزُها الى حيث بطنه كصِبْغ الوسمة اليمانية ، أو كحريرة مُلْبَسة مرآةٌ ذات صِقال

---

١ — نظرية الأنواع الادبية ، ترجمه عن الفرنسية الدكتور حسن عون .
٢ — ما تحتاج اليه من شرح المفردات والتعابير الواردة في هذه القطعة ، تجده في فصل « خلقة الطاووس » بهذا الكتاب .

« ومع فتق سمعه خطٌ كمُستَدَقّ القلم في لون الأقحوان أبيض يقَقٌ ، فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق . وقلّ صِبْغٌ إلا وقد أخذ منه بقسط وعلاه بكثرة صقاله وبصيص ديباجه ورونقه فهو كالأزاهير المبثوثة لم تُربّها أمطارُ ربيع ولا شموسُ قَيْظ . وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقُطُ تترى ، وينبُتُ تباعاً ، فينحتُّ من قصبه انحتاتَ أوراق الأغصان ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه : لا يخالف سالفَ ألوانه ، ولا يقع لونٌ في غير مكانه . إذا تصفّحتَ شعرةً من شعرات قصبه أرتْك حمرةً وردية ، وتارةً خضرة زبرجدية ، وأحياناً صُفرة عسجدية ، فكيف تصل الى صفة هذا عمائقُ الفطن ، أو تبلغه قرائح العقول ، أو تستنظم وصفَه أقوالُ الواصفين ! »

وإليك قليلاً من قوله في خلق السماء والأرض :

« فطَر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتّد بالصخور ميدان أرضه . ثم أنشأ سبحانه فتْقَ الأجواء ، وشقّ الأرجاء ، وسكائكَ الهواء ، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيارُه متراكماً زخّارُه ، حمّله على متن الرياح العاصفة ، والزعزع القاصفة . ثم أنشأ سبحانه ريحاً أعتقَ مهبّها ، وأعصف مجراها ، وأبعد منشأها ، فأمرها بتصفيق الماء الزخّار ، وإثارة موج البحار ، فمخضَتْه مخضَ السقاء وعصفتْ به عصفَها بالفضاء تردّ أوله إلى آخره ، وساجيَه الى مائره ... »

وأوصيك خيراً بهذه الآيات الروائع التي تتحدث بها عبقرية الإمام الى المركّب الانساني جميعاً فتصوّر له كيف يستوي الجليل واللطيف من الكائنات ، والشمس والقمر ، والماء والحجر ، والكبير والصغير ، والهيّن والصعب ، في معنى الوجود . وكيف تشترك جميعاً في صفة الكون فإذا هي متساوقة متعاونة في النشيد الأعظم : نشيد الوجود الواحد الذي لا يجوز فيه تعظيم الدوحة العاتية على حساب النبتة النامية ، ولا يصحّ فيه تمجيد البحر الواسع واحتقار الساقية التي تضيع مياهها بين العشب والحصى .

يقول عليّ :

« لو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغَ غاياته ما دلّتْك الدلالة إلاّ على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة . وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف ، في خلقه إلاّ سَواء !

وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء . فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلافِ هذا الليل والنهار ، وتفجُّر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال الخ ... »

ثم استمع اليه يقول :

« لا تنالون نعمةً إلا بفراق أخرى ، ولا يُعمَّر معمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهدْم آخرَ من أجَله ، ولا تجدَّدُ له زيادة في أكلة إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ، ولا يحيا له أثرٌ إلا مات له أثر ، ولا يتجدَّد له جديد إلاّ بعد أن يخلَق له جديد ، ولا تقوم له نابتةٌ إلا وتسقط منه محصورة . وقد مضتْ أصولٌ نحن فروعها ! »

إنه الوجود الواحد يتكلم عن نفسه ، بلسانه !

وفي خاطري هذه المشابهة بين مقطع من معلّقة امرىء القيس ، ومقاطع كثيرة من أدب ابن أبي طالب ، وهي تصبّ جميعاً في معنى الوحدة الوجودية الكاملة . ثم تزيد عن ذلك بانطلاقةٍ فذة إلى قهر الظالم والمعتدي ، وإلى نصرة الضعيف في النبت والأرض والبهيمة والأرض الواطئة حتى يستوي الوجود قوياً بهياً .

يقول الشاعر الكوني امرؤ القيس أولاً ما خلاصته :

لقد قعدتُ لذلك البرق أرقبُ من أين يجيء المطر ، ويا لروعة ما رأيت ! لقد أقبل المطر من جهاتٍ أربع سيولاً سيولا ! رأيتُه من بعيدٍ فكان يمينه في تقديري على جبل « قَطَن » ويسارُه على جبلَي « الستار » و « يَذبُل » . وراح الماء ينبجس شديداً هنا وهناك فتقلب سيولُه الأشجارَ قلْباً عتيّاً ، ومرَّ على جبل « القنان » برشاشهِ فأكرَهَ الوعولَ على النزول عنه . بعد ذلك يقول الشاعر :

وتَيماءَ لم يترُكْ بها جذْعَ نخلةٍ — ولا أُطُماً إلاّ مَشيْداً بجَنْدَلِ
كأنّ ثبيراً في عرانينِ وَبْلِهِ — كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ
كأن ذرى رأس المجيمرِ غدوةً — من السيل والغثّاء فلكةُ مغزلِ
وألقى بصحراء الغبيطِ بَعَاعَهُ — نزولَ اليماني ذي العِياب المحمَّلِ

كأنّ مكاكيَّ الجواء غُـــــديّــــةً   نشاوى سُلافٍ من رحيقٍ مفلفـــلِ
كأنّ الـباع فيه غرقـــى عشيّـــــةً   بأرجائه القصوى ، أنا بيشُ عُنْصُلِ

فأنت ترى الى امرىء القيس كيف يلحظ أن المطر قد أسقط نخل تيماء كلّه ، وجرف أبنيتها فلم يبقَ منها إلا المشيد بالجنادل والصخور . أما جبل « ثبير » المعتز بشموخه على ما ما حوله من الأرض الواطئة ، فقد غطاه المطر إلاّ رأسه : فبدا كشيخِ قومٍ ملتفّ بكساء مخطط . وتتابع الأمطار طوفانها حول الجبال ثم تلقي أثقالها جميعاً في الصحارى التي ظلّت زمناً قاحلةً لا نبْتَ فيها ولا رُواء ، فإذا بها تنبت عشباً وزهراً ملوّناً يشبه الثياب الملونة الحسناء التي ينشرها التاجر اليماني امام أعين الناس . وقد أحسن المطر إلى هذه الصحارى المجدبة فإذا هي رياض زاهية تغنّي بها الطير طربةً سكرى ! أمّا الوحوش الضارية التي كانت تستبيح لنفسها افتراس الضعيف من الحيوان والطير ، فقد ذلّها المطر وأغرقها فطفت على الماء كأنها جذور البصل البرّي .

وهكذا يبدو المطر في خاطر الشاعر الجاهلي الكبير ، الذي يتابع رحلته حتى النهاية ، وكأنه يمثّل قوة الوجود المدبّرة . فهو قويٌّ عادلٌ كريمٌ ينصر الضعفاء الممثّلين بالأرض الواطئة وصغار الطير ، فيملأ الوادي بالنبت والزهر واللون ويُدخل الفرحة على قلوب العصافير فتطرب وتغنّي . ويداعب الأقوياء الممثّلين بالجبال التي يضايقها من كل جانب ويُضعف من شأنها . ويفتك بذوي البطش الممثلين بالسباع الضارية فيقهرها ويغرقها ويجعلها تافهة !

وهذا عليّ يحسّ أمام الغيث ما أحسّه امرؤ القيس من تمثيله القوةّ العادلة الكريمة ، فيقول في خاتمة حديث طويل :

« فلما ألقتِ السحائب بَعاعَ ما استقلّت به (١) من العبء المحمول عليها ، أخرج به من هوامد الأرض النبات (٢) ومن زُعْر الجبال الأعشاب (٣) فهي تَبْهَجُ بزينة رياضها

---

١ ـــ البعاع : ثقل السحاب من الماء . وألقى السحاب بعاعه : أمطر كل ما فيه .
٢ ـــ الهوامد من الأرض : ما لم يكن بها نبات .
٣ ـــ زعر ، بجمع أزعر ، وهو : الموضع القليل النبات .

وتزدهي بما أُلبستْه من رِيطِ أزاهيرها (١) وحِليْة ما سُمِطتْ به (٢) من ناضر أنوارها ، وجعل ذلك بلاغاً للأنام ورزقاً للأنعام ! »

ثم إن علياً يوجز الفكرة البعيدة في ما شاهده امرؤ القيس من عمل المطر في الجبال والسباع ، بهذه الكلمة : « مَن تعظّم على الزمان أهانه ! »

وإن هذه الروائع التي عبرت بنا في هذا الفصل . لتنبع كلّها من معين واحد بالرغم من اختلاف موضوعاتها وتبايُن أغراضها وتباعُد ظروفها . ففيها جميعاً هذه الاصالةُ في الفكر والحس والخيال والذوق ، التي تربط بين صاحبها وجملة الكائنات في وحدة وجودية مطلقة !

وأراك حيث رحت في أدب عليّ بن أبي طالب ، شاعراً بهذه الاصالة التي تحدوه أبداً إلى اكتناه الروابط الخفية الكامنة وراء مظاهر الحياة والموت ، ووراء الأشكال التي تختلف على الحقيقة الواحدة الثابتة التي لا تختلف . وما نزعتُهُ التوحيدية الجامحة إلا نزعة الأديب الحق يريد أن يركّز الوجود ، في عقله وقلبه على السواء ، على أصول لا يجوز فيها قديمٌ ولا جديد !

ويتبيّن من نهج البلاغة ان نظريات ابن أبي طالب الاجتماعية والأخلاقية ، تنبع بصورة مباشرة أو غير مباشرة من هذه النظرة الواحدة الشاملة الى الوجود . فما أقرب الموت من الحياة في سنّة الوجود . وما أقربَ طرفَي الخير والشر . وما أكثر ما يجتمع الحزن والسرور في قلبٍ واحدٍ في وقتٍ معاً ، والكسل والنشاط في جسد واحد . « فرُبَّ بعيدٍ هو أقرب من قريب — في أدب ابن أبي طالب — وربَّ رجاء يؤدي الى الحرمان ، وتجارة تؤول الى الخسران » . وليس عجيباً أن يجوز في الناس قول ابن أبي طالب : « من حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتَك حجابَ غيره انكشفتْ عورات بيته ، ومن تكبّر على الناس ذلّ » فالدائرة الوجودية الواحدة تقضي على الناس والأشياء والكائنات جميعاً بالخضوع لقاعدتها

---

١ — ريط ، جمع ريطة — بالفتح — وهي كل ثوب رقيق ليّن .
٢ — سمط الشيء : علقت عليه السموط وهي : الخيوط تنظم في القلادة .

التعادلية التي أدركها الإمام بحَدْسه وعقله وحسّه على السواء ، إدراكاً عجيباً لشدة ما فيه من الوضوح ثم لكثرة ما يمدّ صاحبه بالقوة على الكشف ، فإذا به يعبّر عن هذا الإدراك بكلمات تؤلف قواعد رياضية تتناول المظاهر وتنفذ منها الى ما وراءها من أصولٍ وجودية عميقة ثابتة .

وهكذا يستوي ابن أبي طالب وقممُ الوجود على صعيد واحد من النظرة الى الحياة الواحدة : والاحساس العميق بالوجود الواحد ، فإذا بأدبه صرخات متلاحقة تنطلق من قلبٍ عبقريّ يريد أن ينفذ إلى الأشياء حتى يرى أغوارها فيطمئن الى هذا الإدراك ، وحتى يعقل ما تبايَنَ منها ثابتاً على قاعدة ، وما اختلف منها نابعاً من أصل ، وما تباعَدَ منها مضموماً في وحدةٍ طرَفاها الأزل والأبد !

الأسلوب والعبقرية الخطابية

بيانٌ لو نطَقَ بالتقريع لانقضَّ على لسان
العاصفة انقضاضا ! ولو هدَّد الفسادَ
والمفسدين لتَتفَجّرَ براكينَ لها أضواء
وأصوات ! ولو دَعَا إلى تأمُّلٍ لرَافقَ
فيك مَنْشَأَ الحسِّ وأصْلَ التفكير
فساقَكَ الى ما يريده سوقاً ووَصَلَك بالكون
وصلا !

ويندمج الشكل بالمعنى اندماج الحرارة
بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء ،
فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرءُ قبالةَ
السيلِ إذ ينحدر والبحرِ إذ يتموّجُ
والريح ِ إذ تطوف !

أما إذا تحدّث اليك عن بهاء الوجود
وجمال الخلق ، فإنما يكتب على قلبك
بمدادٍ من نجوم السماء !

ومن اللفظ ما له وميض البرق ، وابتسامة
السماء في ليالي الشتاء ؛ !

هذا من حيث المادة . أما من حيث الأسلوب ، فعليّ بن أبي طالب ساحر الأداء . والأدب لا يكون إلاّ بأسلوب ، فالمبنى ملازمٌ فيه للمعنى : والصورة لا تقلّ في شيء عن المادة . وأيّ فنّ كانت شروط الإخراج فيه أقل شأناً من شروط المادة !

وإن قسّط علي بن أبي طالب من الذوق الفني ، أوالحسّ الجمالي ، لـمّماً يندر وجوده . وذوقه هذا كان المقياس الطبيعي الضابط للطبع الأدبي عنده . أما طبعه هذا فهو طبع ذوي الموهبة والاصالة الذين يرون فيشعرون ويدركون فتنطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم وتنكشف عنه مداركهم انطلاقاً عفوياً . لذلك تميّز أدب عليّ بالصدق كما تميّزت به حياته . وما الصدق إلا ميزة الفن الأولى ومقياس الأسلوب الذي لا يخادع .

وإن شروط البلاغة ، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال ، لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعليّ بن أبي طالب . فإنشاؤه مثلٌ أعلى لهذه البلاغة ، بعد القرآن . فهو موجز على وضوح ، قويّ جيّاش ، تامّ الانسجام لـمَا بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف ، حلو الرنّة في الأذن موسيقيّ الوقع . وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدة . ويشتدّ ويعنف في غيرها من المواقف ، ولا سيما ساعةَ يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلاّب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة . فأسلوب عليّ صريح كقلبه وذهنه ، صادق كطويته ، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة .

وقد بلغ أسلوب عليّ من الصدق حدّاً ترَفّع به حتى السجعُ عن الصنعة والتكلّف . فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجّعة ، أبعد ما يكون عن الصنعة ، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر .

فانظر الى هذا الكلام المسجّع والى مقدار ما فيه من سلامة الطبع : « يعلم عجيج الوحوش في الفلوات ، ومعاصي العباد في الخلوات ، واختلاف النينان في البحار الغامرات ، وتلاطُمَ الماء بالرياح العاصفات ! » أو إلى هذا القول من إحدى خطبه : « وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء ، فانظر الى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتـفَـجُّر هذه البحار ، وكثرة الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرُّق هذه اللغات ، والألسن المختلفات الخ ...» وأوصيك خيراً بهذا السجع الجاري مع الطبع : « ثم زيّنها بزينة الكواكب ، وضياء الثواقب (١) وأجرى فيها سراجاً مستطيرا (٢) وقمراً

١ ــ الثواقب : المنيرة المشرقة .

٢ ــ سراجاً مستطيرا : منتشر الضياء . ويريد به الشمس .

منيرا ، في فلك دائر ، وسقف سائر الخ » . فإنك لو حاولت إبدال لفظ مسجوع في هذه البدائع جميعاً ، بآخر غير مسجوع ، لعرفتَ كيف يخبو إشراقها ، ويبهت جمالها ، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقّته وهما الدليل والمقياس . فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورة فنية يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصناعة امتزاجاً حتى لكأنهما من معدن واحد يبعث النثرَ شعراً له أوزانٌ وأنغامٌ تُرْفِق المعنى بصورٍ لفظية من جوّها ومن طبيعتها .

ومن سجع الإمام آياتٌ تردّ النغمَ على النغم ردّاً جميلا ، وتُذيب الوقع في الوقع على قرارات لا أوْزَنَ منها على السمع ولا أحَبَّ ترجيعاً . ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذ حين ، ثم هذه الكلمات الشهيات على الأذن والذوق جميعاً : « أنا يومٌ جديد ، وأنا عليك شهيد : فاعملْ فيّ خيراً ، وقل خيرا ! »

وإذا قلنا إن أسلوب عليّ تتوفّر فيه صراحة المعنى وبلاغة الأداء وسلامة الذوق ، فإنما نشير الى القارىء بالرجوع الى « روائع نهج البلاغة » هذا ليرى كيف تتفجّر كلمات عليّ من ينابيعَ بعيدةِ القرار في مادّتها ، وبأيّةِ حُلّةٍ فنيّةٍ رائعة الجمال تمورُ وتجري . وإليك هذه التعابير الحسان في قوله : « المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانه » وفي قوله : « الحلم عشيرة » أو في قوله : «مَن لان عوده كثفتْ أغصانه» أو في قوله : «كلّ وعاء يضيق بما جُعل فيه إلاّ وعاء العلم فإنّه يتّسع » أو في قوله أيضاً : « لو أحبّني جبلٌ لتهافت » . أو في هذه الأقوال الرائعة : « العلم يحرسك وأنت تحرس المال . رُبَّ مفتون بحسن القول فيه . إذا أقبلتِ الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنَ غيره ، وإذا أدبرتْ عنه سلبتْه محاسنَ نفسه . ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء . افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئاً فإنّ صغيره كبيرٌ وقليله كثير . هلك خزّان المال وهم أحياء . ما مُتّع غنيٌّ إلاّ بما جاع به فقير ! » .

ثمّ استمعْ إلى هذا التعبير البالغ قمّةَ الجمال الفنّي وقد أراد به أن يصف تمكّنَه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء ؛ قال : « ما هي إلاّ الكوفة أقبضُها وأبسطُها ... »

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير ، هذه الأصالة التي تلازم الأديب الحقّ بصورةٍ مطلقة ولا تفوته إلاّ إذا فاتته الشخصية الأدبية ذاتها .

ويبلغ أسلوب عليّ قمّة الجمال في المواقف الخطابية ، أي في المواقف التي تثور بها عاطفته الجيّاشة ، ويتّقد خياله فتعتلج فيه صورٌ حارّةٌ من أحداث الحياة التي تَمرّس بها . فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفّق على لسانه تدفّق البحار . ويتميّز أسلوبُه ، في مثل هذه المواقف ، بالتكرار بُغيةَ التقرير والتأثير ، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين . وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبار الى استفهام الى تعجّب الى الى استنكار . وتكون مواطن الوقف فيه قويّة شافية للنفس . وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفن . واليك مثلاً على هذا خطبة الجهاد المشهورة ، وقد خطب عليٌّ بها الناسَ لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عاملَه عليها :

« هذا أخو غامد(١) قد بلغت خيله الأنبار وقتل حسّان بن حسّان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين .

« وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزع حِجلَها ، وقُلبها ، ورِعاثَها ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلمٌ ، ولا أريق لهم دم ، فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديرا .

« فيا عجبا ! والله يميتُ القلبَ ويجلب الهمّ اجتماعُ هؤلاء على باطلهم وتفرُّقكم عن حقكم . فقُبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى : يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَون ولا تَغزُون ، ويُعصى الله وترضون ! »

فانظر الى مقدرة الإمام في هذه الكلمات الموجزة . فإنه تَدرَّج في إثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم الى ما يصبو اليه . وسلك الى ذلك طريقاً تتوفّر فيه بلاغة الاداء وقوة التأثير . فإنه أخبر قومه بغزو سفيان بن عوف الأنبارَ ، وفي ذلك ما فيه من عار يلحق بهم . ثم أخبرهم بأن هذا المعتدي إنما قتل عاملَ أمير المؤمنين في جملة ما قتل ، وبأن هذا المعتدي لم يكتف بذلك بل أغمد سيفه في نحورٍ كثيرة من رجالهم وأهليهم .

---

١ ـــ اذا شئت شرحاً للمفرادت والتعابير الغريبة الواردة في هذه الخطبة ، فارجع اليها في مكانها من هذا الكتاب .

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجّه الإمام إلى مكان الحميّة من السامعين ، الى مثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربي ، وهو شرف المرأة . وعليّ يعلم أن من العرب من لا يبذل نفسه إلاّ للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة ، فإذا هو يعنّف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاةُ حِماها ثم انصرفوا آمنين ، ما نالت رجلاً منهم طعنة ولا أريق لهم دم .

ثم إنه أبدى ما في نفسه من دهش وحيرة من امر غريب : « فإنّ أعداءه يتمسكون بالباطل فيناصرونه ، ويدينون بالشر فيغزون الأنبار في سبيله ، فيما يقعد أنصاره حتّى عن مناصرة الحق فيخذلونه ويفشلون عنه .

ومن الطبيعي ان يغضب الإمام في مثل هذا الموقف ، فإذا بعبارته تحمل كل ما في نفسه من هذا الغضب ، فتأتي حارّة شديدة مسجّعة مقطّعة ناقمة : فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى : يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزُون . ويُعصى الله وترضون ! »

وقد تثور عاطفته وتتقطّع فإذا بعضها يزحم بعضاً على مثل هذه الكلمات المتقطّعة المتلاحقة : « ما ضعفتُ ، ولا جبنْتُ ، ولا خنْتُ ، ولا وهنْتُ ! » وقد تصطلي هذه العاطفة بألم ثائر يأتيه من قوم أراد لهم الخير وما اردوه لأنفسهم لغفلة في مداركهم ووهَن في عزائمهم، فيخطبهم بهذا القول الثائر الغاضب، قائلاً : « مالي أراكم أيقاظاً نُوّماً ، وشهوداً غُيّبا ، وسامعةً صمّاء ، وناطقةً بكماء الخ »

والخطباء العرب كثيرون ، والخطابة من الأشكال الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والاسلام ولا سيّما في عصر النبي والخلفاء الراشدين لما كان لهم بها من حاجة . أمّا خطيب العهد النبويّ الأكبر فالنبيّ لا خلافَ في ذلك . أمّا في العهد الراشدي ، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبةً ، فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه عليّ بن أبي طالب في هذا النحو . فالنطق السهل لدى عليٍّ كان منْ عناصر شخصيته وكذلك البيان القويّ بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعاً . ثم إنّ الله يسّر له العدّةَ الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقوّمات أخرى على ما مرّ بنا . فقد ميّزَه الله بالفطرة السليمة ، والذوق الرفيع ، والبلاغة الآسرة ، ثم بذخيرة

من العلم انفردَ بها عن أقرانه ، وبحجة قائمة ، وقوّة إقناع دامغة ، وعبقريّة في الارتجال نادرة . أضفْ إلى ذلك صدقَه الذي لا حدود له وهو ضرورةٌ في كلّ خطبة ناجحة ، وتجاربَه الكثيرة المرّة التي كشفتْ لعقله الجبّار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحرّكاته . ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق ، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية .

وإنّه من الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ مَن اجتمعت لديه كلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذّاً ، غير عليّ بن أبي طالب ونفرٍ من الخلق قليل ، وما عليك إلاّ استعراض هذه الشروط ، ثم استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي ، لكي تدرك أنّ قولنا هذا صحيح لا غلوّ فيه .

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش شديد الثقة بنفسه وبعدْل القول . ثم إنه قويّ الفراسة سريع الإدراك يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب ، زاخرٌ جنانُه بعواطف الحريّة والانسانية والفضيلة ، حتى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه أدركَ القومَ بما يحرّك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الخامدة .

أمّا إنشاؤه الخطابي فلا يجوز وصفُهُ إلاّ بأنه أساسٌ في البلاغة العربية . يقول أبو الهلال العسكري صاحب « الصناعتين » : ليس الشأن في إيراد المعاني — وحدها — وإنّما هو في جودة اللفظ ، أيضاً ، وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلوّ من أود النظم والتأليف .

من الألفاظ ما هو فخمٌ كأنه يجرّ ذيول الأرجوان أنفةً وتيها . ومنها ما هو ذو قعقعة كالجنود الزاحفة في الصفيح . ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين . ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقى على بعض العواطف ليستّر من حدّتها ويخفّف من شدّتها . ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء ! من الكلام ما يفعل كالمقرعة ، ومنه ما يجري كالنبع الصافي .

كل ذلك ينطبق على خطب عليّ في مفرداتها وتعابيرها . هذا بالإضافة إلى أنّ الخطبة تحسن إذا انطبعتْ بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين ، فكيف بها إذا كانت ،

كخطب ابن أبي طالب ، تجمع روعةَ هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله !

وإليك شيئاً مما قلناه في الجزء الثالث من كتابنا « الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية » بصدد بيان الإمام ، لا سيما ما كان منه في خُطبه :

نهجٌ للبلاغة آخذٌ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتّصل بالذوق الفنّي الرفيع ما بقي الانسان وما بقي له خيالٌ وعاطفةٌ وفكر ؛ مترابطٌ بآياته متساوق ؛ متفجّر بالحسّ المشبوب والإدراك البعيد ، متدفّقٌ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع ؛ متآلفٌ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليَندمج التعبيرُ بالمدلول ، أو الشكلُ بالمعنى ، اندماجَ الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء ؛ فما أنت إزاءه إلاّ ما يكون المرء قبالةَ السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموّج والريح إذ تطوف . أو قبالةَ الحَدَثِ الطبيعي الذي لا بدّ له أنْ يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة لا تفرّق بين عناصرها إلاّ لتمحو وجودَها وتجعلها إلى غير كَوْن !

بيانٌ لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً ! ولو هدّد الفساد والمفسدين لتفجّر براكينَ لها أضواء وأصوات ! ولو انبسط في منطقٍ ليَخاطبَ العقولَ والمشاعر فأقفلَ كلَّ بابٍ على كلّ حجّةٍ غير ما ينبسط فيه ! ولو دعا إلى تأمّلٍ لَرافقَ فيك منشأ الحسّ وأصل التفكير ، فساقك إلى ما يريده سَوْقاً ، ووصَلك بالكون وصْلاً ، ووحّد فيك القوى للاكتشاف توحيداً . وهو لو راعاك لأدركت حنانَ الأب ومنطق الأبوّة وصدْقَ الوفاء الانساني وحرارةَ المحبّة التي تبدأ ولا تنتهي ! أمّا إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون ، فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء !

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة ، وتنزيلٌ من التنزيل . بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون ، حتى قال أحدهم في صاحبه ان كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق !

وخطب علي جميعاً تنضح بدلائل الشخصية حتى لكأنّ معانيها وتعابيرها هي خوالج نفسه بالذات ، وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما تشتعل النار في موقدها تحت نفخ الشمال . فإذا هو يرتجل الخطبة حسّاً دافقاً وشعوراً زاخراً وإخراجاً بالغاً غايةَ الجمال .

وكذلك كانت كلمات عليّ بن أبي طالب المرتجلة ، فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة أن تكون من حيث الصدق ، وعمق الفكرة ، وفنّية التعبير ، حتى انها ما نطقتْ بها شفتاه ذهبتْ مثلاً سائراً .

فمن روائعه المرتجلة قولهُ لرجلٍ أفرط في مدحه بلسانه وأفرط في اتّهامه بنفسه : «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك » .

ومن ذلك أنه لمّا اعتزم أن يقوم وحده لمهمّةٍ جليلةٍ تردّد فيها أنصاره وتخاذلوا ، جاءه هؤلاء وقالوا له وهم يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين نحن نكفيكَهم . فقال من فوره : « ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم ؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حَيْفَ رُعاتها ، فإنني اليومَ لأشكو حَيْفَ رعيّتي ، كأنّني المقود وهم القادة » .

ولمّا قتل أصحاب معاوية محمداً بن أبي بكر فبلغه خبر مقتله قال : « إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألاَ إنّهم نقصوا بغيضاً ونقصْنا حبيباً » .

وسئل : أيهما أفضل : العدل أم الجود ؟ فقال : « العدل يضع الأمور مواضعها ، والجودُ يُخرجها من جهتها ، والعدلُ سائسٌ عامٌ ، والجود عارضٌ خاصّ ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما » .

وقال في صفة المؤمن ، مرتجلاً :

« المؤمن بشرُه في وجهه ، وحزنُه في قلبه ، أوسعُ شيء صدراً ، وأذلّ شيء نفساً . يكره الرفعة ، ويَشْنأ السمعة ، طويلٌ غمّه ، بعيدٌ همّه ، كثيرٌ صمتُه ، مشغولٌ وقتُه ، شكور صبور ، سهل الخليقة ، ليّن العريكة ! »

وسأله جاهل متعنّتٌ عن معضلة ، فأجابه على الفور : « اسألْ تفقّهاً ولا تسألْ تعنّتاً فإنّ الجاهل المتعلم شبيهٌ بالعالم ، وإنّ العالم المتعسّف شبيهٌ بالجاهل المتعنّت ! »

والخلاصة أنّ عليّ بن أبي طالب أديبٌ عظيمٌ نشأ على التمرّس بالحياة وعلى المرانة بأساليب البلاغة فإذا هو مالكٌ ما يقتضيه الفنّ من أصالةٍ في شخصية الأديب ، ومن ثقافة خاصّة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة.

أمّا اللغة ، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشلوس في المجلد الأول من كتابه « رحلة الى الشرق » هذا القول الذكيّ : « اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعاً بين سائر لغات الأرض . بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتُصوّره بدقّة ، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلّد صراخَ الحيوانات ورقرقةَ المياه الهاربة وعجيجَ الرياح وقصْفَ الرعد » ، أمّا هذه اللغة ، بما ذكر مرشلوس من صفاتها وبما لم يذكر ، فإنّكَ واجدٌ أصولها وفروعَها ، وجمالَ ألوانها وسحرَ بيانها ، في أدب الامام عليّ !

وكان أدباً في خدمة الإنسان والحضارة !

العدالة الكونية

وما يشتمل على منها

تكافؤ الوجود

وأحسَّ عليٌّ أنَّ هذا الكون العظيم
متعاونٌ متكافلٌ فكان من ذلك أن الريحَ
إذا اشتدَّت حرَّكتِ الأغصانَ تحريكاً
شديداً ، وإذا أجفلت قلَعَتِ الأشجارَ
وهاجت لها العناصر ، وأنها إذا لانتْ
وجرَتْ فُوَيقَ الأرضِ جرْياً خفيفاً
سكرتْ بها صفحات الماء وسكنتْ تحتَها
الأشياء !

وأدرك كذلك أن قوة الوجود الشاملة ترعى
هشيمَ النبْت بقانون ترعى به الورقَ
الأخضر والزرعَ الذي استوى على سُوقه
واهتزَّ للريح !

وأسقط ابن أبي طالبٍ نظرية التجّار بقولٍ
تَنَاوَله من روح الوجود وكأنه يشارك به
الكونَ في التعبير عمّا في ضميره !

نظرةٌ واحدة يلقيها المرء على الكون الخارجي وأحواله : على النجوم الثابتة في سَعة الوجود والكواكبِ السابحة في آفاق الأبد ، وعلى الشمس المشرقة والسحاب العارض والريحِ ذاتِ الزفيف ، وعلى الجبال تشمخُ والبحارِ تقصفُها القواصفُ أو يسجو على صفحاتها الليل ،

تكفيه لأن يثق بأنّ للكون قانوناً وأنّ لأحواله ناموساً واقعاً كلٌّ منهما تحت الحواسّ وقائماً بكل مقياس .

ونظرةٌ واحدةٌ يُلقيها المرء على ما يحيط به من الطبيعة القريبة وأحوالها : على الصيف إذ يشتدّ حرّه وتسكن ريحُه ، والخريف إذ يكتئبُ غابُه وتتناوحُ أهواؤه وتعبسُ فيه أقطارُ السماء ، والشتاء إذ ترعد أجواؤه وتضطربُ بالبروقِ وتندفع أمطارُه عُباباً يزحمُ عُباباً وتختلط غيومهُ حتى لتُخفي عليك معالمَ الأرض والسماء ، والربيعِ يبسطُ لك الدنيا آفاقاً ندّية وأنهاراً غنيّة وخصباً ورُواءً وجناناً ذات ألوان ؛ كافيةٌ لأن تجعله يثقُ بأنّ لهذه الطبيعة قانوناً وأنّ لأحوالها ناموساً واقعاً كلٌّ منهما تحت الحواسّ وقائماً بكل مقياس .

ونظرةٌ فاحصةٌ واحدة يُلقيها المرء على هذي وذاك ، كافيةٌ لتدلّه على أنّ هذه النواميس والقوانين صادقةٌ ثابتةٌ عادلة ، يقومُ منطقُها الصارمُ بهذه الصفات . وفيها وحدَها ما يُبرّر وجودَ هذا الكون العظيم !

ألقى ابنُ أبي طالب تلك النظرةَ على الكون فوَعَى وَعْياً مباشراً ما في نواميسه من صدقٍ وثبات وعدل ، فهزّه ما رأى وما وعى ، وجرى في دمه ومشى في كيانه واصطخب فيه إحساساً وفكراً ، فتحرّكتْ شفتاه تقولان : « ألا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض » . ولو حاولتَ أن تجمع الصدق والثبات والعدل في كلمة واحدة ، لَمَا وجدتَ لفظةً تحويها جميعاً غير لفظة « الحق » . ذلك لما يتّحد في مدلولها من جوهر الكلمات الثلاث !

وأدرك ابنُ أبي طالب في أعماقه أنّ المقايسة تصحّ أصلاً وفرعاً بين السماء والأرض اللتين قامتا بالحقّ واستوتا بوجوهه المتلازمةِ الثلاثة : الصدقِ والثبوت والعدل ، وبين الدولة التي لا بدّ لها أن تكون صورة مصغّرة عن هذا الكون القائم على أركان سليمة ثابتة ، فإذا به يحيا في عقله وضميره هذه المقايسةَ على صورة عفوية لا مجال فيها لواغلٍ من الشعور أو لغريبٍ من التفكير ، ثم لا يلبث أن يقول :

« وأعظمُ ما افترض من تلك الحقوق حقُّ الوالي على الرعية ، وحقّ الرعيّة على الوالي فريضةٌ فرَضَها الله لكلٍّ على كلّ ، فجعلها نظاماً لألفتهم ، فليست تصلح الرعيّةُ إلاّ بصلاح الوُلاة ، ولا يصلح الولاةُ إلاّ باستقامة الرعيّة . فإذا أدّت الرعيّةُ إلى الوالي حقّه ،

وأدّى الوالي إليها حقّها ، عزّ الحقّ بينهم ، واعتدلتْ معالمُ العدل وجرَتْ على أذلالها السّنَنُ (١) فصلُحَ بذلك الزمانُ وطُمِعَ في بقاء الدولة . وإذا غلبتِ الرعيّةُ واليها : أو أجحف الوالي برعيّته ، اختلفتْ هنالك الكلمة وظهرتْ معالمُ الجور وتُركتْ مَحاجَ السّنَن فعُمِلَ بالهوى وعُطّلتِ الأحكام وكثرتْ علل النفوس ، فلا يُستَوحَشُ لعظيمِ حقٍّ عُطّلَ (٢) ولا لعظيمِ باطلٍ فُعِلَ ! فهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار وتعظم تَبِعاتُ الله عند العباد ! »

وأوصيك خيراً بهذا الإحكام للروابط العامة الكبرى بين عناصر الدولة على لسان علي ، ثم بين الأعمال الخيّرة المنتجة وبين ثبوت هذه العناصر على أُسُسٍ من الحق ، أو قلْ من الصدق والثبوت والعدل : وجوه الحق الثلاثة التي تقوم بها السماوات والأرض .

وأحسّ عليّ أن هذا الكون العظيم متعاونٌ متكافلٌ فكان من ذلك أنّ الريح إذا اشتدّت حرّكتْ الأغصانَ تحريكاً شديداً ، وإذا أجفلتْ قلعتِ الأشجارَ وهاجت لها العناصر ، وأنّها إذا لانت وجرتْ فُوَيْقَ الأرضِ جرْياً خفيفاً سكرتْ بها صفحاتُ الماء وسكنتْ تحتها الأشياء .

وأحسّ أن الشمس إذا ألقت على الأرض نورها بدتْ معالمُ الأرض للعيون والأذهان ، وإذا خلّتْها خلّتْ عليها من الظلمة ستاراً . وأنّ النبتة تنمو وتزهو وتورق وقد تثمر ، وهي شيءٌ يختلف في شكله وغايته عن أشعّة النهار وجسمِ الهواء وقطرة الماء وتراب الأرض ، ولكنها لا تنمو ولا تورق إلاّ بهذه الأشعّة وهذا الجسم وهذه القطرة وهذا التراب .

وأحسّ أنّ الماء الذي « تلاطَمَ تيّارُه وترَاكمَ زَخّارُه » كما يقول ، إنّما « حُمِلَ على متْنِ الريح العاصفة والزعزع القاصفة » . وأنّ الريح التي « أعصفَ الله مجراها وأبعد مَنْشأها » مأمورةٌ — على بُعد هذا المنشأ — « بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج البحار ، تعصفُ به

---

١ — أذلال ، جمع ذل — بكسر الذال — وذل الطريق : محجّته ، وهي جادته : أي وسطه . وجرت السنن أذلالها ، أو على أذلالها : جرت على وجوهها .

٢ — أي : اذا عطل الحق لا تأخذ النفوس وحشة أو استغراب لتعوّدها تعطيل الحقوق وأفعال الباطل ، ولاستهانتها بما تفعل .

عصفَها بالفضاء وتردّ أوّلَه إلى آخره ، وساجيَه إلى مائره (١) حتى يعبّ عُبابُه » . ومن زينة الأرض وبهجة القلوب هذه النجوم وهذي الكواكب ، وضياء الثواقب (٢) والسراج المستطير (٣) والقمر المنير !

أحسّ ابنُ أبي طالب من وراء ذلك جميعاً أنّ هذا الكون القائم بالحقّ ، إنّما ترتبط عناصرُه بعضُها ببعض ارتباطَ تعاوُن وتسانُد ، وأنّ لقواه حقوقاً افترِضَتْ لبعضها على بعض ، وأنّها متكافئةٌ في كلّ وجوهها متلازمة بحُكم وجودها واستمرارها .

فأدرك في أعماقه أنّ المقايسة تصحّ أصلاً وفرعاً بين هذه العناصر المتعاونة المتكافئة ؛ وبين البشر الذين لا بدّ لهم أن يكوّنوا متعاونين متكافئين بحكم وجودهم واستمرارهم ، فهم من أشياء هذا الكون يجري عليهم ما يجري على عناصره جميعاً من عبقريّة التكافل الذي يراه عليّ فرضاً عليهم لا يحيون إلاّ به ولا يبقون . فإذا به يلفّ عالمَ الطبيعة الجامدة وعالمَ الإنسان بومضة عقلٍ واحدة ، وانتفاضة إحساسٍ واحدة ، ليستشفّ عدالةَ الكون القائم على وَحْدَةٍ من الصدق والثبات والعدل ، مطلقاً هذا الدستور الذي يشارك به الكونَ في التعبير عن ضميره ، قائلاً :

« ثم جعل من حقوقه حقوقاً افترضَها لبعضِ الناس على بعض ، فجعلَها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضُها بعضاً ، ولا يُستَوْجَبُ بعضُها إلاّ ببعض ! »

ومن هذا المعين أيضاً قولٌ له عظيمٌ يقرّر به أنّ دوام نعمةٍ من النعم مرهونٌ بما فُرض على صاحبها من واجب طبيعيّ نحو إخوانه البشر ، وأن عدم القيام بهذا الواجب كافٍ وحده لأن يزيلها ويُفنيها :

« مَن كثُرتْ النِّعَمُ عليه كثُرت الحوائج إليه . فمن قام فيها بما يجب عرّضَها للدوام والبقاء ، ومن لم يقم فيها بما يجب عرّضَها للزوال والفناء » .

---

١ ــ الساجي : الساكن . والمائر : الذي يذهب ويجيء ، أو المتحرك مطلقاً . وعبّ عبابه : ارتفع علاه .

٢ ــ الثواقب : المنيرة المشرقة .

٣ ــ المستطير : المنتشر الضياء . والسراج المستطير : الشمس .

ففي هذين القولين من التعبير عن عدالة الكون ، والناسُ من موجوداته ، ما لا يحتاج إلى كثيرٍ من الايضاح . فحقوق العباد — على لسان عليّ — يكافىء بعضها بعضاً . فهي أشبه ما تكون بحقّ الماء على الريح ، والنبتة على الماء ، والماء على الشمس ، والشمس على قانون الوجود . وهذه السنّة التي تفرض على الإنسان ألاّ يستحقّ شيئاً من الحقوق إلاّ بأدائه حقوقاً عليه ، ليست إلاّ سُنّة الكون العادلة القائمة بهذا العدل .

ولينظر القارىء في هذا الأمر نظراً سديداً ثم ليقلْ رأيَه في ما رأى . فإنّه إن فعل أدرك لا شكّ أنّ هذه القاعدة التي بلغ ابن أبي طالب بها الى جذور العدالة الكونية ، ثابتةٌ لا تغيّر نفسها ولا شذوذ ينقضها .

فعناصر هذا الكون لا تأخذ إلا قدر ما تعطي ، ولا يكسب بعضُها إلاّ ما يخسره بعضها الآخر . فإذا أخذت الأرض من الشمس نوراً ودفءاً ، أعطت الوجودَ من عمرها قدر ما أخذت . وكذلك إذا أخذتْ من الليل ظلاً يغمرها . وإذا تناولت الزهرةُ من عناصر الكون الكثيرة ما يحييها وينميها ويعطيها عبيراً شهيّاً ، فلسوف يأخذ النورُ والهواءُ من لونها وعطرها بمقدار ما أعطيَاها ، حتى إذا تكامَلَ انعقَادها وبلغت قمةَ حيَاتها ، تَعاظمَ مقدارُ ما تدفعه من عمرها ، فإذا بالحياة والموت يتنازعانها حتى تُسلم إليه أوراقَها وجذْعَها . أما الأرض فتبتلع منها كل ما كانت قد منحتْها إياه .

والبحر لا يستعيد الى جوفه إلاّ ما أعطى السماءَ من غيومٍ والبرَّ من أمطار .

وكذلك الانسان في حياته الخاصة . فهو لا يحظى بلذة إلاّ بفراقِ أخرى يدفعها ، قاصداً أو غير قاصد ، عوضاً عمّا أخذ . وهو لا يولد إلا وقد تقرّر أنه سيموت . يقول عليّ : « ومالك الموت هو مالك الحياة ! »

وعن هذا التوازن الحكيم في قانون الكون برحابه وأفلاكه ، وأرضه وسمائه ، وجامداته وأحيائه ، يعبّر ابنُ أبي طالب بهذه الكلمة التي تجمع سداد الفكر الى عنف الملاحظة إلى عبقرية البساطة : « ولا تُنال نعمةٌ إلاّ بفراق أخرى ! »

ولينظر الناظرون في هذا القول فإنّهم إن فعلوا وثقوا بأنّه الواقع الذي يرتسم كلماتٍ هي أشبه بالقاعده الرياضية التي لا يمكن الخروج عليها .

أمّا في الحياة العامّة ، فليس بين شؤون الانسان شأنٌ واحدٌ يشذّ عن هذه القاعدة التي انتزعها عليّ بن أبي طالب من مادّة الكون العظيم. فحقّك على مجتمعك هو أن يقيّم هذا المجتمعُ ما تعطيه ، كمّيّةً ونوعاً ، ثم أن تأخذ منه بمقدار ما أعطيتَ . أمّا إذا حصلتَ من المكافأة على أقلّ ممّا أعطيتَ، فإنّ نصيبك عند ذلك ذاهبٌ إلى سواك، وإن سواك يتمتّع بخير أنتَ صاحبه ولا شكّ ، وإنك في النتيجة مغصوبٌ مظلوم . وأمّا إذا أخذتَ من المكافأة فوق ما أعطيتَ ، فإنّ نصيب غيرك منها ذاهبٌ إليك ، وإن سواك من الخلق يجوع بما أكلتَ ، وإنك بذلك غاصبٌ ظالم . ووجود المظلوم والظالم في المجتمع مَفْسدةٌ له ومنقصةٌ في موازين العدالة الاجتماعية التي لا تستقيم إلاّ إذا دخلتْ في نطاقٍ مُريحٍ من العدالة الكونية . والبُطل لا يمكن أن يكون قاعدةً بل الحقّ هو القاعدة . و « الحقّ لا يُبطله شيء » في قانون الكون ! وهو كذلك في مذهب ابن بي طالب .

والنظر في الساطع العظيم من مظاهر العدالة الكونية ، لم يكن ليُلهي عليّاً عن النظر في ما خفي منها ودَقّ . وشأنه في ذلك شأن عباقرة الشعراء الذين تولّف دقائقُ الأشياء لديهم ، في المادّة والمعنى ، ما تولّفه عظائمُها فهم لا يفرقون فيها بين كبيرٍ وصغير ، فهي بالمنشأ واحدةٌ وهي كذلك بالدلالة .

وليس للذي يبهر الأنظار حسابٌ في عقولهم وقلوبهم يعلو على حساب ما ينزوي في المخابىء وبين الظلال . وربّ نظرةٍ تُجري من الأحاسيس في كيان هؤلاء ما لا تُجريه ينابيعُ الكلام ! وربّ إشارةٍ يُدركون فيها من التصريح ما لا يرونه بألف إعلان ! وربّ زهرةٍ في كَنَف صخرةٍ ينعمون لديها من الشعور بعظمة الوجود بما لا ينعمون به لدى الدوحة العاتية . بل ربّ صغيرٍ في نظرهم أجلّ من كبير . وقليلٍ أكثر من كثير ! وأرى من الموافق أن أذكر في هذا المجال نُتْفةً من حديثٍ طويلٍ سُقْتُه بصدد الكلام على موقف صاحب الإحساس العظيم والفكر المحيط من الكون الذي يستوي خفيّه وظاهره في الدلالة على ما فيه من جليلٍ ، قلت :

« وكأنّي بهذه الطبيعة تمثّل للشاعر جمالَ الحريّة التي يشتهي ، إذ تُرسل الريحَ حين تشاء وكيف تشاء لا يهمّها أسَخِطَ الناسُ عليها أم رَضوا قانعين ! وتُفجّر الينابيعَ من

الصخر ، حين تروم ، ومن رَخيِّ التراب ، وتُجريها هادئةً في السهلِ أو تقذف بها من أعالي الجبال . وتُبرزُ من صدرها أشجاراً وصخوراً وقمماً ووِدياناً على طريقتها التي تريد ، لا يعنيها أن تنبُتَ الزنابقُ إلى جانب الشوك أو تعلقَ إبَرُ السمِّ ورداً أخضرَ العود طيّبَ الريح . ولا تتقيّد بمعرفةٍ تقوم بتحقير الهشيم اليابس وتعظيم الأخضر الفيّنان ، وبالسخرية من صغار الهوامّ تُطِلُّ من ثقوب الصخور ، تمجيداً لشراسة القويّ من الوحش يفترسُ الضعيف (١) » .

بهذه النظرة وبهذا الشعور واجهَ ابنُ أبي طالب مظاهرَ الوجود الواحد في الطبيعتين الصامتة والحيّة ، وأحسَّ إحساساً بديهياً وعميقاً معاً بأنّ قوّة الوجود الشاملة ترعى هشيمَ النبْت بقانونٍ ترعى به الورقَ الأخضرَ والزرْعَ الذي استوى على سُوقِه واهتزّ للريح . وأنّها تُعنَى بالفسيلِ (٢) الضئيلِ من شجر الأرض كما تُعنى بالعتيِّ من الدوح العظيم . أمّا البَهْم والحشرات والغوغاء (٣) وصغار الطير ، فإنّ الطبيعة لم تبذل في رعايتها نصيباً أقلَّ مما تبذله في رعاية الهائل من الوحش ونسر الفضاء. فلكلٍّ من المخلوقات مكانُه في سعة الوجود ولكلٍّ حقُّه بهذا الوجود . لذلك لم يمنع الطودُ الشامخُ عن ابن أبي طالب رؤيةَ الحصاة وذرّة التراب . ولم يفتْه وهو ينظر الى الطاووس أن يلتفت الى النملة المتواضعة الدابّة في خفايا الأرض بين حطامها وحصاها ، فإذا هي في الوجود خلقٌ جليلٌ وشيءٌ كثير . وما كان عليٌّ ليرى في الطاووس والنملة اللذين يبسطهما النهار ، شيئاً يزيد في معنى الوجود وفي قيمته عمّا كان يراه في الخفافيش (٤) التي جُعل لها الليلُ نهاراً وقبَضَها الضياءُ الباسطُ لكلِّ شيء . وإنما كان يرى من غوامض الحكمة فيها ما يراه في عظائم المخلوقات .

ويكفي هذا المخلوق ، في نهج عليّ ، أن يكون ذا رَمَقٍ — أي أن يكون حيّاً — لتكفل له قوّةُ الوجود الشاملة كفْلاً أساسيّاً ما يقيه خطر الموت قبل حينه . فإنّ العدالة الكونية ما أقامت حيّاً من الأحياء إلاّ وعدلتْ وجودَه بما يُمسك عليه مدّة بقائه . وهذا ما يعنيه عبقريّ

---

١ — باختصار عن كتاب « فاغنر والمرأة » للمؤلف صفحة ١٦٣ — ١٦٤ .

٢ — الفسيل : صغار الشجر .

٣ — البهم : صغار أولاد الضأن والمعز . الغوغاء : صغار الجراد .

٤ — راجع ، في هذا الكتاب ، روائع علي في وصف الطاووس والخفاش .

الملاحظة الدقيقةِ الضابطة عليّ بن أبي طالب بقوله : « ولكلّ ذي رمَقٍ قوتٌ ، ولكل حبةٍ آكل ».

أمّا إذا حيل بين ذي الرمق وقوته ، والحبّةِ وآكلها ، فإنّ في هذا المنع اعتداءً على موازين العدالة الكونية وافتراءً على قيمة الحياة ومعنى الوجود . يقول عليّ : « والله لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبُها لبّ شعيرةٍ ، ما فعلتُ ! »

أما الاعتداء على موازين العدالة الكونية ، فإن العقاب عليه قائمٌ بطبيعة هذه العدالة العامّة نفسها التي تقاضي الفاعلَ مقاضاةً لا لين فيها ولا قسوة ، وإنما عدلٌ ومجازاة .

ومن ثمّ كانت النظرة العلوية الجليلة إلى معنى الحياة الواحدة بكثيرها وقليلها ، بكبيرها وصغيرها . فالعدالة الكونية التي وازنت بين الأحياء ورعتْهم في مختلف حالاتهم وأقامت بينهم أعمالاً مشتركة وحقوقاً متبادلة وواجبات متعادلة ، لم تفرّق بين مظهرٍ من مظاهر الحياة وآخر ، ولم تأمر بأن يعتدِ قويّ على ضعيفٍ لِما خُصّ به القويّ من أداة العتوّ ؛ ولم تأذن للكثير بأن يغبن القليلَ حقّه بما خُصّ به من صفات الكثرة . وهي من ثمّ لا تغتفر ظلْمَ القليل بحجّة مصلحة الكثير . فالذي يغبن كائناً حيّاً في نهج ابن أبي طالب فكأنّما غبَنَ الكائنات الحيّة جميعاً . ومَن قتل نفساً بغير حقّ فكأنّما قتل النفوس جملة . ومن آذى ذا رمَقٍ فكأنّما آذى كلّ ذي رمَقٍ على وجه الأرض . فالحياة هي الحياة في نهجهِ واحترامُها هو الأصلُ وعليه تنمو الفروع .

ففي نظريات عددٍ كبير من المفكرين والمشترعين ، وفي « آراء » معظم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم رجال سياسة ، يجوز الاعتداء على العدد القليل من الناس في سبيل العدد الكثير . وفي حساب هؤلاء ، لا يقاس الخير إلاّ بسلامة العدد الكثير ، ثم في بلوغه ما يصبو إليه من حال . فإذا قُتل بحادث اعتداءٍ ألفٌ من الخلق ، فالأمر فظيع . وإذا قُتل ألفان فالأمر أفظع . وهكذا دواليك . أمّا إذا قُتل إنسانٌ واحد ، بمثل هذا الحادث ، فالقضيّة هيّنة والأمر بسيط . فإنّ دفاتر تجّار الأرواح عند ذاك لا يسقط منها الكثير . أمّا جداول الضرب وعمليّات الجمع والقسمة ، فمن الميسور تعديلها بعمليّة حساب بسيطة .

أمّا ابن أبي طالب فيسحق نظريات هؤلاء التجّار ، بقولٍ يتناوله مباشرةً من روح الوجود الذي لا قيمة لديه للأرقام في معنى الحياة ، بل للحياة نفسها :

« فوالله لو لم يُصيبوا من الناس إلاّ رجلاً واحداً معتمدين (١) لقتله ، بلا جُرم جرّه ، لَحَلّ لي قتلُ ذلك الجيش كلّه » .

والواضح هنا أنّ الموضوع ليس « قتل الجيش كلّه » بل تمكين فكرة احترام الحياة في أذهان أصحاب السلطة ، ولفت أنظارهم إلى أنّ قتل نفسٍ واحدة ، قصداً واعتماداً ، إنما يساوي قتل الخلق جميعاً .

ولو أنّنا قسْنا نظرةَ عليٍّ بن أبي طالب في هذا المجال بنظراتِ كثيرٍ من المفكرين الذين رأوا أنّ موازين العدالة لا تتحرك إلاّ بالقوّة والكثرة ، لَبَدا لنا كيف ينحدرون حيثُ يسمو ، وكيف يتزمّتون ويغلظون حيثُ يرحبُ أفقُه وتعلو على يديه قيَمُ الحياة . ففيما يطبّل بعض هؤلاء ويزمّرون لِما « اكتشفوه » من آراء ونظريات تُبيح للقويّ أن يعتزّ بقوّته وحَسْب ، وللكثير أن تتّسع آمالُه بهذه الكثرة وحدها — وفي كلٍّ ذلك اعتداءٌ على قانون الحياة العادل ، وعلى إرادة الانسان القادرة المطوّرة الخيّرة — نرى ابنَ أبي طالب يكشف عمّا هو أسمى بمقياس الحياة نفسها لأنه حقيقة ، وبمقياس الارادة الانسانية لأنه خير ، فيقول ببساطة العظيم : « وربُّ يسيرٍ أغنى من كثير ! » ثم يوضح بقولٍ أجلّ وأجمل :

« وليس امرؤٌ ، وإنْ عظُمَتْ في الحقّ منزلتُه ، بفوقٍ أن يُعان على ما حمّلَه الله من حقّه (٢) ولا امروٌ ، وإن صغّرتْه النفوسُ واقتحمتْه العيون (٣) بدون أن يعين على ذلك أو يُعان عليه ! »

وفي هذين القولين ينقل ابنُ أبي طالب للناس مظهراً من مظاهر العدالة الكونية البادية حيثُ أمعنتَ النظر ، ويقرّر حقيقة طالما خفيتْ عن العقول التي تحصر نفسها في أضيق نطاق .

يقرّر عليّ أنّ المظاهر البرّاقة الفضفاضة ليست في حُكم الواقع الوجوديّ إلاّ غثّاً من الوجود تافهاً لا قيمة له ولا شأن ، وقد يُبهرَ بها العاديّون من الخلق وأهل الحماقات والأغبياء

١ — معتمدين : قاصدين .
٢ — بفوق أن يعان : أي بأعلى من ان يحتاج الى الإعانة .
٣ — اقتحمته العيون : حقرته . بدون أن يعين : بأعجز من أن يساعد غيره .

والمصفقون لكلِّ لماعٍ تافه فارغ ، ولكنّ هذا الانهيار لا يلبث أن يتلاشى فجأةً حين تطلّ شمس الحقيقة ، وحين يكنس نورُها العظيم ما خالـه العاديّون نوراً وهو غشٌّ للعيون ، وحين تعصف رياحُ الوجود العادل بعصافة التبن الخفيف . ومن التاريخ والحاضر دلائل لا تُحصى على هذا الاضطراب في المقاييس لدى الأفراد والجماعات ، وهو اضطرابٌ يستلزم نتائجَ تُؤذي الحضارةَ والحياةَ والانسان لِمـا فيها من انحرافٍ عن موازين العدالة الكونية .

فلو كنتَ تعيش في فترةٍ من العصور الوسطى بأوروبا ، مثلاً ، لشاهدتَ في بعض أيامك مواكب من الناس تتلوها مواكبُ بإحدى الساحات العامّة من هذه المدينة أو تلك ، وذلك قصْدَ التهليل والتصفيق لمخلوقٍ من الناس مزركش الألبسة عاصب الرأس بالزمرّد والزبرجد والحجارة الكريمة المنظومة . ولشاهدتَ رجلاً يسير على الرصيف وحيداً ، عصيَّ الخطوة عنيفَ النظرة ، لا يعنيه أمرُ المهلّلين ولا يعنيهم أمرُه . فهم يهتفون بحياة « عظيمٍ » وهو إذ ذاك « ليس بعظيم » . ثم أشرقت الشمس بعد زمنٍ فطغتْ على الظلمة وأبرزتِ الأشياء في مواضعها الحقيقية . فماذا ترى عند ذاك ؟ ترى أنّ هؤلاء الناس المهلّلين المصفّقين — وهم بهذا المقام بمنزلة اللاشيء — إنّما كانوا يهتفون لمخلوقٍ تافهٍ يدعى لويس الرابع عشر مثلاً ، أولنذلٍ من الأنذال يدعى شارل الخامس ، أو لصغيرٍ كلّ الصغارة يدعى شارل الأول ، أو لغيرهم ممّن يحملون أسماءً تليها أرقامٌ ... دلالةً على الصغارة . ثم ماذا يتّضح لك بعد ذلك ؟ يتّضح أنّ رجل الرصيف الذي لم يهلّل له القوم ولم يهتفوا بحياته ، إنّما هو عظيمٌ حقّ يدعى موليير ، أو ملتون ، أو غاليليو . وتجري الأيام ، فإذا بأصحاب الأسماء التي تليها الأرقام ، ليسوا إلاّ التفاهة كلّها . وإذا بالمشاة على الرصيف ولا أرقام لأسمائهم ، ولا مهلّلين لهم ، ليسوا إلاّ العظمة كلّها . ويطوي النسيانُ التافهين ، ويطوي معهم أولئك « اللاشيء » من المصفّقين الهاتفين . ويبرز هؤلاء على هامة الوجود ، وتُنزلهم الإنسانيةُ من نفسها منازلَ الشموس منَ الظلمات . ويبرز معهم نفرٌ قليلٌ من الخلق هم الذين فهموهم ، وقدروهم قدرَهم العظيم ، وتدفّأوا بحرارتهم كما تتدفأ الأرض بنور الظهيرة ، وأدركوا ما أدركه عليّ بن أبي طالب إذ قال : « رُبَّ يسيرٍ أنمى من كثير ! »

إنها العدالة الكونية التي تزن كلّ حيّ بميزانها العظيم ، وتضعه موضعَه ، لا غشّ في ذلك ولا خداع ، ولا مجاملة ! العدالة الكونية التي لا تهون لديها قيمة ولا تعلو تفاهة !

وإن ابن أبي طالب لم يسمّ هذا « اليسير » يسيراً إلاّ لأنه هكذا كان في أنظار الناس بزمانه وفي آرائهم . ولم يسمّ هذا « الكثير » كثيراً إلاّ للعلّة ذاتها . وهو يعلم أنهم مخطئون ، وأن ما يرونه يسيراً قد لا يكون كذلك . وأن ما يرونه كثيراً قد يخف في ميزان الحق . أما هو ، فقد كان يستشعر قيمة الحياة في قوة وجلاء ، ويستشعر إمكاناتها العظيمة بجميع الأحياء ، ويستشعر أن للكون إرادة عادلة في تقييم الحياة حيث كانت ، وفي احترام الأحياء حيث هم ، فيطلق العبارات الحكيمة التي أشرنا اليها . ويطلق الكثيرات غيرها . حتى إذا غالى المغالون وأنكروا أن لليسير مثل هذه القيمة وهذه الإمكانات على النموّ ، توجّه اليهم يقول : « وإن أكثر الحق في ما تنكرون ! »

ثم إن حقيقة أخرى يقررها عليّ بكلمته هذه : « ... وليس امرؤٌ وإن صغرتْه النفوس واقتحمتْه العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه » : هي أن كل إنسان يمكنه أن ينفع مجتمعه وينتفع به ، أيّةً كانت موهبته ، وبالغةً إمكاناتُه ما بلغتْ من الضآلة .

وفي هذه النظرة الى الانسان الضئيل الحظ من المواهب ، توضيحٌ لِمَا في خاطر عليّ من الايمان العميق بالعدالة الكونية التي تجعل من قطرات الماء بحراً خضماً ومن ذُرَيرات الرمال صحارى وفلوات ، كما تجعل كلّ قليلٍ داخلاً في الكثير ، وكلّ صغيرٍ مستنَداً للكبير .

وفيها توضيحٌ لطبيعة الحياة الخيّرة تحنو على أبنائها وتجعل كلاً منهم في إطارٍ من خيرها فلا تغبنه ولا تقسو عليه .

وفيها الدليل على هذا الحنان العميق الذي كان عليّ يغمر به الأحياء فلا يرى فيهم إلاّ بشراً جديرين بأن يحيوا الحياة كلّها ، ويُفيدوا من خيرها ، ويُعاونوا ويُعانوا .

وإنّكَ واجدٌ صورةً لهذه النظرة العلوية الواثقة بعدالة الكون وخير الحياة ، المؤمنة بإمكانات الانسان — أيّاً كان — على أن يكون شيئاً كريماً : في أدب جان جاك روسّو الذي يدور حول محورٍ من الثقة بعدالة الطبيعة وخير الحياة .

وكأني بابن أبي طالب قد خصّ هؤلاء الذين « تصغرهم النفوس وتقتحمهم العيون » بالسهم الأوفر من اهتمامه ساعةَ خاطَبَ الناس قائلاً : « إنّ الله لم يخلقكم عبثاً » أو ساعةَ

أبدع في وصف ثقته بالطبيعة البشرية الخيّرة مواجهاً الخلق بهذا الرأي الكريم : « وخلاكم ذمّ ما لم تشردوا » . أي أنكم ، جميعاً ، خيّرون ونافعون أصلاً وفرعاً ، ما لم تميلوا عن الحقّ عامدين .

وتأكيداً لثبوت هذا الجانب من العدالة الكونية في مذهب ابن أبي طالب ، وأعني به التسوية التامّة في كلّ حقّ وواجب بين مَن قلّ ومَنْ كثُر ، ومَن صغُر ومَن كبُر ، يشير إلى أنّ مركز هذه العدالة إنّما يتساوى لديه الجميع لا فرقَ فيهم بين إنسان وإنسان . فصِفتُهم الانسانية واحدة ، وقضيتهم بميزان الوجود واحدة كذلك ، وهم لا يتمايزون إلاّ بما يعملون وما ينفعون . أمّا مَن عمل ونفع فإنّ قانون الوجود نفسه يُثيبه . وأمّا مَن تبطّلَ وبطِر واغتصب ، فإنّ هذا القانون نفسه يعاقبه بما يستحقّه . يقول عليّ : « ولا يلويه شخصٌ عن شخص ، ولا يُلهيه صوتٌ عن صوت ، ولا يشغَله غضبٌ عن رحمة ، ولا تولهه رحمةٌ من عقاب ! » .

وبهذا الصدَد نعود بشيءٍ من التفصيل على ما ذكرناه من أنّ عليّ ابن أبي طالب كشف النقاب عن العبقريّة الوجودية التي تجعل من طبيعة الأشياء ذاتها حاكماً أعلى يُعطي ويمنع ويعاقب ويُثيب ، فإذا الكائنات تحمل ، بطبيعة تكوُّنها ، القدرةَ على أن تقاضي نفسها بنفسها امتثالاً لإرادة الكون العادلة .

يرى عليّ بن أبي طالب أنّ الوجود متكافئ ما نَقَصَ منه شيءٌ هنا إلاّ وزاد فيه شيءٌ هناك . وكِلا النقص والزيادة متساويان لا زيادةَ إلاّ بمقدار النقص ولا نقصَ إلا بقدر الزيادة . وجديرٌ بالقول أنّ النظريّة القائلة بهذا التكافؤ في أشياء الوجود ، إنّما هي إحدى النتائج الكبرى التي بلغ إليها نشاط الفكر البشري في زحفه العظيم إلى اكتشاف أسرار الكون ، كما أنّها نقطة انطلاقٍ في هذا المجال .

وجديرٌ بالقول أيضاً أنّ عدداً من المفكرين الأوائل لم يتمكّنوا من الالتفات إلى هذه الحقيقة ، وأنّ عدداً أنكروها ، وأنّ هنالك فريقاً من هؤلاء المفكّرين رأوها وأدركوا كثيراً من تفاصيلها وآمنوا بها ودعوا إليها . وأبناء هذا الفريق يتفاوتون هم أيضاً في قوّة الملاحظة

وقوّة التمثيل ثمّ في قوّة البيان عمّا شاهدوه ووثقوا به . فمنهم مَن لحظَ هذا التكافؤ في بعض مظاهر الكائنات فأعلن عن ذلك إعلاناً فيه بعض البيان عن الحقيقة . ومنهم مَن رآه في مظاهر الكون الصامت جميعاً ولكنه لم يستشعر له نتائجَ محسوسة في مجرى الوجود ولم يجد له خطّاً موازياً في مظاهر الكون الحيّ . ومنهم مَن لحظَه في الطبيعة الصامتة واستشعر له نتائج محسوسة في مجرى الوجود ورأى له خطّاً موازياً في الكائنات الحيّة وأعلن عنه بأجلى بيان وأوثق كلام . مِن هذا الفريق عليّ بن أبي طالب . بل قُلْ إنه في طليعة هذا الفريق من المفكرين الأوائل لأنه كاد يُثبت هذه النظرية على نهجٍ سليمٍ قويم لا يتعارض ولا يتناقض ولا مهربَ لبعضه من بعض . بل قُلْ إنّه فعل ذلك وأبدع .

ولعلّ موقف ابن أبي طالب ممّا لحظَه ورآه من مظاهر التكافؤ في الوجود أجلّ من مواقف زملائه المفكّرين من الناحية العملية . وذلك بما ألحّ عليه من تأكيد لهذه الحقيقة ، توصّلاً إلى ما يترتّب عليها من نتائج في حياة الناس أفراداً وجماعة . وهذا الواقع ينسجم كلّ الانسجام مع محور الفلسفة العلوية الذي هو : الانسان .

قلنا إنّ عليّاً يرى الوجود متكافئاً ما نقصَ منه شيءٌ هنا إلا وزاد فيه شيءٌ هناك ، وأن هذا النقص وهذه الزيادة يتساويان لا زيادة إلاّ بمقدار النقص ولا نقص إلا بقدر الزيادة . فيقول أوّل ما يقول ، منبّهاً الانسان إلى هذه الحقيقة عن طريقِ ألصقِ الأشياء به ، أي عن طريق وجوده ذاته :

« ولا يستقبل يوماً من عمره إلاّ بفراقِ آخر من أجَله ! »

وهل من خاطرةٍ في ذهن إنسانٍ يمكنها أن تدحض هذه الحقيقة التي تعرض تعادليّةَ الوجود بأبسط ما يراه المرء من حال الوجود ؟ ثم هل من قاعدةٍ رياضية من قواعد الهندسة والجبر ألصقُ بالحقائق الثابتة ، وأدلّ على الواقع المطلَق ، وأوجز في تبيان الثابت والمطلَق ، من هذه الآية التي يصوّر بها ابن أبي طالب تعادليّة الوجود من خلال الكائن الحيّ ، ومن أيامه ؟

وإذا قال لي قائلٌ إنّ هذه الفكرة معلومةٌ يعرفها الناس كلّ الناس ، فعن أيّةِ حقيقةٍ جديدةٍ يكشف ابنُ أبي طالب في زعمِك إذن ؟ قلتُ : إنّ الكشف عن الحقائق الخافية لا يستلزم السكوت عن الحقائق الظاهرة إذا كانت هذه أصلاً لتلك ، أو تلك أصلاً لهذه ،

أو إذا كان المنهج العامّ يستلزم ضبْطَ التفاصيل سواءً ما خفيَ منها وما ظهر . فإنّ علي بن أبي طالب الذي تتماسك آراؤه في كلّ مذهب ، ثمّ تتماسك مذاهبه جميعاً في وحدة فكريّة رائعة ، لم يقل هذا القول « المعلوم الذي يعرفه الناس كلّ الناس » ، ولم يقلْ بمعناه قولاً أروعَ وهو : « نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجَله » ، إلاّ ليعود ويبني على ما قاله بناءً مفصّلاً في إثبات نظرية تكافؤ الوجود .

فالذي قال « لا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجَله » « ونفسُ المرء خُطاه إلى أجَله » ، إنما قال ذلك ليعود الى الكشف عن حقيقة أبعد عن أذهان الناس وأخفى عن ملاحظتهم ، ولكنها تجري من القولين السابقين : « ولا ينال الانسان نعمةً إلا بفراق أخرى ! »

وأراك استوضحت ما في هذا القول من قوة الملاحظة ، والقدرة على الكشف ، وصراحة الفكر ، وجلاء البيان . وضبطاً لمضمون هذه العبارة في صور وأشكال تختلف مظهراً وتتّحد معنىً وجوهراً ، يقول عليّ : « كم من أكلةٍ منعت أكلات » و « من ضيّعَه الأقرب أُتيح له الأبعد » و « ربّ بعيد هو أقرب من قريب » و « المودة قرابة مستفادة »

و « مَن حمّل نفسه ما لا يُطيق عجز » و « لن يضيع أجر مَن أحسن عملاً » و « ما كسبتَ فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك » . فإن في هذه العبارات ، وفي عشرات غيرها ، إيجازاً واضحاً لتفاصيل نظرية التكافؤ الوجودي كما يراه عليّ بن أبي طالب . فهي على اختلاف موضوعاتها القريبة ،تدور في مداها ومأخذها القصيّ على محور واحد من تعادُليّة الكون ، فلا نقص هنا إلا وتعدلُه زيادة هناك . والعكس بالعكس .

أدرك ابن أبي طالب هذه الحقيقة الوجودية في قوة وعمق . وعاشها ، وأعلن عنها في كلّ فصلٍ من حياته أو قولٍ من قوله ، سواءً أكان ذلك بالأسلوب المباشر أو غير المباشر . وهو لا يدرك هذا الوجه من وجوه العدالة الكونيّة إلاّ ليدرك وجهاً آخر يعكسه على شكلٍ خاصّ ، أو قلْ ينبثق عنه انبثاقاً ، وهو ما نحن بصدده من الكلام على أنّ الطبيعة تحمل بذاتها المقياس فتُعاقب أو تُثيب ، وليس بين مظاهر العدالة الكونية ما هو أبرز من هذا المظهر في الدلالة عليها .

رأى عليّ أنّ شيئاً واحداً من أشياء هذا الكون لم يوجد عبثاً ، بل إنّ لوجوده غايةً

وهدفاً . ورأى أنّ لكلٍّ من الكائنات وظيفةً يقوم بها ، وأنّ على كلّ جارحةٍ من جوارح الانسان فريضةً يحتجّ بها الكونُ العادل عليه ، ويسأله عنها ، ويحاسبه عليها . وبناءً على هذا الواقع ، تكون أشياء الوجود متساويةً بحُكم وجودها . أمّا الصغيرة والكبيرة فشبيهتان بهذا المقياس . يقول عليّ : « ويحاسبك على الصغيرة قبل الكبيرة » . وإنّما قال ذلك لأن الأكثرية من الناس لا يأبهون لـ « الصغيرة » ، فإذا به يلفت أنظارهم إلى هذه الصغيرة بتقديمها على الكبيرة في ما تستلزم من عقاب أو ثواب ، لكي يطمئنّ إلى حدوث عمليّة التسوية بينهما في الأذهان والقلوب .

أمّا إذا احتجّ الكونُ على الانسان بما فرَضه على جوارحه ، وسأله عنه ، وحاسبه على الصغيرة والكبيرة ، وجازاه بما عمل خيراً كان أو شرّاً ، فليس من الضروريّ في ملاحظة عليّ وفي نهجه أن تتمّ عمليّةُ الاحتجاج والمحاسبة والمجازاة هذه خارجَ نطاق الانسان نفسه . وإنّ هذه العمليّة المركّبة ، الواحدة على ما فيها من تركيب ، لتتمّ أبداً — كما يلحظ عليّ — في حدود الكائن أيّاً كان . وهكذا تتمّ في ما يتعلّق بالانسان وهو أحد الكائنات . يقول عليّ : « إنّ عليكم رَصَداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم » . والرصد الرقيب . وهذا الرقيب لا يألو جهداً في أن يرى ويسجّل ويعاقب أو يُثيب .

وفي لحظاتٍ فذّةٍ من تألّق العقل المكتشف والفكر النافذ ، تبدو لعينَيْ ابن أبي طالب ألوانٌ ساطعة من هذا الوجه من وجوه العدالة الكونية ، لا يسعك إزاءها إلاّ أن تُعجَب بهذا العقل وهذا الفكر . أفَلا ينطق ابن أبي طالبٍ بلسان علماء العصر الحديث كما ينطق بلسان هذه العدالة نفسها ساعةَ يقرّر هذه الحقيقة : « مَن أساء خلقَه عذّب نفسه ! » ثمّ ، ألا ينطق بهذين اللسانين معاً إذ يقول : « يكاد المريب يقول : « خذوني » وإذ يقول أيضاً : « فأكرِمْ نفسَك عن كلّ دنيّةٍ وإن ساقَتك رغَبٌ فإنّك تعتاض بما ابتذلتَ من نفسك ! »

ومثل هذه الآيات كثيرٌ كثير . ومنها هذه الروائع : « موت الانسان بالذنوب أكثر من موته بالأجَل» و « لا مروءة لكَذوب ولا راحة مع حسد ، ولا سؤدد مع انتقام ، ولا صواب مع ترك المشورة » . و « إذا كانت في رجلٍ خلّةٌ رائقة فانتظروا أخواتها ! »

وهكذا أدرك عليّ بن أبي طالب أنّ الكون واحد ، عادلٌ ، ثابتٌ في وحدته وعدله ، جاعلٌ في طبيعة الكائنات ذاتها قوّةَ الحساب والقدرةَ على العقاب والثواب . وهكذا عبّر عمّا أدركه أروع تعبير .

بَيْدَ أنّ وجوهاً غير هذه من وجوه العدالة الكونية تَفَحّصها عليّ وضَبَطَ أشكالها وألوانها . فما هي هذه الوجوه ؟

الحنان العميق

وأدرك علي ان منطق الحنان أرفع من منطق القانون ، وأن عطف الانسان على الانسان وسائر الكائنات ، إنما هو حجة الحياة على الموت ، والوجود على العدم !

ولم يكن موقف عليّ من المرأة ذلك الموقف الذي صوّروه !

إذا كان من عدالة الكون وتكافؤ الوجود أن تلتقي على صعيد واحد بَوارحُ الصيف ومُعْصِرات الشتاء، وأن تَفنى في حقيقة واحدة السواقي والأعاصير والنُّسَيمات اللّينات، وأن تحملَ الطبيعةُ بذاتها ، بكلّ مظهر من مظاهرها ، قانونَ الثواب والعقاب ، فمن هذه العدالة أيضاً ومن هذا التكافؤ أنْ تتعاطى قوى الطبيعة وتتداخل سواءٌ في ذلك عناصرُ الجماد وعناصر الحياة . وسواءٌ في ذلك ما انبثق عن هذه أو انسلخ عن تلك .

ولما كانت صفات الانسان وأخلاقه وميوله وأحاسيسه منبثقة عن عناصر الحياة التي تتّحد فتؤلّف ما نسميه شخصية الإنسان ، فهي متعاطية متداخلة ، تُثبتُ ذلك الملاحظةُ الطويلة والموازنةُ الدقيقةُ ثمّ قواعدُ العلم الحديث الذي لاحظَ ووازن وأرسى مكتشفاته على أسُس وأركان .

وقد مرّ معنا أنّ الانسان في مذهب عليّ بن أبي طالب هو الصورة المثلى للكون الأمثل . وممّا يُعزى إليه هذا القولُ يخاطب به الانسان :

وتحسبُ أنّكَ جرمٌ صغيرٌ ... وفيك انطوى العالَمُ الأكبر

فمن الطبيعيّ في مثل هذه الحال أنْ يُلحّ عليّ في طلب كلّ ما يتعلّق بالانسان ممّا يطاله زمانُه وإمكاناتُ عصره . ومن الطبيعيّ كذلك أنْ يُلحّ في الكشف عمّا في هذا « الجرم الذي انطوى فيه العالَم الأكبر » مِن مظاهر العدالة الكونية وتكافؤ الوجود ضمْن الإطار الذي دارت آراؤه فيه .

أحسّ عليّ إحساساً مباشراً عميقاً أنّ بين الكائنات روابطَ لا تزول إلاّ بزوال هذه الكائنات . وأنّ كلّ ما يُنقص هذه الروابط يَنقص مِن معنى الوجود ذاته . وإذا كان الانسانُ أحد هذه الكائنات ، فإنّه مرتبطٌ بها ارتباطَ وجود . وإذاً كان ذلك – وهو كائنٌ – فإنّ ارتباطَ الكائن بشبيهه أجدرُ وأَوْلى . أمّا إذا كان هذا الكائنُ من الأحياء ، فإنّ ما يشدّه إلى الأحياء من جنسه أثبتُ وأقوى . وأما الانسان – رأس الكائنات الحيّة – فإنّ ارتباطه بأخيه الانسان هو الضرورة الأولى لوجوده فرداً وجماعة .

وحين يقرّر عليّ أنّ المجتمع الصالح هو المجتمع الذي تسوده العدالة الاجتماعية بأوسع معانيها وأشرف أشكالها ، إنّما يسن قانوناً أو ما هو من باب القانون . ولكنّ هذا القانون لا ينجلي في ذهنه ولا يصبح ضرورة ، إلاّ لأنه انبثاقٌ طبيعيّ عمّا أسميناه روح العدالة الكونية الشاملة ، التي تفرض وجودَ هذا القانون . لذلك نرى ابنَ أبي طالب ملحّاً شديد الإلحاح على النظر في ما وراء القوانين ، وعلى رعايتها بما هو أسمى منها : بالحنان الانساني .

وما يكون الحنان إلاّ هذا النزوع الروحيّ والماديّ العميق إلى الاكتمال والسموّ . فهو بذلك ضرورةٌ خلقيّة لأنه ضرورةٌ وجودية .

الصفحة الأولى التي ينشرها عليّ من صفحات الحنان تبدأ بأن يذكّر الناس بأنهم جميعاً إخوة فينعتهم بـ « إخواني » نعتاً صريحاً وهو أميرٌ عليهم . ثم يردف ذلك بتذكير الوُلاة بأنهم إخوان الناس جميع الناس ، وبأنّ هذا الإخاء يستلزم العطف بالضرورة ، قائلاً إلى أمرائه على الجيوش : « فإنّ حقّاً على الوالي أنْ لا يُغيّره فضلٌ ناله ، ولا طَولٌ خُصّ به ، وأنْ يزيده ما قسم الله له من نِعَمه دنوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه » . وما يذكره لنفسه وللولاة بأنّهم والناس إخوانٌ بالمودّة والحنان ، يعود فيقرّره بحكمة شاملة يتّجه بها الى البشر جميعاً دون تفرقة أو تمييز ، قائلاً : وإنما أنتم إخوانٌ ما فرّق بينكم إلاّ خبث السرائر وسوء الضمائر » . وهو بذلك يضع خبثَ السريرة وسوء الضمير في طرف ، وحنانَ القلب ومودّةَ النفس في طرف آخر . ولمّا كان من الحقّ الوجوديّ للإنسان أن

ينعم بحنان الانسان ، فإنّ الطبيعة التي تحمل بذاتها القيَم والمقاييس لا بدّ لها من التعويض على صالح ضيّعه الجيرانُ والأقربون والأهل فما لقوه برداء من حنان ، بعطفٍ وحنانٍ كثيرين يأتيانه من الأباعد . فيقول عليّ : « مَن ضيّعه الأقربُ أُتيح له الأبعد ! »

وهو في سبيل رعاية هذه الأخوّة القائمة بالحنان الانساني ، لا يقبل حتى بالهَنات الهيّنات لأنّ فيها انحرافاً مبدئياً عن كرَم الحنان : « أمّا بعد ، فلولا هَنَاتٌ كنّ فيك لكنتَ المقدَّمَ في هذا الأمر » .

وإذا كانت القوانين المتعارَف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يحارب المتآمرين به ، فإنّه لا يفعل إلاّ بعد أن يراعي كلّ جوانب الحنان في نفسه وقلبه ، وبعد أن يستثير كلّ روابط الإخاء البشريّ في نفوس مقاتليه وقلوبهم . وهو إنْ فعل في خاتمة الأمر فإنّما يفعل مُكرَهاً لا مختاراً ، حزيناً باكياً لا فرِحاً ضاحكاً ، فإذا شعوره بالنصر بعد القتال آلَمُ وأوجعُ من شعور مناوئيه بالهزيمة !

وإذا كانت القوانين المتعارَف عليها تسمح لابن أبي طالب بأن يترك المعتدين عليه ، بعد موته ، بين يدي أنصاره وبنيه يقاتلونهم ويقتصّون منهم لضلالٍ مشَوا به وإليه ، فإنّ الرأفة بالانسان وهي لديه وراء كلّ قانون ، تحمله حملاً على أن يخاطب أنصاره وبنيه بهذا القول العظيم : « لا تقاتلوا الخوارج من بعدي ، فليس من طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه » .

وهو بعامل هذا الحنان العميق يربط سعادة المرء بسعادة جاره . أي بسعادة الانسانية كلّها ، لأنّ لجار المرء جيراناً ، وما يجوز عليه بالنسبة له يجوز عليهم بالنسبة لسائر الناس . ومن سعادته أيضاً أن يطغى عليه هذا الحنان فإذا بأبناء الآخرين يحظون منه بالعطف الذي يحظى به أبناؤه : « أدّبِ اليتيم بما تؤدِّب به وُلْدَك » . وأنّ يستشعر الجميع روحَ العدالة الأساسية التي تفوق القوانينَ الوضعية قيمةً وجمالاً لأنها تحمل الدفء الانسانيّ وتصل الخلقَ بمنطق القلب لا بمنطق الخضوع لقانون : « ليتأسَّ صغيركم بكبيركم ، وليرأفْ كبيركم بصغيركم » .

وإذا كان العجز عن إتيان المكرمات نقصاً ، فإنّ منطق الحنان على لسان عليّ يجعل العاجز

عن اكتساب أخوّة الناس أكثرهم نقصاً : « أعجز الناس مَن عجز عن اكتساب الإخوان » . ويضيفُ عليٌّ إلى هذا العجز عجزاً آخر هو الميل إلى المراء والخصومة قائلاً : « إيّاكم والمراء والخصومة» بل إنّ الأَولى هو لين الكلام لِما فيه من شدّ الأواصر بين القلب ، منبع الحنان ، والقلب : « وإنّ من الكرَم لين الكلام » . وليس بين نزعات القلب ما هو أدعى إلى الراحة من شعور المرء بأنّ له في جميع الناس إخواناً أحبّاء . فإذا تألّم ابنُ أبي طالب من سيئات زمانه ، جعَلَ الخبزَ وهو آلة البقاء ، والصدقَ وهو ركيزة البقاء ، ومؤاخاةَ الناس في منزلة واحدة ، فقال في ناس زمانه : « يوشك أنّ يفقد الناس ثلاثاً : درهماً حلالاً ، ولساناً صادقاً ، وأخاً يُستراح إليه » .

وإذا كانت الغربةُ قساوةً كبرى لأنها تستدعي الوحدة ، فإنّ أشدّها يكون ساعةَ يفقد الانسان إخوانه وأحبّاءه لأنه يفقد إذ ذاك قلوباً يعزّ بعطفها ويحيا بحنانها : « والغريبُ من لم يكن له حبيب » و « فقْدُ الأحبّة غربة » .

ولا بدّ لنا أن نشير إلى موقف ابن أبي طالب من المرأة على هذا الصعيد . فالمرأة نصف الانسان ، فهل يخلو هذا النصف من العطف على نصفه الآخر ؟ وهل النصف الآخر مدعوٌّ إلى أن يجور على مقاييس العدالة الكونية القاضية بحنان الانسان على الانسان ؟

لقد أوّلَ الكثير بعضَ أقوال عليّ في المرأة تأويلاً شاؤوا به الطرافة والترفيه فوق ما شاؤوا به أن يُبرزوا موقفَ عليّ منها . فألحّوا على كلمات له قالها في ظروف كان أبرز ما فيها عداء امرأةٍ معيّنةٍ له وهو لم يُسيء ولم يأمر إلاّ بمعروف . وفاتهم أنّ مثل هذه الأقوال الخاضعة لظرفٍ محدودٍ بذاته ، والرامية إلى إيضاح الأسباب في صراعٍ بين عقليتين مختلفتين كلّ الاختلاف . إنّما قال في بعض الرجال أشدّ منها وأقسى . وهو بذلك لا يعني الرجال قاطبةً وفي كلّ حالاتهم . كما أنه ، حين أطلق تلك الأقوال في المرأة ، لم يكن ليعني النساء قاطبة وفي كل حالاتهن . فإن مسبّبي الويلات التي ألمّت به وبالخير عن طريقه ، تعرّضوا لمثل هذه الأقوال سواءٌ أكانوا رجالا أو نسوةً لهنّ قوة الرجال ونفوذهم . وهو إنْ هاجم هؤلاء وهؤلاء من نسوة ورجال ، فإنّما كان يهاجم فيهم مواقفَ معيّنةً وقفوها من الحقّ والعدل وأصحابهما . وفي ذلك ما ينفي الادّعاء بالإساءة إلى المرأة من قِبَل عليّ . وإنّي لأسأل مَن يعنيهم الأمر أن يوافوني بكلمةٍ واحدةٍ يسيء بها عليّ إلى المرأة ولم تكن

موجّهة إلى إنسان معيّن في ظرف معيّن ، أو من وحي هذا الانسان في هذا الظرف ! لقد هاجم المرأة عندما كانت سبباً في الفتنة ، وهاجم الرجل في مثل هذه الحال . فهو بذلك يهاجم الفتنة وحسب !

أمّا موقف عليّ من المرأة كإنسان ، فهو موقفه من الرجل كإنسان ، لا فرق في ذلك ولا تمييز . أوَليس في حزنه العميق على زوجه فاطمة وقد توفيّت ، دليلٌ على إحساسه بقيمة المرأة كإنسان له كلّ حقوق للانسان وعليه كلّ واجباته ، وفي أساس هذه الحقوق والواجبات أن يَتَنعّم بالحنان الانسانيّ ويُنْعِم به الآخرين ؟

أوَلم يكن الناس في الجاهلية وبعد الجاهلية يتفاءلون بمولد الذكَر ويفرحون،ويتشاءمون بمولد الأنثى ويحزنون !

أوَلم يكن موقف الفرزدق تعبيراً عن نظرة عصره إلى المرأة ، وهو عصرٌ متّصِلٌ بزمن ابن أبي طالب ، ساعةَ ماتت زوجته ، وكان يحبّها على ما زعموا ، فقال فيها هذا القول العجيب :

وَأهْوَنُ مفقودٍ ، إذا الموتُ نالَه ، على المرء مِن أصحابه ، مَن تقنّعا

أي أنّ أهوَن فقيدٍ على المرء من أصحابه ومعارفه فقيدٌ يلبس القناع ، ويريد به المرأة . فالمرأة في قلبه وعلى لسانه لا تستحقّ أن تُبكى ، ولا أن يُحزَن عليها . لماذا ؟ لا لشيء إلاّ لأنها امرأة !

وعليّ ، ألم يكن من أبناء ذلك الزمان ؟ ولكنّه كان أنفذَهم تفكيراً وأشرفهم نظراً وأعمقهم إحساساً ، فقال في جملة ما قال بهذا الشأن متلوّماً على أصحاب تلك العقلية الرعناء : « وإن بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث الخ » . إذن ، فالذكور والإناث بمنزلة واحدة عند عليّ تجمعهم صفة الانسان وحسب .

أضف إلى ذلك ان علياً الذي يعطف على الناس عموماً ، وعلى الضعفاء منهم خصوصاً ، يفرض على الخُلق الكريم أن يكون أشدّ حناناً على المرأة لأنها مستضعفة إن لم تكن ضعيفة ، فيقول : « وانصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم المريب وأحسنوا إلى نسائكم » . ويقول في مكان آخر : « آمركم بالنهي عن المنكر والإحسان الى نسائكم » .

ويتابعُ ابنُ أبي طالب حلقات هذا المسلك المتماسك في دعوته إلى أن يلتفَّ الناسِ جميعاً ، ثم الناس وسائر الكائنات ، بدفء الحنان ، فيقول في العلم – وقد عرفنا قيمة العلم في مذهبه – : « رأس العلم الرفق » . وهو لا يرى في كثرة الذنوب ما يهول أكثرَ من أنها مدعاةٌ إلى القسوة بحُكم تَعَوُّدِها ، ومن ثمَّ فهي سببٌ في نفور باردٍ يحلّ في القلوب محلّ حنان دافىء ، فيقول : « ما جفّتِ الدموع إلاّ لقسوة القلوب ، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب ! » وإذا لم تكن من أهل الذنوب فأنت من أهل الحنان ومن حقك أنْ تبذل – بهذا الحنان – كلّ ما تملك لنصرة أخيك الانسان : « فإن كنتَ من أخيك على ثقةٍ فابذلْ له مالك ويدك ، وأعنْه ، وأظهِرْ له الحسن » .

وأخيراً يُطلقُ عليٌّ مجموعة من الأقوال تدور في مدار الدعوة إلى تفاني الناس في الناس عطفاً وحناناً . وهي تُعتبر بحقٍّ من أسمى ما يملكه الانسان من تراث خلقيٍّ عظيم . ومنها هذه الروائع : « صِلْ مَنْ قطعك وأعطِ مَن حرمك . أحسن إلى جميع الناس كما تحب أن يُحسن إليك . أحسن إلى مَن أساء إليك . عودوا بالفضل على من حرمكم الخ .... »

وإنجازاً لهذه الدعوة الكريمة يُشْرِك ابنُ أبي طالب البهائمَ والبقاعَ والناس في حقٍّ لها مشترَكٍ في الحنانِ فيقول : « اتّقوا اللهَ في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم ! »

وهكذا، فإنّ عطف الانسان على الانسان وسائر الكائنات إنّما هو حجّةُ الحياة على الموت ، بل هو إرادةٌ مِن إرادة الوجود العادل !

صدق الحياة

وهذا الصدقُ عهدٌ منك وعليك ، لأنه
روح الجمال والحق ، وإرادةُ الحياةِ
القادرةِ الغلاّبة !

لعلّ أبرز مظاهر العدالة الكونية في عالم الجماد وعالم الحياة ، وفي كل ما يتّصل بطبيعة الوجود وخصائص الموجودات . هو الصدق الخالص المطلق . فعلى الصدق مدارُ الأرض والفلك والليل والنهار . وبالصدق وحده تتلاحق الفصول الأربعة ويسقط المطر وتسطع شمس . وبه كذلك تفي الأرض بوعدها حين تُنبت ما عليها كلاًّ في حينه لا تقديمَ ولا تأخير . وبه تقوم نواميس الطبيعة وقوانين الحياة . والريح لا تجري إلا صادقة ، والدماء لا تطوف العروقَ إلا بصدق ، والأحياء لا يولدون إلا بقانون صادق أمين .

هذا الصدق الخالص المطلق الذي تدور عليه قاعدة البقاء ، هو الينبوع الأول والأكبر الذي تجري منه عدالة الكون وإليه تعود !

ولمّا كان عليّ بن أبي طالب شديد الملاحظة لصدق الوجود ، شديد التفاعُل معه . فقد جعل من همّه الأوّل في الناس تهذيبَ الناس استناداً إلى ما يعقل ويحسّ ويرى . والتهذيب في معناه الصحيح ومدلوله البعيد ليس إلاّ الاحساس العميق بقيمة الحياة وشخصيّة الوجود . ولمّا كان هذا المعنى هو المعنى الأوحد للتهذيب العظيم ، كان الصدق مع الذات ومع كلّ موجودٍ ماديّ أو معنويّ ، هو المحور الذي يدور عليه التهذيب ، كما رأيناه محورَ العدالة الكونيّة . وبذلك ينتفي من التهذيب السليم كثيرٌ من القواعد التي تَواطأ عليها

البشرُ دونما نظرٍ في نواميس الوجود الكبرى ، وهم يحسبون أنّها قواعد تهذيبيّة لمجرّد اتّفاقهم عليها . وبذلك أيضاً ينتفي من التهذيب السليم كلُّ ما يخالف روحَ الحقّ وروحَ الخير وروحَ الجمال . والتهذيب على غير أصوله الكبرى تَواطؤٌ سطحيّ على الكذب القبيح . وهو على أصوله البعيدة إحساسٌ عميق بالصدق الجميل ، ممّا يجعله اندماجاً خالصاً بثوريّة الحياة الجارية الفاتحة .

لذلك كان مدار التهذيب عند ابن أبي طالب ، حماية الانسان من الكذب : أو قُلْ حمايته وهو حيٌّ من برودة الموت !

وحماية الانسان من الكذب تستوجب أوّلَ الأمر تعظيمَ الصدق نصّاً مباشراً في كلّ حال ، وإبرازَه ضرورةً حياتيّةً لا مفرّ منها لكلّ حيٍّ ، وتوجيهَ الناس نحوه أفراداً يَخلُون إلى أنفسهم أو يعيشون جماعات . وفي هذا الباب يبرز عليّ بن أبي طالب عملاقاً يرى ما لا يراه الآخرون ، ويشير إلى ما يجهلون ، ويعمل ما لا يستطيعونه الآن ويريدهم أن يستطيعوه . يقول عليّ : « إيّاكم وتَهزيعَ الأخلاق وتصريفَها واجعلوا اللسانَ واحداً » . وتَهزيع الشيء تكسيره . وتصريفه قلْبُه من حال إلى حال . يريد بذلك تذكيرَ الصادق بالخطر الذي يتعرّض له صدقُه إنْ هو كذب ولو مرّة واحدة . فالصادق إذا كذب مرةً انكسر صدقه كما ينكسر أيّ شيء وقع على الأرض مرةً واحدة . وكذلك النفاق والتلوّن فهما لونان من ألوان الكذب . ويقول أيضاً : « وكونوا قوماً صادقين . واعملوا في غير رياء . وأعزَّ الصادقَ المحقَّ وأذلَّ الكاذبَ المبطل . واصدُقوا الحديث وأدّوا الأمانة وأوفوا بالعهد . من طلب عزاً بباطل أورثه الله ذلاً بحق . إنْ كنت صادقاً كافيناك وإن كنت كاذباً عاقبناك . إنّ مَن عدمَ الصدق في منطقه فقد فُجع بأكرم أخلاقه . ما السيف الصارم في كفّ الشجاع بأعزّ له من الصدق » . وما هذه الآيات في الصدق إلاّ نماذج من مئاتٍ أخريات يؤلف ابنُ أبي طالب بها أساسَ دستوره الأخلاقي العظيم .

ثم اليك هذه الآية التي يكثر في نسجها نصيبُ العقل النافذ الواعي . يقول : « الكذب يهدي الى الفجور » . ولسنا في حاجة الى الإسهاب في إظهار ما تخفي هذه الكلمة من حقيقة تجرّ وراءها سلسلة لا تنتهي من الحقائق . كما أننا لسنا في حاجة الى الإسهاب في تصوير ما تشير اليه من حقيقة نفسية لا تزيدها الأيام إلا رسوخاً . ومثل هذه الآية آيات ، منها : « لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا أنْ يَعِدَ أحدُكم صبيَّه ثم لا يفي له ! » أما المعنى

الذي يشير اليه الشق الأول من هذه الآية العلوية ، فقد كان موضوع جدل كثير بين فلاسفة الأخلاق ولا سيما الأوروبيين منهم . والواقع أن هؤلاء أجمعوا على أن الصدق حياة والكذب موت . غير انهم اختلفوا في هل يجوز الكذب في حالة الضرورة أم لا ؟ فمنهم الموافق ومنهم المخالف . ولكلٍّ من الفريقين حجته .

أمّا عليّ بن أبي طالب ، فيقف من هذا الموضوع الذي تثيره عبارته ، موقفاً حاسماً ينسجم مع مذهبه العظيم في الأخلاق : هذا المذهب الذي نعود فنذكّر القارىء بأنه منبثقٌ عمّا أحسّه عليّ ووعاه من عدالة الكون الشاملة ، فيقول غير متردّد : « علامة الإيمان أن تُؤْثر الصدقَ حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك ، وأن لا يكون في حديثك فضلٌ عن عملك ! » ومن الواضح ان ابن أبي طالب لا يرى أن في الكذب ما ينفع وأن في الصدق ما قد يضرّ ، فيتحدث الى الناس في نطاقٍ مِن مدى تصوّرهم ليبلغ كلامُه منهم مبلغاً ذكياً . وتأكيداً لذلك يقول : « عليك بالصدق في جميع أمورك » . ويقول أيضاً : « جانبوا الكذب فإن الصادق على شَفَا مَنْجاة وكرامة ، والكاذب على شَفَا مَهْواةٍ وهلكة ! »

أمّا المعنى الذي يذكره الشقّ الثاني من العبارة : « ولا أنْ يعِد أحدُكم صبيّه ثم لا يفي له» ، فالتفاتةٌ عظيمة إلى حقيقةٍ تربويّة تقرّرها الحياةُ نفسُها ، كما تقرّرها الأصولُ النفسية التي ينشأ عليها المرء ويتدرّج . ويكفيك منها هذه الاشارة إلى أن الطفل يتربّى بالمثَل لا بالنصيحة. وهذا الرأي هو محور فلسفة جان جاك روسّو التربويّة !

والصدق مع الحياة يستلزم البساطة وينفر من التعقيد، لأن كل حقيقةهي بسيطة بمقدار ما الشمس ساطعة والليل بهيم . ودلالةً على هذه البساطة الدافئة لأنها انبثاقٌ حيّ وعفوي عن الصدق ، نقول إن ابن أبي طالب كرهَ التكبّر لأنه ليس طبعاً صادقاً بل الكبْر هو الصدق ، فإذا بالمتكبر في رأيه شخصٌ يتعالى على جبلته ذاتها . يقول : « لا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه » . وهو في الوقت نفسه يكره التواضع إذا كان مقصوداً فإنه عند ذاك لا يكون طبعاً صادقاً بل الشعور بأن الانسان مساوٍ لكل إنسان في كرامته هو الصدق . لذلك يخاطب مَن يقوده تواضعُه إلى أن يذلّ نفسه ، قائلاً له : « إياك أن تتذلّل للناس » . ثم يردف ذلك بقول أروع : « ولا تَصْحَبَنَّ في سفرٍ مَن لا يرى لك من الفضل عليه مثلَ ما ترى له من الفضل عليك ! »

وإني لا أعرف في مبادىء المحافظين على كرامة الانسان كإنسان لا يتكبر ولا يتواضع بل يكون صادقاً وحسب ، ما يفوق هذه الكلمة لابن أبي طالب أو ما يساويها قيمةً : « الإنسان مرآة الانسان ! »

ومن أقواله الدالّة على ضرورة أخْذ الحياة أخذاً بسيطاً : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى . الثناء بأكثر من الاستحقاق مَلَقٌ والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسد . لا تقل ما لا تعلم . لا تعمل الخير رياءً ولا تتركه حياء . يا ابن آدم ، ما كسبتَ فوق قوتك فأنت فيه خازنٌ لغيرك . لا ينصت للخير ليفخر به ، ولا يتكلّم ليتجبّر على من سواه . مَن حمّل نفسه ما لا يُطيق عجز . لا خير في معينٍ مهين » . وكأنّي بابن أبي طالب لا يترك جانباً ممّا وعاه فكرُه وشعورُه من أمور الحياة والانسان إلاّ أطلق فيه رائعةً تختصر دستوراً كاملاً . وهذا ما فعله ساعة شاء أن يوجّه الناس إلى أخذ الحياة أخذاً صادقاً بسيطاً ، فقال هذه الكلمة الدافئة بعفْويّة الحياة : « إذا طرقَتْكَ إخوانك فلا تدّخر عنهم ما في البيت ، ولا تتكلّف لهم ما وراء الباب ! » .

وإذ يفرغ عليّ من حديثه الكثير الدائر حول ضرورة الصدق مع الحياة بصورةٍ مباشرة ، ثم حول البساطة التي لا يكون صدقٌ بدونها ولا تكون بغير صدق ، يواصل طريقه في مفاهيم التهذيب التي تتلازم في مذهبه وتترابط حتى لكأنّها صورةٌ عن كلّ موجودات الكون ، والتي يظلّ الصدقُ مدارَها الأوّلَ وإن تناولتْ وجوهاً أخرى من وجوه الأخلاق . فيوصي بأن يتغافل المرءُ عن زلاّت غيره فإنّ في ذلك رحمةً من المتغافل وتهذيباً للمسيء بالسيرة والمثَل أبلغَ من تهذيبه بالنصيحة أو بالبغضاء ، يقول : « من أشرف أعمال الكريم غفلتُه عمّا يعلم » . كما يوصي بالحلم والأناة لأنهما نتيجةٌ لعلوّ الهمّة ثمّ مَدْرَجَةٌ لكرَم النفس : « الحلم والأناة توأمان ينتجهما علوّ الهمّة » . ويكره الغيبة لأنها مذهبٌ من النفاق والاساءة والشرّ جميعاً : « اجتنب الغيبة فإنّها إدام كلاب النار » . والخديعة مثل الغيبة وكلتاهما من خبث السرائر : « إيّاك والخديعة فإنّها من خلق اللئام » . وكما رأى أنّ كذبةً واحدةً لا تجوز لأنّ الصدق ينكسر بها ، يرى أن كل ذنب مهما كان في زعم صاحبه خفيفاً قليل الشأن إنّما هو شديدٌ لأنه ذنبٌ ، بل إنه أشدّ وقعاً على كرامة الانسان إذا

استخفّ به صاحبه ، من ذنبٍ عظيمٍ عاد مقترفُه إلى الرجوع عنه في الحال : « أشدّ الذنوب ما استخفّ به صاحبه » . وينهاك عليّ عن التسرّع في القول والعمل لأنه مدعاةٌ إلى السقوط وعلى الانسان المهذّب ألاّ يُبيح نفسَه لأيّة سقطة : « أنهاك عن التسرّع في القول والعمل » . وهو يريدك أن تعتذر لنفسك من كلّ ذنب أذنبتَ إصلاحاً لخلقك ، ولكنّه ينبّهك تنبيهاً عبقريّاً الملاحظة والبيان إلى أنّ الانسان لا يعتذر من خير ، فعليه إذن ألاّ يفعل ما يضطرّه إلى الاعتذار : « إيّاك وما تعتذر منه فإنه لا يُعتَذَر من خير » . ومنعاً للاشتغال بعيوب الناس وإغفال عيوب النفس ، وفي ذلك ما يدعو إلى سوء الخلق والمسلك سلباً وإيجاباً ، يقول علي : « أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله » ، و « مَن نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » . وإذا أتى القبيح من مصدرٍ عليك أن تُنكره أوّلاً ، فإن لم تستطع ذلك تحتّم عليك ألاّ تستحسنه لئلاّ تصبح شريكاً فيه : « مَن استحسن القبيح كان شريكاً فيه » . وإذا كان التعاطف بين الناس ضرورةً أخلاقية لأنه ضرورةٌ وجودية على ما مرّ معنا في الفصل السابق ، فإنّ منطق العقل والقلب يأمر بأن يكون عطفك على من أنطقك وأحسن إليك أكثرَ وأوسع . وفي ذلك يقول عليّ : « لا تجعلنّ ذربَ لسانك على من أنطقك وبلاغةَ قولك على مَن سدّدك » . ثم يقول : « وليس جزاء مَن عظّم شأنك أن تضع من قدره ، ولا جزاء مَن سرّك أن تسوءه » .

ويهاجم الحرصَ والكبرياء والحسد لأنّها سبيلٌ إلى الانحدار الخلقي : « الحرص والكبر والحسد دواعٍ إلى التقحّم في الذنوب » . وإذا كان الأخلاقيون القدماء يذمّون البخل فلأنه في نظرهم صفةٌ مذمومةٌ لذاتها. أمّا عند ابن أبي طالب الذي يرصد الأخلاق بنظرةٍ أشمل وفكرٍ أعمق ، فالبخل ليس مذموماً لذاته قدر ما هو مذموم لجمعه العيوب كلّها ، ولدفعه صاحبَه إلى كل سوءة في الخلق والمسلك . فالبخيل منافق ، معتدٍ ، مغتاب ، حاسد ذليل ، مزوّر ، جشع ، أناني ، غير عادل . يقول علي : « البخل جامع لمساوىء العيوب » .

ويطول بنا الحديث ويتّسع إذا نحن شئنا أن نورد تفاصيل مذهب ابن أبي طالب في الأخلاق وتهذيب النفس ، فهي كثيرةٌ لم تترك حركةً من حركات الانسان إلاّ صوّرتها ووجّهتها . وإذا قلتُ إن مثل هذا العمل طويلٌ واسعٌ شاقّ فإنّني أعني ما أقول . وما

على القارىء إلاّ أن يطّلع على الروائع التي أخذناها من أدب ابن أبي طالب في هذا الكتاب ، حتى يثق بأنّ المجلّدات قد تضيق عن دراسة مذهبه في الأخلاق وتهذيب النفس ، وعمّا تستوجبه هذه المختارات من شرحٍ وتعليق . ويكفي أن نشير إلى أنّ هذه الروائع العلويّة من أشرف ما في تراث الانسان ، ومن أعظمه اتّساعاً وعمقاً .

على أنه لا بد لنا الآن من التلميح إلى آية الآيات في التهذيب العظيم بوصْفه إحساساً عميقاً بقيمة الحياة وكرامة النفس وكمال الوجود . وإنّ نفراً قليلاً من المتفوّقين كبوذا والمسيح وبتهوفن وأشباههم هم الذين أدركوا أنّ آية التهذيب إنّما تكون في الدرجة الأولى بين الانسان ونفسه . ولا تكون بين الانسان وما هو خارجٌ عنه إلاّ انبثاقاً بديهيّاً طبيعيّاً عن الحالة الأولى . وقد أدرك ابنُ أبي طالب هذه الحقيقة إدراكاً قويّاً واضحاً لا غموضَ فيه ولا إبهام . وعبّر عنها تعبيراً جامعاً . يقول عليّ في ضرورة احترام الانسان نفسَه وأعماله دون أن يكون عليه رقيب : « اتّقوا المعاصي في الخلوات » . ويقول في المعنى ذاته : « إيّاك وكلّ عملٍ في السرّ يُستحى منه في العلانية . وإيّاك وكلّ عملٍ إذا ذُكر لصاحبه أنكره » . وإليك ما يقوله في الرابطة بين السرّ والعلانية ، أو بين ما أسميناه « آية التهذيب » وما أسميناه « انبثاقاً » عنها : « مَن أصلح سريرتَه أصلح الله علانيّته » .

ومن بدائع حكيم الصين كنفوشيوس في تهذيب النفس هذه الكلمة : « كلْ على مائدتك كأنك تأكل على مائدة ملك » . وجليٌّ أنه يريد منك أن تحترم نفسك احتراماً مطلقاً غير مرهون بظرف أو مناسبة ، حتى ليجدر بك أن تتصرف حين تخلو الى نفسك كما تتصرف وأنت بين يدي ملك . ومثل هذا المعنى يقوله عليّ بن ابي طالب على هيئة جديدة : « ليتزيّنْ أحدكم لأخيه كما يتزيّن للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة ! »

وهو يريدك في كلّ حال أن تعظ أخاك لتعينه في الانتقال من حَسَنٍ إلى أحسن في الخلق والذوق والمسلك . ولكنّ روح التهذيب الأصيل يأبى عليك أن تجرحه أو تؤذيه بنُصحه علناً ، بل إنّ هذا الروح يقضي عليك أن تكون ليّناً رفيقاً فلا تنصح إلاّ خفيةً ولا تعظ إلاّ سرّاً . يقول عليّ : « مَن وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ، ومَن وعظَه علانيةً فقد شانه » .

وأيّةً كانت حالك فعليك أن تصدق مع نفسك والحياة والناس . فبهذا الصدق تحيا وبغيره تهلك . وبه تحفظ سلامةَ روحك وقلبك وجسدك . وبغيره تفقدها . وبالصدق تُحِبّ وتُحَبّ ويوثَق بك ، وبغيره تجلب لنفسك المقْتَ والكراهية والسّيئات جميعاً ويرذلك الناس تافهاً حقيراً . وهذا الصدق عهدٌ منك وعليك لأنه إرادة الحياة القادرة الغلاّبة وهي إرادةٌ تقضي عليك بأنْ تنظر في عهدك كلّ يوم . وابنُ أبي طالبٍ يقول : « على كلّ إنسان أن ينظر كلّ يومٍ في عهده ! »

خير الوجود وثوريّة الحياة

• لشدَّ ما رأيناه يجعل ثوريّةَ الحياة كُلاً
من خير الوجود ، وخيرَ الوجود كُلاً
من ثورية الحياة !

• وقالت الثورة : أنا الهادمة البانية !

وليس من حقّ الوجود العادل إلاّ أنْ يكون خيّراً كريماً . وليس من طبيعته إلاّ العطاء.وهو لا يأخذ ما يعطيه إلاّ ليعودَ إلى بذْله طيّباً جديداً . وخيرُ الوجود كيانٌ من كيانه وجوهرٌ من جوهره . وعهدُ عليٍّ به هو هذا العهد . وإحساسُه بخيره هو إحساسه بعَدْله لا يقلّ ولا يزيد . وعلى ذلك تَحَدّث عن هذا الخير فأكثر الحديثَ وقد روينا من أقواله في خير الوجود شيئاً غيرَ قليل . ولعلّ ما رويناه من تلك الروائع الصادقة نستطيع تلخيصه الآن بكلمة قالها وكأنّه يوجز بها مذهبَه المؤمنَ بخير الوجود : « وليس الله بمـا سُئِل بأجودَ منه بما لم يُسأل » . فإذا عرفنا أنّ لفظة « الله » تعني في أقصى ما تعنيه عند القدماء من أصحاب الأصالة الذهنية والروحية : مركزَ الوجودِ والروابطِ الكونية ، عرفْنا أيّ خيرٍ شاملٍ عميم هو خير الوجود الذي يمنحك ما تسألُ ضمن شروطٍ ، ثمّ يعطيك فوق ما تسأل ، ثمّ يزيد !

ولمّا كان الانسان الذي يحسب أنّه جرمٌ صغير ، ممثّلاً لهذا العالَم الأكبر على ما يقول ابنُ أبي طالب ، فلا بدّ أن يكون هو أيضاً صورةً عن الوجود بخيره كما هو صورةٌ عنه بعدله . فإذا أعطاك الوجودُ فوقَ ما تسأله من خيره ، يكون قد بَدَأك لحاجةٍ في طبيعته إلى أن يكون خيّراً . وإذا كنتَ صورةً عنه ، فأنتَ أحوَجُ إلى اصطناع الخير من أهل الحاجة

إليه . وهذا ما يؤكّده عليّ بقوله هذا : « أهل المعروف إلى اصطناعه أحوجُ من أهل الحاجة إليه ! » وهذا ما يؤكّده أيضاً في عبارة يرجع إليها كلّما تحدّث عن اصطناع الخير بين الناس : « والفضل في ذلك للبادىء » .

وإذ ننتقل إلى النظر في الخير ومعناه على صعيد العلاقات بين الناس ، أمكننا أن نُجريَ آراء ابن أبي طالب في المجاري التالية :

أولا ، الخير بين الناس يكمن في أن يتعاونوا ويتساندوا ، وأنْ يعمل واحدُهم من أجل نفسه والآخرين سواءً بسواء ، وألاّ يكون في هذا العمل رياءٌ من جانب هذا ولا إكراهٌ من جانب ذاك لكي « يُعمَل في الرغبة لا في الرهبة » على حدّ ما يقول عليّ ، ثم أن يضحّي بالقليل والكثير توفيراً لراحة الآخرين واطمئنان الخلق بعضهم إلى بعض ، وأن تأتي هذه التضحية مبادرةً لا بعد سؤال ولا بعد قسْر وإجبار . وكلّ ما من شأنه أن ينفع ويفيد ، سواءٌ أكان ذلك على صعيد ماديّ أو روحيّ ، كان خيراً .

ثانياً ، يرى عليٌّ أنّ الخير لا يأتي إلاّ عملاً أولاً ، ثم قولاً ، لأن الانسان يجب أن يكون واحداً كالوجود الواحد ، وأن يساند بعضُه بعضاً وفاءً لهذه القاعدة : فإن قال فعل ، وإن فعل قال. ومن روائع ابن أبي طالب كلمةٌ قالها في رجل يرجو الله في أمر ولا يعمل من أجل هذا الرجاء : « يدّعي بزعمه أنّه يرجو الله ! كذبٌ والعظيم ! ما باله لا يتبيّن رجاؤه في عمله ، فكلّ مَن رجا عُرف رجاؤه في عمله ! » أمّا إذا عملتَ خيراً ، فمن حقك عند ذاك أن تقول خيراً : « قلْ خيراً وافعلْ خيراً ! »

ثالثاً ، يفسح عليّ في المجال أمام قوى الخير لأن تنطلق أبعدّ ما يكون الانطلاق ، وذلك بأن يجعل قبولَ التوبة عن الشرّ قاعدةً يُعمل بها . فإذا أثِمَ المرء مسيئاً إلى الآخرين ، فإنّ في التوبة باباً يلجه من جديد إلى عالم الخير إذا شاء . يقول عليّ : « إقبل عذر من اعتذر إليك ، وأخّر الشرّ ما استطعت » . ويعرف التاريخ مقدار الإساءة التي لحقتْ بعليّ عن طريق أبي موسى الأشعري ، ويعرف كذلك أنّ علياً لا ينزع إلاّ عن مذهبه أيّةً كانت الظروف والصعوبات ، لذلك نراه يبعث إلى أبي موسى قائلاً : « أمّا بعد ، فإنّك امرؤٌ ضلّلك الهوى ، واستدرجك الغرور ، فاستقلِ اللهَ يقلْك عثْرتَك ، فإنّ مَن استقال اللهَ أقاله ! »

رابعاً ، يؤمن عليّ بأن قوى الخير في الانسان تتداعى ويشدّ بعضُها بعضاً شدّاً مكيناً . فإذا وُجد في إنسانٍ جانبٌ من الخير فلا بدّ من ارتباطه بجوانب أُخرى منه ، ولا بدّ من ظهور هذه الجوانب عند المناسبات. وفي هذه النظرة إشارةٌ صريحة إلى أنّ الوجود واحد متكافىءٌ عادلٌ خيّرٌ سواءٌ أكان وجوداً عامّاً كبيراً ، أو وجوداً خاصّاً مصغّراً يتمثّل بالانسان : « إذا كان في رجلٍ خلّةٌ رائقة فانتظروا أخواتها ! »

خامساً ، ومثل هذه العدوى الخيّرة بين الخلال الرائقة ، عدوى مماثلة تنتقل من الخير الى الشر بين الناس والناس : « جالس أهل الخير تكن منهم ! » و « اطلبوا الخيرَ وأهلَه » .

سادساً ، الإيمان العميق بأنّ في طاقة الانسان أيّاً كان أن ينهج نهج الخير ، وأنّه ليس من إنسانٍ أجدر من إنسانٍ آخر بهذا النهج : « ولا يقولَنّ أحدُكم إنّ أحداً أولى بفعل الخير منّي ! »

سابعاً ، على المرء ألاّ يستكثر من فعل الخير كثيراً . بل إنّ ما يفعله من خيرٍ يظلّ قليلاً مهما كان كثيراً لأنّ في الاكتفاء بقدرٍ من الخير جحوداً بخير الوجود العظيم وإنكاراً لطاقة الانسان الذي ينطوي فيه العالَم الأكبر . يقول عليّ في أهل الخير : « ولا يرضَون من أعمالهم القليلَ ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متّهمون ، ومن أعمالهم مشفقون (١) »

ثامناً، لا بدّ من الإشارة إلى النظرة العميقة التي يلقيها عليٌّ على مفاهيم النزوع الانساني إلى ما يجعل الناسَ ، كلّ الناس ، في نعيم .

فإذا نحن نظرنا في آثار معظم المفكّرين الذين أعاروا شؤونَ الناس اهتمامَهم ، رأينا أنّ لفظة « السعادة » هي التي تتردّد في هذه الآثار ، وأنّ مدلول هذه اللفظة إنّما ، هو بالذات ، مدار أبحاثهم وغاية ما يريدون . أمّا عليّ فقد استبدل بلفظة « السعادة » هذه ما هو أبعدُ مدًى ، وأعمق معنى ، وأرحبُ أفقاً ، وأجلّ شأناً في ما يجب أن تتصف به الطبيعة الانسانية وتصبو إليه . لقد استبدل بـ « السعادة » هذه ، لفظة « الخير » فما كان يوجّه القلوبَ إليها بل إليه . لأنّ في السعادة ما هو محصورٌ في نطاق الفرد ، ولأنّ الخير ليس

---

١ — من أعمالهم مشفقون : خائفون من التقصير فيها

بمحصور في مثل هذا النطاق . فالخير إذن أعظم ! ثمّ إنّ الخير يحتوي السعادةَ ولا تحتويه ، فهو أشملُ ! أضِفْ إلى ذلك أنّ بعض الناس قد يسعدون بما لا يشرّف الانسان ، وأنّهم قد يسعدون بما يؤذي الآخرين ، وأنّهم قد يتفقّهون ويترهّلون وهم يحسبون أنّهم بذلك سعداء . أمّا الخير فهو غير السعادة إذ يكون معدنها هذا المعدن . فهو السعادةُ منوطةٌ بسعادة الناس جميعاً . وهو الرضى عنْ أحوال الجسد والعقل والضمير ! لذلك أكثر عليٌّ من استخدام هذا اللفظ في دعوته الحارّة إلى كلّ ما يرفع من شأن الانسان !

ولم أعثر في آثار ابن أبي طالب على لفظة « السعادة » إلاّ مرّةً واحدة . ولكنّه لا يخرج بمعناها الذي يقصد عن مفهوم الخير بما يُحمّلها من حدوده ومعانيه . أمّا العبارة التي وردتْ فيها لفظة « السعادة » فهي هذه : « مِن سعادة الرجل أنْ تكون زوجته صالحة وأولاده أبراراً وإخوانه شرفاء وجيرانه صالحين ورزقه في بلده » . فانظر كيف ربط سعادة المرء بسعادة المحيطين به من أفراد عائلته ثم بسعادة إخوانه وجيرانه جميعاً . بعد ذلك ناط سعادة هذا الرجل بسعادة بلاده مستنداً إلى أنها بلادٌ تُنتج الرزقَ لجميع أبنائها وهو واحدٌ منهم !

تاسعاً ، إنّ خير الوجود وخير الانسان يستلزمان ، بالضرورة ، الثقةَ بالضمير الانسانيّ ثقةً تجعله حكَماً أخيراً في ما يضرّ وينفع . ولنا في هذا الموضوع رأيٌ نُفصّله نقول :

من روائع ابن أبي طالب ما يخاطب به العقلَ وحده . ومنها ما يخاطب به الضميرَ . وأكثرها ممّا يتوجه به إلى العقل والضمير مجتمعين . أمّا تلك التي يخاطب بها العقلَ ، فقلْ إنّها الغاية في الاصالة ، وإنّها نتيجةٌ محتومة لنشاط العقل الذي لاحظ ودقّق وتمرّس بخير الزمان وشرّه ، وعرف من التجارب كلّ ما يكشف له عن الحقائق ويجلّيها . فإذا هي مصوغةٌ على قواعدَ هندسيّةٍ ذات حدود وأبعاد لشدّةِ ما ترتبط بالحقائق . ومُظْهَرَةٌ في أروع إطارٍ فنّي لشدّة ما ترتبط بالجماليّة التعبيريّة ، مما يجعلها ، من حيث المادة والشكل ، في أصول الأدب الكلاسيكي العربي .

وفي هذا النوع من الحِكَم الموجّهة إلى العقل ، نرى عليّاً يصوّر تاركاً للناس أن يحكموا بما يرون . فيأخذوا إذا شاؤوا أو يتركوا . لذلك لا نرى في هذا النوع من الحِكَم صيَغَ الطلب . إنّما نرى حِكَماً صيغتْ بقالبٍ خبريٍّ خالصٍ جُرِّد من صُوَر الأمر والنهي جميعاً .

حِكَماً تتبلور فيها طبائع الصديق والعدوّ ، والمحسن والمسيء ، والأحمق والعاقل ، والبخيل والكريم ، والصادق والمنافق ، والظالم والمظلوم ، والمعوز والمتخم ، وصاحب الحقّ وصاحب الباطل ، ومفهوم الخلق السليم والخلق السقيم ، وشؤون الجاهل والعالم ، والناطق والصامت ، والأرعن والحليم ، وصفات الطامع والقانع ، وأحوال العُسْر واليُسر ؛ وتقلّبات الزمان وما لها من أثر في أخلاق الرجال ، وما إلى ذلك من أمور لا تُحصى في فصل أو باب .

أمّا تلك التي يخاطب بها الضمير ، والعقلَ والضميرَ مجتمعين ، فإليكَ ما هي وما حولها :

من الثابت أنّ الذين رأوا في الأنظمة والتشريعات وحدَها سلامةَ الانسان وكفايةَ المجتمع ، قد أخطأوا خطأً عظيماً . فإنّ هذه الأنظمة والتشريعات التي تُعلن عن حقوق الانسان وتأمر برعايتها والمحافظة عليها ، لا يضبطها في النتيجة ، كما لا يُخلص في اكتشافها وابتداعها ، إلاّ عقلٌ سليم ونفسٌ مهذّبة وضميرٌ راقٍ . فإنّ دنيا الناس هذه يرتبط كلّ ما فيها ، ضمنَ حدود معيّنة طبعاً ، بأخلاق القيّمين على دساتيرها وانظمتها ، وبمدى الخير الذي يتّسع في نفوسهم أو يضيق ، بقدر ما يرتبط بضمير الجماعة التي تؤلّف ميدانَ هذه الأنظمة والدساتير وتبرّر وجودَها . هذا ، مع الاعتراف بأنّ الأنظمة الاجتماعية الحديثة تتفاوت تفاوتاً عظيماً في سماحها للقيّمين عليها بمسايرتها أو بالخروج عليها . وذلك بحكم طبيعتها وبنسبة ما تحويه أصولها من إمكانات التنفيذ . أمّا الإنظمة والدساتير القديمة ، فقد كانت أكثر تأثّراً بأخلاق القيّمين عليها المشرفين على إقامة ما تقتضيه من حدود . ولذلك أسبابٌ ليست من موضوع حديثنا هذا .

وبالرغم من أنّ الأنظمة والتشريعات الصالحة من شأنها أن توجّه الناس وتفرض عليهم ما يؤدي إلى نفعهم فرضاً ، فإنّ هذا التوجيه وهذا الفرض يظلاّن خارج حدود القيمة الانسانية إن لم يوافقهما العملُ النابع من الوجدان بالذات . وفي مذهبنا أنّ كلّ عمل يأتيه الانسان لا بدّ أنه فاقدٌ الدفء الانسانيّ ، وهو أثمنُ وأعظم ما يوافق الصنيعَ الانساني ، إن لم يحمل وهجَ الضمير وعبقَ النفس وإرادةَ العطاء على غير قسْرٍ وإكراه . ولا تنجح الأنظمة

والتشريعات في إقامة العلاقات الانسانية إلاّ بمقدار ما يمكنها أنْ تتوجّه إلى العقل والضمير فتقنعهما بالخير ، فتخلق الانسجام الرائع بين إتاحة الفرصة للعمل النافع وإرادة العامل في وحدة تكفل للفرد وللجماعة الصعودَ في طريق الحضارة .

وما يصدقُ ، بهذا الصدَد ، في نطاق الأفراد والجماعات ، يصدُق كذلك في تاريخ المفكّرين والمشرّعين والعلماء والمكتشفين ومَن إليهم . فإنك لترى ، إذا أنتَ استعرضتَ تاريخ هؤلاء الذين خدموا الانسان والحضارة ، أنّ العقل الذي دَلّهم على الطريق الصحيح في كلّ ميدان ، لم يكن وحده في تاريخهم . فالعقل بارد ، جافّ ، لا يتعرف إلاّ إلى الأرقام والأقسام والوجوه ذات الحدود . فهو لذلك يدلّك على الطريق ولكنّه لا يشدّك إلى سلوكه ولا يدفعك في سهله ووعره . أما الدافع ، فالضمير السليم والعاطفة الحارة . فما الذي حمل ماركوني على العزلة القاسية والانفراد الموحش الكئيب ، إن لم يكن الضمير الذي يحسّن له الانصراف عن مباهج الحياة الى كآبة الوحدة في سبيل الحضارة والانسان ؟ وإن لم يكن العاطفة التي تغمر هذا الضميرَ السليم بالحرارة والدفء فلا يفترُ أبدا .

وما يقال في ماركوني يقال في باستور ، وغاليليو ، وغاندي ، وبتهوفن ، وبوذا ، وأفلاطون ، وغيتي ، وفي غيرهم من أصحاب المركّب الانساني القريب من الكمال .

والدليل الإيجابي على هذه الحقيقة يستتبع دليلاً سلبياً لزيادة الايضاح . فهذا ادولف هتلر ، وجانكيزخان ، وهولاكو ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وقيصر بورجيا بطل كتاب « الأمير » المشؤوم لمكيافيللي (١) ، وبعض علماء الذرة المعاصرين الذين يوافقون

---

١ ــ مكيافيللي : نابغة ايطالي عاش في عصر الرسام العظيم رافاييل ، وكان صديقاً له ومعيناً . وقد دفعه عقله الفذّ وخلقه الكريم الى مهاجمة أساليب الظلم والبربرية عند حكام التاريخ ، فألف كتابه الشهير « الامير » الذي يصف فيه وقاحة أولئك الحكام ، وشخصياتهم المبتذلة ، بطريقة غير مباشرة اذ دفع الى الناس صورة عن شخصية الامير الذي يخلو من كل ضمير وكل عقل وكل ذوق ويلجأ لشتى وسائل العنف في التقتيل والترويع والتشريد وسائر الفظائع تثبيتاً لمركزه ..مشيراً إلى أنّ امارات التاريخ والعصر الذي هم فيه انما « تركزت» على هذا الاسلوب السمج . وقد أخذ مكيافيللي صفات « الامير » في كتابه هذا من شخصية قيصر بورجيا ابن اسكندر بورجيا ، صاحب المظالم المعروفة . ويطلق على المبدأ القائل باللجوء الى هذا الاسلوب توسلاً الى الحكم ثم الى تركيزه ، اسم المكيافيلية : نسبة لمكيافيللي صاحب الكتاب .

على تجربتها على الآدميين ، ألم يتميز هؤلاء جميعاً بعقول واسعة ومدارك قد تهون أمامها مدارك الآخرين ؟ ومع ذلك ، فما كان من شأنهم إلا التقتيل والتدمير والاعتداء على مقدسات الحضارة ومخلّفات الجهود الانسانية ، وعلى كرامة الحياة والأحياء وخير الوجود ! ذلك أن عقولهم لم تواكبها الضمائر السليمة والعواطف الكريمة ! فحيث لا ضمير ولا عاطفة ، لا نفع من العقل ، بل قل إنه إلى المضرّة أقرب .

ولا أُريد هنا التفصيلَ بين مختلف قوى الانسان من عاطفة وضميرٍ وعقلٍ وما إليها ، فهي ولا شكّ تتفاعل وتتعاون . غير أنّ ما أردتُه بالعقل هو القوّة الّتي تعقل الأمور على صعيدٍ يربط السببَ بالنتيجة ويُحكِم بين العلّة والمعلول ، فيدور في نطاقٍ من الأرقام والحدود الّتي لا تتأثّر ، بحدّ ذاتها ، بالبيئة الانسانية الخاصّة والعامّة . وعلى هذا الضوء أجزتُ هذا التفصيل .

إذن ، فالعقل المكتشف لا بدّ لصاحبه من ضميرٍ وعاطفة يدفعانه في طريق الخير . وما يصحّ بهذا الشأن في المشرّع يصحّ في المشرّع له . فالأفراد الذين يُطلَب إليهم أن يسيروا على هذا النظام الخيّر أو ذاك ، لا بدّ لهم من اقتناعٍ وجدانيّ ، إلى جانب الاقتناع العقلي المجرّد ، يدفعهم في طريق التهذيب الانسانيّ الرفيع ، لبناء المجتمع الصالح . لا بدّ لهم من التمرّس بالفضائل الأخلاقيّة الّتي تحيط الأنظمة والتشريعات بحصونٍ رفيعةٍ منيعة . لا بدّ لهم من أن يكونوا خيّرين !

لذلك راح عليّ يحرّك في الأفراد عواطف الخير على ما رأينا ، ويوقظ فيهم ما غشّته الأيامُ من الضمائر السليمة . ويعمل على إنمائها وينصح برعايتها .

توجّه عليّ إلى الضمائر بتوصياته وخطبه وعهوده وأقواله جميعاً . لأنه لم يفته أنّ لتهذيب الخلق شأناً في رعاية النظم العادلة ، وفي بثّ الحرارة في المعاملات بين الناس . ولم يفته كذلك ، أن هذا التهذيب يُطلب لذاته بما هو من القيم الإنسانية ، كما يُطلب لحماية العدالة الاجتماعية وسُنَنها بما هو ضبطٌ لنوازعَ وتوجيهٌ لأخرى . وقد ساعده في ذلك ما أُوتي من مقدرة خارقة ينفذ بها إلى أعماق الناس أفراداً وجماعات ، فيدرك ميولهم وأهواءهم ، ويعرف طباعهم وأخلاقهم ، فيزن خيرّها وشرّها ، ثم يصوّر ، ويطوّر ، ويأمر وينهى ، على ضوء ثقته الراسخة بالضمير الانساني الذي يتوجه اليه .

كانت ثقة ابن أبي طالب بالضمير الانساني ثقة العظماء الذين تآلفَ فيهم العقل النيّر والقلب الزاخر بالدفء الانساني ، النابض بالحب العميق الذي لا يعرف حدوداً .

كانت ثقته بهذا الضمير ثقةّ بوذا وبتهوفن وروسّو وغاندي وسائر العظماء الذين مدّهم القلبُ بنور يخبو لديه كلّ نور . وعلى أساس هذه الثقة أرسى ابنُ أبي طالب حكمتَه وأمثاله ، وعلى أساسها تترابط الأفكار والتوجيهاتُ التي يخاطب بها وجداناتِ الناس .

وإذا كان للإمام علي مثلُ هذه الثقة بنواحي الخير في الناس ، على ما مُني به على أيديهم من نكبات وفواجع ، فإنه يأبى إلاّ أنْ يلقي بذور هذه الثقة في قلوبهم جميعاً . فهو يعرف « أنّ في أيدي الناس حقّاً وباطلاً ، وكذباً وصدقاً » . ولكنّ الأولى بالمرء أن يفتح عينيه وقلبه على نواحي الخير هذه ، فلعلّها هي التي تنمو دون نواحي الشر . ولعلّ التعليم بالمثَل والسيرة يكون أجلّ وأجدى . وقد طالما كرّر عليّ وصاياه بضرورة هذه الثقة بالضمير الانساني ،وفي جملة ما يقوله : « مَن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنه » . ويقول في مكان آخر : « لا تظننّ بكلمةٍ خرجتْ من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير محتَملاً » و « ليس من العدل القضاءُ بالظنّ على الثقة » و « وإذا استولى الصلاحُ على الزمانِ وأهله ثمّ أساء رجلٌ الظنّ برجلٍ لم تظهر منه خزْيةٌ ، فقد ظلم » و « أسوأ الناس حالاً مَن لم يثق بأحدٍ لسوء ظنّه ، ولم يثق به أحدٌ لسوء فعله ! »

وقد أخطأ دارسو الإمام عليّ ساعة رأوا أنه متشائمٌ بالناس شديد التشاؤم ، متبرّمٌ بهم كثير التبرّم . وساعة احتجّوا لرأيهم هذا بأقوالٍ له يهاجم بها أبناء زمانه بشدّة وعنف . أمّا رأينا نحن فعلى العكس من ذلك تماماً.رأينا أنّ عليّاً لم ينقضْ ثقتَه بالانسان ساعةً واحدة وإنّ نقَضَها ببعض الناس في بعض الظروف . فمَن عرف طاقة ابن أبي طالب على احتمال المكاره تأتيه من الناس ، وجلَدَه العجيب في مقاساة الأهوال الناجمة عن الغدر والخيانة والفجور في الكثير من خصومه وأنصاره ، ثم ما كان من أموره معهم جميعاً إذ يأخذهم بالرفق والعطف ما أمكنه أنّ يرفق وأنْ يعطف ، أقول : مَن عرف ذلك أدرك أنّ عليّاً عظيم التفاؤل بحقيقة الانسان ، وبفطرته التي أضلّها المجتمع في بعض أحواله . لا يختلف في ذلك عن أخيه العظيم روسّو .

وإذا كان له في ذمّ أهل الخيانة والغدر والظلم قولٌ كثير ، فما ذاك إلاّ لأنه يعرف ، ضمناً ، أنّ الانسان ممكناً إصلاحُه ولو طال على ذلك الزمن . فإنّ المتفائل وحده هو الذي يزجر المسيء كما يُثيب المحسن أملاً منه بتقويم الاعوجاج في الخلق والمسلك . ولو لم يكن لابن أبي طالب مثل هذا الأمل ، لمّا استطاع احتمال ما لا يُحْتَمَل من مكاره الدهر التي جرّها عليه المسيئون ، ولمّا صبر على ما يكره ! وهو إن قال في الدنيا وأهلها : « فإنّما أهلها كلابٌ عاوية وسباعٌ ضارية ، يهرّ بعضُها بعضاً ، ويأكل عزيزُها ذليلَها ، ويقهر كبيرُها صغيرَها » ، فإنّما يقول ذلك لأنه قاسى من غدر الغادرين وفجور الفاجرين ما آلمه وآذاه . فوبّخهم هذا التوبيخَ الموجع إيثاراً منه لمن لا يفجر ولا يغدر ولا يكون كلباً عاوياً ولا سبعاً ضارياً ولا عزيزاً يأكل ذليلاً أو كبيراً يقهر صغيراً ! يقول ذلك ثمّ يحارب السبع الضاري والعزيز الظالم والكبير الجائر كما يحارب الطبيبُ الجراثيمَ إيثاراً منه لسلامة البدن والروح ، بل إيثاراً منه للحياة على الموت ، وتفاؤلاً بحسن النجاة !

إذن ، فالإمام عليّ ، وهو الذي يحترم الحياة : أعظم ما خلق الله ، ويحترم الناس الأحياء : أجمل نماذج هذه الحياة ، عظيمُ الثقة بالخير الانساني . عظيم التفاؤل بالانسان يريده حرّاً كما يجب أن يكون !

ولولا هذه الثقة وهذا التفاؤل لمّا كان من أمره مع الناس ما كان ، ولمّا قال : « لا تظنّنّ بكلمةٍ خرجتْ من أحدٍ سوءاً وأنت تجد لها في الخير مُحْتَمَلاً ! » ثمّ لمّا توجّه إلى الضمير الفرديّ والجماعي بوصاياه التي تجمع عمق الفهم وحرارة العاطفة الى سموّ الغاية ونبل المقصد . هذه الوصايا التي أرادها حصناً منيعاً للأخلاق العامّة ، والعاطفة الانسانية ، وتركيز العمل النافع على أُسُس الايجابية في العقل والضمير . واستناداً الى هذه الثقة بالضمير الانساني ، وتحصيناً للعمل الخيّر الشريف ، نراه يقيم على الناس أرصاداً من أنفسهم وعيوناً من جوارحهم فيخاطبهم قائلاً : « اعلموا أن عليكم رَصَداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحُفّاظَ صدقٍ يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم ! »

• •

واستناداً إلى هذه الثقة بخير الوجود وعدله ، وإلى عظمة الحياة والأحياء ، يخاطب عليّ ابن أبي طالب أبناء زمانه بما يوقظهم على أنّ الحياة حرّةٌ لا تُطيق من القيود إلاّ ما كان

سبباً في مجراها وواسطةً لبقائها وقبَساً من ضيائها وناموساً من نواميسها . وأنّها لا يطيب لها البقاء في مهد الأمس . فعليهم ألاّ يحاولوا غلّها وتقييدها وإلاّ أسِنتْ وانقلبت إلى فناء . فالحياة جميلة ، كريمة ، حرّة ، خيّرة كالوجود أبيها ، تحفظ نفسها بقوانينها الثابتة لا بما يريد لها المتشائمون من قوانين .

وهي متجدّدة أبداً ، متطوّرة أبداً ، لا ترضى عن تجدّدها وتطوّرها بديلاً وهما أسلوب تنهجه في فتوحاتها التي تستهدف خيراً أكثر وبقاءً أصلح . وملاحظةُ ابن أبي طالبٍ الدقيقة العميقة للحياة ونواميسها وهي أعظم موجودات الوجود الخيّر ، مكّنتْ في نفسه الايمانَ بثوريّة الحياة المتطلّعة أبداً إلى الأمام ، المتحرّكة أبداً في اتّجاه الخير الأكثر . وثوريّة الحياة أصلُ تحرّكها وسببُ تطوّرِها من حسنٍ إلى أحسن . ولهذا كانت الحياة حرّةً غير مقيّدة إلاّ بشروطِ وجودها . وثوريّة الحياة أصلُ تحرّكِ المجتمع الانساني وسببُ تطوّره . ولولا هذه الخاصّة لكانت الحياة شيئاً من الموت والأحياء أشياء من الجماد .

آمن ابنُ أبي طالبٍ بثوريّة الحياة إيماناً أشبه بالمعرفة ، أو قُلْ هو المعرفة . فترتّب عليه إيمانٌ عظيمٌ بأنّ الأحياء يستطيعون أن يُصلحوا أنفسهم وذلك بأن يماشوا قوانين الحياة . ويستطيعون أن يكونوا أسياد مصائرهم وذلك بأن يخضعوا لعبقريّة الحياة . وقد سبق أنْ قلنا في حديثٍ مضى إنّ ثوريّة الحياة ألصقُ مزايا الحياة بها وأعظمها دلالةً على إمكاناتها العظيمة . وهي تستلزم من المؤمنين بها أن يعملوا على أساسٍ من الثقة المطلقة بالتطوّر المحتوم ، وأن ينبّهوا الخواطر إليه ، وأن يستخدموا الدليلَ والبرهان في زجْر المحافظين عن كلّ تصرّفٍ غبيٍّ يتوهّم أصحابه أنّهم يستطيعون الوقوف في وجه الحياة الثائرة المتطوّرة بثورتها .

بهذه الثقة وبهذا الايمان خاطب ابنُ ابي طالب الانسانَ بقوله : « فإنك أوّلَ ما خُلقتَ جاهلاً ثمّ عُلّمتَ ، وما أكثر ما تجهلُ من الأمر ، ويتحيّر فيه رأيك ، ويضِلّ فيه بصرُك ، ثم تُبصره بعد ذلك ! » ففي هذا القول اعترافٌ بأنّ الحياة متطوّرة ، وأنّ التعلّم إنّما هو الانتفاع بما تختزن الحياة من عبقريتها في صدور أبنائها ، على ما قلنا سابقاً . وفيه إيمانٌ بالقابلية الانسانية العظيمة للتقدّم ، أو قُل للخير . وما دعوته الحارّة إلى المعرفة التي تكشف كلّ

يوم عن جديد ، وتبني كلّ يوم جديداً ، إلاّ دليلٌ عن الايمان بثوريّة الحياة الخيّرة وإمكانات الأحياء . فالمعرفة لديه كشفٌ وفتحٌ لا يهدآن .

وهو بهذا الايمان وهذه الثقة يخاطب أبناء زمانه يقول : « لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم ، فإنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . فلولا تفاؤله العظيم بأنّ في الحياة جمالاً ، وبأنّ في الناس قابليّة التطوّر إلى الخير ، لـما أطلق هذا القولَ الذي يوجز علمه بثوريّة الحياة ، ويوجز تفاؤلَه بإمكانات الانسان المتطوّر مع الحياة ، كما يوجز روحَ التربية الصحيحة ، ويخلّص كلّ جيلٍ من الناس من أغلال العُرف والعادة التي ارتضاها لنفسه جيلٌ سابق .

ولابن أبي طالب في هذا المعنى قولٌ كثيرٌ منه هذه الآيات الخالدة التي يمجّد بها العملَ بوصْفه حقيقةً وثورةً وخيراً : « مَن أبطأ به عملُه لم يُسرع به نَسَبُه » و « قيمة كلّ امرىءٍ ما يُحسنه » و « اعلموا أنّ الناس أبناء ما يُحسنون » و « لكلّ امرىءٍ ما اكتسب » .

ومن أقواله ما يدفع به المرء إلى أن يطلب التقدّم بالعمل ، وألاّ يُحجم أو يتراجع إذا هو أخفق كثيراً أو قليلاً ، لأنّ الوجود الخيّر لا يحرم أبناءه ما يستحقّون . وإذا هو حرَمَهم فبعضَ الحرمان لا كلّه . وقد يُسوّى الأمرُ في دفعةٍ ثانية من الطلب بواسطة العمل . ومن قوله في ذلك هذه الآية : « مَن طلب شيئاً ناله أو بعضَه » . وأظن أن القارىء فطن الى روح هذه العبارة التي تتألق وكأنّها انبثاقٌ عن كلمة المسيح الشهيرة : « إقرعوا إقرعوا يُفْتَحْ لكم » .

ولعلّ أجمل ما في المذهب العلويّ بهذا الشأن ، أنّ صاحبه كان يوحّد ثوريّةَ الحياة وخيرَ الوجود نصّاً كما كان يوحّدهما روحاً ومعنى . فلَشَدّ ما نراه يوحّد معنى التطوّر ، أو ثوريّة الحياة ، بمعنى خير الوجود توحيداً لا يجعل هذا شيئاً من تلك ، ولا تلك شيئاً من هذا ، بل يجعل ثوريّةَ الحياة كُلاً من خير الوجود ، وخيرَ الوجود كُلاً من ثورية الحياة . وإن في آياته هذه لدليلاً كريماً على صحة ما نقول فليس فيها ما يحتاج إلى شرحٍ أو تعليق . وإليك نموذجاً عنها : « العاقلُ مَن كان يومه خيراً من أمسه » و « مَن كان

غده شرّاً من يومه فهو محروم » و « مَن اعتدل يوماه فهو مغبون » . وأخيراً إليك هذه الرائعة التي تجمع كلّ ما نحن بصدَده الآن ، إلى دفء الحنان العميق ، إلى جمال الفن الأصيل ، إلى إشراك الأيام بأحاسيس البشر :

« ما مِن يوم يمرّ على ابن آدم إلاّ قال له : أنا يومٌ جديد ، وأنا عليك شهيد ، فقُلْ فيّ خيراً واعملْ خيراً فإنك لن تراني بعدَ أبدا ! »

ولسوف نسوق في هذا الكتاب روائع لابن أبي طالب ستبقى ما بقيَ الانسانُ الخيّر . وإنّها لَطائفةٌ تؤلّف نهجاً في الأخلاق الكريمة ، والأحلام العظيمة ، وبالتهذيب الانسانيّ الرفيع الذي أراده انبثاقاً عن ثوريّة الحياة وخير الوجود !

بيروت　　　　　　　　جورج جرداق

اَلْفَتْحَةُ الْعَلَوِيَّةُ

الفاتحة العلويّة

أوَ أقنعُ من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر ؟!

إمنع من الاحتكار .

إياك والاستئثار بما الناسُ فيه أُسْوة .

ألاَ وإني أقاتلُ رجلين : رجلاً ادّعى ما ليس له ؛ وآخرَ منع الذي عليه

ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيّ

ما رأيتُ نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حقٌ مضيّع

وإنما يؤتى خرابُ الأرض من إعواز أهلها . وإنما يُعْوِزُ أهلُها لإشراف أنفُس الولاة على الجمع(١)

وليكنْ نظرك في عمارة الأرض أبلغَ من نظرك في استجلاب الخراج

ليس بلدٌ أحق بك من بلد . خير البلاد ما حملك

١ – إشراف أنفُس الولاة على الجمع : تطلّعهم الى جمع المال وادخاره لأنفسهم طمعاً وجشعاً .

الفقر في الوطن غربة

لو تمثَّلَ لي الفقرُ رجلاً لقتلتُه

يُسأل – ابن آدم – يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه

كيف تُسيغُ طعاماً وشراباً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراما

ظلمُ الضعيف أفحشُ الظلم ، والظلم يدعو الى السيف ، وخاب مَن حمل ظلما

يوم المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم

العاملُ بالظلم ، والمعينُ عليه ، والراضي به : شركاء ثلاثة

لا تُضيعَنَّ حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخٍ مَن أضعتَ حقه

مهما كان في كتّابك – موظفيك – من عيبٍ فتغابيتَ عنه أُلزِمْتَهُ

إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومَن شَرِكهم في الآثام

ثم انظر في أمور عُمّالك فاستعملهم اختباراً ولا تولّهم محاباةً وأثرة فإنهم جِماعٌ من شُعَبِ الجور والخيانة

إحذر كل عمل يُعمل به في السرّ ويُستحى منه في العلانية

إن الله فرض على أئمة العدل ان يقدّروا انفسهم بضَعَفَةِ الناس

قلوب الرعية خزائنُ راعيها ، فما أودعه فيها من عدل أو جور وجده فيها

لا تظهر مودّةُ الرعية ولا نصيحتهم إلاّ بقلّة استثقال دُوَلهم

إذا تَغَيَّرَ السلطان تغيّرَ الزمان

إنّ سُخط الخاصة يُغتَفَر مع رضا العامّة

إذا غضب الله على أمّةٍ غلت أسعارُها وغَلَبَها أشرارها

ولكنني آسى أن يليَ هذه الأمّةَ سفهاؤها وفجّارها فيتّخذوا المال دُولاً وعبادَه خَوَلاً (١)

العلماء حكّام الملوك ، والبغي آخر مدة الملوك

العلم دين يدان به

ألأمُ الناسِ مَن سعى بإنسانٍ ضعيف الى سلطان جائر

إنها ساعةٌ – من الليل – لا يدعو فيها عبدٌ إلا استُجيبَ له ، إلاّ أن يكون عشّاراً أو عريفاً أو شرطيّاً (٢)

ثلاثةٌ يؤثرون المال : تاجرُ البحر ، وصاحب السلطان ، والمرتشي في الحكم

إذا كان الراعي ذئباً ، فالشاة من يحفظها ؟!

لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به

---

١ – آسى : أحزن . المال دولا ، جمع دولة « بالضم » أي : شيئاً يتداولونه بينهم ويتصرفون به في غير حق . خولا : عبيدا .

٢ – العشار : من يتولى أخذ الضرائب من الناس . العريف : من يتجسس على أحوال الناس وأسرارهم ويكشفها للحاكم . الشرطة : أعوان الحاكم .

واعلموا أنكم في زمانٍ القائلُ فيه با لحقّ قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل .

الذليل عندي عزيز حتّى آخذ الحق له . والقوي عندي ضعيف حتّى آخذ الحق منه

يأتي على الناس زمانٌ لا يُقَرَّبُ فيه إلا الماحل ، ولا يُظَرَّفُ إلا الفاجر ، ولا يُضعّف إلا المنصف (١)

* * *

١ ــ الماحل : الساعي في الناس بالوشاية عند الحاكم . يُظرَّف : يُعدّ ظريفاً . يُضعّف . يُعدّ ضعيفاً .

طائفة من رسائله

وخطبه وعهوده ووصاياه

عبادة الأحرار

من كلام رائع له في معنى العبادة :

إنّ قوماً عَبَدُوا اللهَ رغبةً فتلك عبادةُ التجار ! وإنّ قوماً عَبدوا اللهَ رهبةً فتلك عبادةُ العبيد ! وإن قوماً عبدو الله شكراً فتلك عبادة الأحرار !

أيها الناس

من خطبة له في المدينة :

الاحتكار مطيةُ النَّصَب ، والحرصُ داعٍ للتقحّم في الذنوب ، والشّرَه جامعٌ لمساوىء العيوب .

أيها الناس ، لا كنزَ أنفعُ من العلم ، ولا عزّ أرفعُ من الحِلم ، ولا سوأةَ أسوأُ من الكذب ، ولا غائبَ أقربُ من الموت !

أيها الناس ، مَن نظر في عيب نفسه شُغِلَ عن عيب غيره ، ومَن سَلّ سيف البغي قُتِل به ، ومن حفر بئراً وقع فيها ، ومن نسي زلـلَه استعظم زللَ غيره ، ومن أُعجب برأيه ضلّ ، ومن استغنى بعقله زلّ ، ومن تكبّر على الناس ذلّ .

في تقلُّب الأحوال علمُ جواهر الرجال ، والأيام توضح السرائر الكامنة ، وكفاك أدباً لنفسك ما تكرهُه من غيرك . ومَن استقبل وجوه الآراء عرف

مواقعَ الخطأ . والمودّة قرابة مستفادة . وعليك لأخيك مثل الذي لك عليه . ولا تُنالُ نعمةٌ إلا بزوال أخرى . ولكل ذي رمقٍ قوت . ولكلّ حبّة آكل ، وأنت قوت الموت .

أيها الناس ، إياكم والخديعةَ فإنّها من خلق اللئام . تصفيةُ العمل أشدُّ من العمل (١) وتخليصُ النيّة من الفساد أشدّ على العاملين من طول الجهاد ، هيهات ! لولا التُّقى لكنتُ أدهى العرب !

عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر(٢) ، وبالعدل على الصديق والعدوّ ، وبالرضا في الشدة والرخاء ، ومَن ترك الشهوات كان حرا ، وإعجاب المرء بنفسه دليل ضعف عقله . وبئس الزادُ إلى المعاد : العُدوانُ على العباد !

يا أبا ذرّ

من كلام للإمام للصحابي العظيم أبي ذر الغفاري لما أخرجه الخليفة الثالث الى « الربذة» وهو موضع قفر على قرب من المدينة ، وبعث من ينادي في الناس : « ألاَ لا يكلّم أحدٌ أبا ذر ولا يشيّعه ! » وقد تحاماه الناس إلاّ ابن أبي طالب ، وعقيلاً أخاه ، والحسن والحسين ولديه ، وعمّاراً :

يا أبا ذرّ ، إنك غضبتَ لله فارجُ مَن غضبتَ له . إن القوم خافوك على

١ ــ تصفية العمل خالصاً لوجه الحق . ٢ ــ القصد الاعتدال .

دنياهم ، وخفتَهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهربْ بما خفتَهم عليه، فما أحوجَهم إلى ما منَعْتَهم(١)، وما أغناك عمّا منعوك ! لو أنّ السموات والأرض كانتا على عبدٍ رتْقاً ثم اتّقى اللهَ لجعلَ اللهُ له منهما مخرجا ! لا يؤنسنّكَ إلاّ الحقُّ ولا يوحشنّكَ إلاّ الباطل ، فلو قبلتَ دنياهم لأحبُّوك ، ولو قرضْتَ منها لأمِنُوك

كلّما اطمأنّ

من كتاب له الى سلمان الفارسي قبل أيام خلافته :

وكن آنسَ ما تكون بها — الدنيا — أحذَرَ ما تكونُ منها ، فإن صاحبها كلّما اطمأنّ فيها إلى سرور أشخصتْه عنه إلى محذور .

السّلام عليك يا رسول الله

من كلام روي أنه قاله عند دفن السيدة فاطمة :

السلامُ عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيّتك صبري ورقّ عنها تجلّدي ،

١ — لو قرضت منها جزءاً وخصصت به نفسك ورضيت أن تنال منها مثل ما نالوا هم ، لاطمأنوا اليك .

إلاّ أنّ لي في التأسّي بعظيم فُرقتِك وفادح مصيبتك موضعَ تَعَزّ(١) .

أمّا حزني فسَرْمَد ، وأمّا ليلي فمُسَهَّد إلى أن يختار اللهُ لي دارك التي أنت بها مقيم .

فضل الناسِ وشرّهم

من كلام له لما اجتمع الناس عليه وشكوا مما نقموه على عثمان بن عفان ، وسألوه أن يخاطب الخليفة الثالث ويستعتبه لهم . فدخل عليه فقال :

إن الناس ورائي ، وقد استسفروني بينك وبينهم (٢) . واللهِ ما أدري ما أقول لك ! ما أعرفُ شيئاً تجهله ولا أدلك على شيء لا تعرفه . إنك لتَعلمُ ما نعلم ، ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلوّنا بشيء فنُبلغَكَه ، وقد رأيتَ كما رأينا وسمعتَ كما سمعنا ... فاللهَ اللهَ في نفسك فإنك واللهِ ما تُبَصَّرُ من عمىً ، وإنّ الطرق لواضحة . فاعلمْ أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِيَ وهَدَى . وإنّ شَرَّ الناس عند الله إمامٌ جائرٌ ضَلّ وضُلّ به . وإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول : « يُؤتى يومَ القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصيرٌ ولا عاذر ، يُلقَى في نار جهنّمَ فيدورُ فيها كما تدور الرحى ، ثم يرتَبِطُ في قعرها ! » وإني أنشُدُك الله أن لا تكون إمام هذه الأمّة المقتول ، فإنه كان يقال : يُقتَل في هذه الأمّة إمامٌ يَفتح عليها القتلَ والقتال إلى يوم القيامة ، ويُلبِسُ أمورَها عليها ،

١ — التأسي ، هنا : الاعتبار بالمثال المتقدم .

٢ — استسفروني : جعلوني سفيرا ووسيطا .

ويُثبِّتُ الفِتَنَ فيها ، فلا يُبصرون الحقَّ من الباطل ، يموجون فيها موجاً ويَمْرَجونَ فيها مَرْجاً(١) ، فلا تكونَنَّ لمروانَ سَيِّقةً (٢) يسوقُك حيث شاء بعد جلال السنّ وتَقَضِّي العمر !

استأثر فأساءَ الأثرة

من كلام له في معنى قتل عثمان :

لو أمرتُ به لكنتُ قاتلا ،أو نهيتُ عنه لكنتُ ناصرا(٣).غير أن من نَصَرَه لا يستطيع أن يقول : خذَلَه مَن أنا خيرٌ منه . ومَن خذَله لا يستطيع أن يقول : نَصَرَه من هو خيرٌ مني(٤) ! وأنا جامعٌ لكم أمرَه : استأثر فأساء

١ – المرج : الخلط والتلبيس .

٢ – السيّقة : ما استاقه العدوّ من الدواب . أما مروان ، فهو ابن الحكيم الشهير ، وكان في عهد عثمان كاتباً له ومشيراً ، وهو صاحب العلل التي نقم الناس من أجلها على الخليفة الثالث .

٣ – يقول انه لم يأمر بقتل عثمان وإلاّ كان قاتلاً له ، مع أنه بريء من قتله . ولم يدافع عنه بسيفه ولم يقاتل دونه وإلا كان ناصراً له . أما نهيه عن قتله بلسانه فهو ثابت ، وهو الذي أمر ولديه الحسن والحسين أن يدفعا الناس عنه .

٤ – أي ان الذين نصروه ليسوا بأفضل من الذين خذلوه ، لهذا لا يستطيع ناصره أن يقول : اني خير من الذي خذله . ولا يستطيع خاذله أن يقول : ان الناصر خير مني . يريد ان القلوب متفقة على أن ناصريه لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون به على خاذليه .

الأثرَة (١) ، وجزعتم فأسأتم الجزع (٢) ! ولله حكمٌ واقعٌ في المستأثر والجازع (٣) !

أنا كأحدكم

من خطبة رائعة له لمّا أريد على البيعة بعد قتل عثمان :

دعوني والتمسوا غيري فإنّا مُستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبُتُ عليه العقول (٤) وإن الآفاق قد أغامت والمحجّة قد تنكّرتْ (٥) ، واعلموا إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلَمُ ، ولم أصغَ إلى

١ ــ استأثر بالشيء : استبدّ به وخصّ نفسه به . أي : انه استبد فأساء الاستبداد وكان عليه أن يخفف منه فلا يؤذيكم .

٢ ــ أي : لم ترفقوا في جزعكم ولم تقفوا عند الحد الأولى بكم . وكان عليكم أن تقتصروا على الشكوى ولا تذهبوا في الإساءة الى درجة القتل .

٣ ــ أي : ولله حكمه في المستأثر وهو عثمان . وفي الجازع وهو أنتم .

٤ ــ لا تصبر له ولا تطيق احتماله .

٥ ــ أغامت : غطيت بالغيم . المحجة : الطريق . تنكرت : تغيّرت علائمها فصارت مجهولة ، وذلك أن الأطماع كانت قد تنبهت في كثير من الناس على عهد الخليفة الثالث بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء ، فلا يسهل عليهم فيما بعد أن يكونوا في مساواة مع غيرهم ، فلو تناولهم العدل انفلتوا منه وطلبوا الفتنة طمعاً في نيل رغباتهم ، وأولئك هم أغلب الرؤساء والوجهاء في القوم ، فإن أقرّهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز فقد أتى ظلماً ، وهو عدوّ الظلم . والناقمون على عثمان قائمون على المطالبة بالعدل : إن لم ينالوه تحرّشوا للفتنة ! فأين الطريق للوصول الى الحق على أمنٍ من الفتن ؟! وقد كان بعد بيعته ما توقّع حدوثه قبلها .

قول القائل وعتب العاتب. وإنْ تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعُكم وأطوعُكم لِمَن ولّيتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني أميراً !

الحقّ لا يبطله شيءٌ

من خطبة رائعة له خطب بها الناس ثاني يوم من بيعته بالمدينة ، وهي في ما ردّه على الناس من قطائع (١) الخليفة الثالث ، وفي المال الذي كان عثمان قد أعطاه من مال العامة :

أيها الناس . إنّما أنا رجل منكم ، لي ما لكم وعليَّ ما عليكم . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مالٍ أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال فإنّ الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدتُه قد تُزُوِّجَ به النساء ومُلِكَ الإماء وفُرِّق في البلدان لَرَددتُه . فإنّ في العدل سَعَة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيَق (٢)

أيها الناس ، ألاَ يقولَنّ رجالٌ منكم غداً قد غَمَرَتْهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيل واتّخذوا الوصائف المرقّقة ، إذا ما منعتهُم ما كانو يخوضون فيه وأصَرْتُهم إلى حقوقهم التي يعلمون : حَرَمَنا ابنُ أبي طالب حقوقنا ! ألاَ وأيّما رجلٍ من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقسّم بينكم بالسويّة ولا فضلَ فيه لأحد على أحد !

....

١ ـ ما أعاد للناس من الأراضي .

٢ ـ من عجز عن تدبير أمره بالعدل فهو بالجور أشدّ عجزاً .

أسفلكم أعلاكم

من كلام له لما بويع بالمدينة :

ألاّ وإنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يومَ بعثَ الله نبيّكم صلى الله عليه وسلّم(١). والذي بعثه بالحق لتُغَرْبَلُنَّ غربلةً ولتُساطُنَّ سوطَ القِدْر(٢) حتى يعود أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، ولَيَسْبِقَنَّ سابقون كانوا قد قصّروا، ولَيُقَصِّرَنَّ سبّاقون كانوا قد سبقوا. والله ما كتمتُ وشْمةً(٣) ولا كَذَبتُ كذبة ! ألاّ وإنّ الخطايا خيلٌ شُمُسٌ(٤) حُمِل عليها أهلُها وخُلِعتْ لُجُمُها فتقحّمت بهم في النار ! ألاّ وإنّ التقوى مطايا ذُلُلٌ حُمل عليها أهلها وأُعطوا أزمّتَها فأوردتهم الجنّة. حقٌّ وباطل ؛ ولكلٍّ أهل !

هَلَكَ مَن ادّعى وخاب مَن افترى ومن أبدى صفحته للحقّ هلك(٥). وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. فاستتروا في بيوتكم وأصلحوا ذات بَينكم ؛ والتوبةُ مِن ورائكم ولا يَحمدُ حامدٌ إلاّ ربّه ، ولا يلمْ لائمٌ إلاّ نفسه !

---

١ ـ ان بلية العرب التي كانت محيطة بهم يوم بُعث محمد هي بلية الفرقة والتباعد والعصبية وظلم القوي للضعيف والغني للفقير. فتلك الحالة التي هي مهلكة للأمم قد صاروا اليها بعد مقتل عثمان.

٢ ـ لتغربلنّ : لتقطعنّ من . ساط ، من السوط ؛ وهو أن تجعل شيئين في القدر وتضربهما بيدك حتى يختلطا وينقلب أعلاهما أسفلهما وأسفلهما أعلاهما.

٣ ـ الوشمة : الكلمة.

٤ ـ شمس ، جمع شموس ، وهو الجامح الذي يمنع ظهرَه أن يُركب.

٥ ـ من أبدى صفحته للحق ، أي : من كاشف الحق مخاصماً له مصارحاً له بالعداوة.

عفا الله عما سلف

من خطبة له خطبها بعد مقتل عثمان في أول خلافته :

أيها الناس ، إن الدنيا تغرُّ المؤمِّل لها والمُخْلِدَ إليها (١) ، ولا تَنْفَسُ (٢) بمن نافَسَ فيها ، وتغلِبُ مَن غَلَبَ عليها . وأيمُ اللهِ ، ما كان قومٌ قطُّ في غَضّ نعمةٍ من عيشٍ فزال عنهم إلاّ بذنوبٍ اجترحوها ، لأن الله ليس « بظلاّم للعبيد » . ولو أن الناس حين تنزِلُ بهم النِّقَمُ وتزولُ عنهم النِّعَمُ ، فزِعوا إلى ربِّهم بصدقٍ مِن نيّاتهم ووَلَهٍ من قلوبهم ، لَرَدَّ عليهم كلَّ شاردٍ وأصلحَ لهم كلَّ فاسد . وإني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة (٣) . وقد كانت أمورٌ مضتْ مِلتُم فيها ميْلةً ، كنتم فيها عندي غيرَ محمودين ، ولئن رُدَّ عليكم أمرُكُم إنكم لسعداء . وما عليَّ إلا الجُهد ، ولو أشاء أن أقول لقلتُ : عفا اللهُ عمّا سلَفَ !

الرّشوة

من كتاب له الى أمراء الأجناد لمـــــا استخلف :

أما بعد ، فإنما أهلَكَ مَن كان قَبْلَكم أنهم مَنعوا الناسَ الحقَّ

١ ـ المخلد اليها : الراكن اليها .

٢ ـ تَنْفَس ، مضارع نَفِسَ : تضنّ . ومعنى العبارة : ان الدنيا لا تضن بمن يباري غيره في اقتنائها وعدّها من نفائسه ، ولا تحرص عليه بل تهلكه .

٣ ـ الفترة ، هنا ، كناية عن الجهل والغرور .

فاشتروه (١) وأخذوهم بالباطل فاقتدوه (٢) .

إن لم تستقيموا

من كتاب له إلى أمرائه على الثغور :

أما بعد ، فإنّ حقّاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيته فضلٌ ناله ولا طَوْلٌ خُصّ به (٣) وأن يزيده ما قسَمَ الله له من نِعَمِه دنوّاً من عِبادِه وعطفاً على إخوانه .

ألاَ وإنّ لكم عندي أنْ لا أؤخّر لكم حقاً عن محلّه ، وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء . فإذا فعلتُ ذلك وجبتْ لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة، وأن لا تَنكُصُوا عن دعوة (٤) ولا تفرّطوا في صلاح، وأن تخوضوا الغَمَرَات إلى الحق (٥) ، فإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحدٌ أهون عليّ ممّن اعوجّ منكم ، ثم أُعْظِمُ له العقوبة ولا يجد عندي فيها رُخصة !

---

١ ـ أي : حجبوا عن الناس حقّهم فاضطرّ الناس لشراء الحق منهم بالرشوة ...

٢ ـ أي كلفوهم بإتيان الباطل فأتوه ، وصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء .

٣ ـ الطول : عظيم الفضل . أي : من الواجب على الوالي إذا خُص بفضل أن يزيده ذلك قرباً من الناس إخوانه وعطفاً عليهم ، وليس من حقه أن يتغيّر .

٤ ـ أي : ان لا تتأخروا إذا دعوتكم .

٥ ـ الغمرات : الشدائد .

أنصفوا الناس

من كتاب له إلى عمّاله على الخراج :

أنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم فإنكم خزّان الرعيّة(١) ووكلاء الأمة . ولا تبيعُنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعتملون عليها (٢) . ولا تضربُنّ أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسّنّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهَد (٣) .

أأطلب النصر بالجور

من كلام له لما عوتب على التسوية في العطاء :

أتأمروني أن أطلب النصرَ بالجور في مَن وُلّيتُ عليه ؟ والله ما أطُورُ به ما سَمَرَ سميرٌ وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً (٤) . لو كان المال لي لسوّيتُ

---

١ ــ المقصود هو أن الولاة يجب أن يخزنوا أموال الرعية في بيت المال لتنفق في مصالح الرعية وحاجاتها .

٢ ــ يقول : لا تضطروا الناس لأن يبيعوا لأجل أداء الخراج شيئاً من كسوتهم ، ولا من الدواب اللازمة لأعمالهم في الزرع والحمل .

٣ ــ المعاهد : غير المسلم من أهل الكتاب . يقول : لا تلجأوا الى السوط تحصيلاً للمال . ولا تمسّوا مال أحد من المسلمين أو أهل الكتاب بالمصادرة .

٤ ــ ما أطور به : ما آمر به ولا أقاربه . وما سمر سمير ، أي : مدى الدهر .

بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ! ألاَ وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذيرٌ وإسراف .

النّاس متساوون في الحقّ

من كلام له كلّم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة وقد عتبا من ترك مشورتهما ، والاستعانة في الأمور بهما :

لقد نقمتُما يسيراً وأرجأتما كثيراً (١) . ألا تخبراني أيٌّ شيء لكما فيه حقٌّ دفعتُكما عنه ؟ وأيُّ قسمٍ استأثرتُ عليكما به ؟ أم أيّ حقّ رفعه إليّ أحدٌ من المسلمين ضعُفتُ عنه أم جهلتُه أم أخطأتُ بابه ؟!

والله ما كانت لي في الخلافة رغبةٌ ولا في الولاية إربة (٢) . ولكنكم دعوتموني إليها ، فلما أفضت إليّ نظرتُ إلى كتاب الله ، فلم أحتجْ في في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما ، ولا وقع حكمٌ جهلتُه فأستشيرُكما وإخواني المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما .

أمّا ما ذكرتما من أمر الأسوة (٣) ، فإن ذلك أمرٌ لم أحكم أنا فيه برأيي ولا ولّيتُه هوًى مني ، بل وجدتُ أنا وأنتما ما جاء به رسول الله (ص) قد فُرغ منه فلم أحتج إليكما في ما قد فرّغَ اللهُ من قسْمه . أخذَ الله بقلوبنا

---

١ ـ أي غضبتما ليسير ، وأخرتما مما يرضيكما كثيراً لم تنظرا اليه .

٢ ـ الإربة : الغرض ، والطلبة .

٣ ـ الأسوة ، هنا : التسوية بين الناس في قسمة الأموال ، وكان ذلك قد أغضب طلحة والزبير على ما رُوي .

وقلوبكم إلى الحق ، وألهمنا وإياكم الصبر . ورحم الله امرأً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فردَّه ، وكان عوناً بالحق على صاحبه !

الى أصحاب الجمل

من كتاب له بعث به إلى طلحة والزبير
وعائشة قبل موقعة الجمل :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى طلحة والزبير وعائشة ، سلام عليكم .

أما بعد ، يا طلحة والزبير ، فقد علمتما أني لم أرد البيعةَ حتى أُكرِهتُ عليها ، وأنتما ممن رضي ببيعتي . فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا إلى الله وارجعا عمّا أنتما عليه . وإن كنتما بايعتما مكرهين فقد جعلتما لي السبيلَ عليكما ، بإظهاركما الطاعة وكتمانكما المعصية .

وأنت يا طلحة ، شيخ المهاجرين ، وأنت يا زبير ، فارسَ قريش ، دفعُكما هذا الأمرَ قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه قبل إقراركما .

وأنت يا عائشة ، فإنك خرجتِ من بيتك عاصية لله ولرسوله تطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ، وتزعمين انك تريدين الإصلاح بين الناس ! فخبّريني ما للنساء وقَود الجيوش ، والبروز للرجال ! وطلبتِ ، على زعمك ، دمَ عثمان ، وعثمانُ من بني أمية وأنت من تَيم . ثم أنت بالأمس تقولين في ملأ من أصحاب رسول الله : « اقتلوا نَعْثَلاً ، قَتَلَه الله ، فقد كفر ! » ثم تطالبين اليوم بدمه ! فاتّقي الله وارجعي الى بيتك ، واسبلي عليك سترك والسلام .

أُخرجْ منْ جُحرِكَ

من كتاب له إلى أبي موسى الأشعري ، وهو عامله على الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس على الخروج اليه لما نَدَبَهم لحرب أصحاب الجمل :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغني عنك قولٌ هو لك وعليك . فإذا قدمَ رسولي عليك فارفع ذيلَكَ واشدُدْ مئزرك واخرج من جُحْرِكَ واندُبْ مَـــن معك (١) .

إعقِلْ عَقْلَكَ (٢) واملِكْ أمرك وخذ نصيبك وحظك . فإنْ كرهتَ فتَنَحَّ إلى غير رَحْبٍ ولا في نجاة !

والله إنه لحقٌّ مع مُحقّ ، وما أبالي ما صنع الملحدون !

قيام الحجة

من كلام له كلّم به بعض العرب — واسمه كُلَيب الجَرْمي — وقد أرسله قومٌ من أهل البصرة ليعلم لهم من الإمام حقيقة حاله مع

١ — رفع الذيل وشد المئزر : كناية عن التشمير للجهاد . الجحر ، هنا : كناية عن المقر . اندب : ادعُ .

٢ — قيده بالعزيمة ولا تدعه يذهب مذاهب التردّد .

أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم .
فبيّن له الإمام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق ، ثم قال له : بايع ! فقال الرجل : إني رسول قوم ولا أحدث حدثاً حتّى أرجع اليهم . فقال الإمام هذا القول الرائع :

أرأيتَ لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغي لهم مساقطَ الغيثِ (١) فرجعتَ إليهم وأخبرتَهم عن الكلإ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب (٢) ، ما كنتَ صانعاً ؟

قال الرجل : كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلإ والماء . فقال الإمام : فامدُدْ إذاً يدَك !

فقال الرجل : فواللهِ ما استطعتُ أن أمتنع عند قيام الحجّة عليّ ، فبايعتُه عليه السلام !

وقيل للإمام ذات مرة : بأي شيء غلبتَ الأقران ؟ فأجاب :
ما لقيتُ رجلاً إلا أعانني على نفسه !

أرادَ أنْ يغالط

من كلامه الزاخر بالمنطق في طلحة وموقفه من قضية عثمان ، قبل مقتله وبعده :

قد كنتُ وما أُهدَّدُ بالحرب ولا أُرهَبُ بالضرب . واللهِ ما استعجلَ

١ — مساقط الغيث : المواضع التي يسقط فيها المطر فتخضرّ وتزدهر .
٢ — المعاطش ، جمع مَعطش ، وهو : مكان العطش ، أي الذي لا ماء فيه . والمجادب ، جمع مَجدَب ، وهو مكان الجدب ، أي القحط والمحل .

متجرّداً(١) للطلب بدم عثمان إلاّ خوفاً من أن يطالَب بدمه لأنه مظنّته، ولم يكن في القوم أحرصَ عليه منه (٢) فأراد أن يغالط بما أجلبَ ليُلبِس الأمر (٣) ويقع الشك ! ووالله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث :

لئن كان ابنُ عفّان ظالماً ، كما كان يزعم ، لقد كان ينبغي له أن يؤازر قاتليه أو أن ينابذ ناصريه . ولئن كان مظلوماً لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنِهين عنه (٤) والمُعذِرين فيه (٥) . ولئن كان في شك من الخصلتين لقد كان ينبغي له أن يعتزله ويركُد جانباً (٦) ويدَعَ الناس معه. فما فعَل واحدة من الثلاث ، وجاء بأمرٍ لم يُعرفْ بابه ولم تسلَمْ معاذيره !

وإنّي لصاحبهم

••

قال عبد الله بن العباس : دخلت على أمير المؤمنين (ع) بذي قار(١) وهو يخصِف نعله (٢) فقال لي : ما قيمة هذه النعل ؟ فقلت : لا قيمة لها . فقال عليه السلام: واللهِ

١ ـ كأنه سيف تجرد من غمده .
٢ ـ أحرص عليه ، أي على دم عثمان ، بمعنى سفكهِ .
٣ ـ يلبس الأمر : يجعله مُلْبَساً ، أي : مشتَبهاً .
٤ ـ نهنهه عن الأمر : كفّه وزجره عن إتيانه .
٥ ـ المعذرين فيه : المعتذرين عنه في ما نقم منه .
٦ ـ يسكن في جانب عن القاتلين والناصرين .
٧ ـ بلد بين واسط والكوفة ، وهو قريب من البصرة .
٨ ـ يخرزها .

لهي أحبّ إليّ مِن إمْرتِكم إلا أن أُقيمَ حقّاً أو أدفع باطلاً . ثم خرج فخطب الناس فقال (وذلك عند خروجه لقتال أهل البصرة في وقعة الجمل) :

ما ضَعَفتُ ولا جَبُنْتُ ، وإن مسيري هذا لِمِثْلِها (١) ، فَلأنقُبَنَّ الباطل حتى يخرجَ الحقُّ مِن جنبه (٢) . ما لي ولقُرَيش ! والله لقد قاتلتُهم كافرين ولأقاتِلَنَّهم مفتونين ، وإني لَصَاحِبُهم بالأمس كما أنا صاحبُهم اليوم !

إلامَ أُجيب ؟

من كلام له في أصاب الجمل :

ألاَ وإنّ الشيطان قد ذَمّرَ حزبَه واستجلبَ جِلْبَه (٣) ليعود الجورُ

١ – ضمير « لمثلها » يعود إلى المعارك التي خاضها الإمام ضد قريش في حروب الإسلام ضد المشركين ، وقد أشار اليها في كلام سابق لهذا الكلام . والمعنى : أنه يسير اليومَ الجهاد في سبيل الحقّ كما سار قديماً .

٢ – الباطل يبادر البصيرة فيشغلها عن الحق ويقوم حجاباً مانعاً لها عنه ، فكأنه شيء اشتمل على الحق فستره . والكلام تمثيل رائع لحال الباطل مع الحق ، وحال الإمام في كشف الباطل وإظهار الحق .

٣ – ذمر : حث . الجلب : ما يجلب من بلد الى بلد .

إلى أوطانه ويرجعَ الباطلُ إلى نِصابه (١) ! والله ما أنكروا عليّ مُنْكَراً ولا جعلوا بيني وبينهم نِصْفاً (٢) . وإنهم لَيَطلبون حقّاً هم تركوه ودماً هم سفكوه . فإن كنتُ شريكَهم فيه فإنّ لهم لَنَصيبَهم فيه ، ولئن كانوا وُلّوه دوني فما التَّبِعةُ إلاّ عندهم ، وإنّ أعظمَ حجتّهم لعلى أنفُسِهم !

يا خيبةَ الداعي ! مَن دعا ؟ وإلامَ أُجيب ؟ (٣) وإني لراضٍ بحُجّة الله عليهم وعلمِه فيهم ، فإن أبَوا أعطيتُهم حدَّ السيف وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق ! ومِنَ العَجَب بَعْثُهم إليّ أن أبرُز للطّعان وأن أصبرَ للجِلاد ! هَبِلَتْهم الهَبُول (٤) لقد كنتُ وما أُهدَّد بالحرب ولا أُرهَبُ بالضرب ، وإني على يقين من ربّي وغيرِ شُبْهةٍ من ديني .

١ — النصاب : الأصل ، أو المنبت وأول كل شيء . وفي كلامه هذا إشارة صريحة الى رغبة من يعنيهم في إعادة الأثرة والظلم واقتناص المغانم إلى ادارة الدولة كما كانت في عهد بطانة الخليفة الثالث ، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بتأليب الناس على الخليفة الجديد ، وهو الإمام ، الذي لا يطمعون في أيامه بأن يعود اليهم ما ألفوه في السابق من حرية التصرف بأموال الدولة وأحوال الناس .

٢ — النصف : العدل . أي : لم يحكموا العدل بيني وبينهم .

٣ — من : استفهامية . وما (في إلام) استفهامية أيضاً وقد حذفت منها الألف لدخول « إلى » عليها . ويقصد بالداعي أحد قادة خصومه في موقعة الجمل إذ دعا الإمام إلى أن يبرز للطعان وكأنه يهدده بالحرب ونتائجها . وقوله « من دعا ؟ » استفهام عن الداعي ودعوته ، استهانةً بهما .

٤ — هبلتهم : ثكلتهم . والهَبول : المرأة التي لا يبقى لها ولد . وهو دعاء عليهم بالهلاك لعدم معرفتهم بأقدار أنفسهم .. أبالحرب يُهدَّد ابن أبي طالب ؟!

في لجّة بحر

من كلام له في ذمّ أهل البصرة بعد موقعة الجمل :

كنتم جندَ المرأة وأتباعَ البهيمة (١) : رَغَا فأجبتم ، وعُقر فهربتم . أخلاقُكم دِقاقٌ وعهدُكم شِقاق ودينكم نفاق وماؤكم زُعاق (٢) ، والمقيمُ بين أظهُرِكم مرتَهَنٌ بذَنْبه ، والشاخصُ عنكم مُتَدارَكٌ برحمة من ربّه . وايمُ اللهِ لتَغرقَنّ بلدتُكم حتى كأني أنظرُ إلىٰ مسجدِها كجُؤجؤِ طيرٍ في لجّة بحر (٣) .

قتلوهم صبراً وغدراً

من خطبة له في ذكر أصحاب الجمل :

فخرجوا يجرّون حُرمة رسول الله (٤) صلى الله عليه وآله ، متوجّهين بها إلى البصرة : فحبسوا نساءهم في بيوتهم وأبرزوا حبيسَ رسول الله (ص) لهم ولغيرهم في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلاّ وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبَيعة طائعاً غير مُكْرَه ، فقدِموا على عامِلي بها وخُزّان بيت مال المسلمين وغيرِهم من أهلها : فقتلوا طائفةً صبراً (٥) وطائفةً غدرا ! فواللهِ لو لم يُصيبوا من

---

١ ــ يريد الجمل .

٢ ــ دقة الأخلاق : دناءتها . زعاق : مالح .

٣ ــ الجؤجؤ : الصدر .

٤ ــ حرمة رسول الله كناية عن زوجته ، وأراد بها السيدة عائشة .

٥ ــ القتل صبرا : أن تحبس الشخص ثم ترميه حتى يموت .

المسلمين إلاّ رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جُرم جرَّه ، لَحَلَّ لي قَتْل ذلك الجيش كلّه !

الدين قاتلوه

من كلام له في معنى وقعة الجمل :

بُليتُ في حرب الجمل بأشدّ الخلق شجاعةً ، وأكثر الخلق ثروةً وبذلاً ، وأعظمِ الخلقِ في الخلق طاعةً ، وأوفى الخلق كيداً وتكثُراً : بُليتُ بالزُّبير لم يردّ وجهه قط . وبيعلى بن منيّة يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كلّ رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أن يقاتلني . وبعائشة ما قالت قط بيدها هكذا إلا واتّبعها الناس . وبطلحة لا يُدرَك غَورُه ولا يُطال مَكرُه !

بُكمٌ ذوو كلام

من خطبة له في تقريع أصحابه بالكوفة :

ولئِن أمهلَ الظالمَ فلن يفوتَ أخذُهُ وهو له بالمرصاد على مَجاز طريقه . أمَا والذي نفسي بيده ليَظهرَنّ هؤلاء القومُ عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم ، ولكنّ لإسراعهم إلى باطلِ صاحبهم وإبطائكم عن حقي . ولقد أصبحت الأممُ تخاف ظلْمَ رُعاتها ، وأصبحتُ أخاف ظلمَ رعيّتي : استنفرتُكم للجهاد فلم تنفِروا ، وأسمعتُكم فلم تسمعوا ، ودعوتُكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحتُ لكم فلم تقبلوا . أشهودٌ كغُيَّابٍ (١)

---

١ — شهود ، جمع شاهد وهو الحاضر .

وعبيدٌ كأرباب ؟ ! أتلو عليكم الحِكَمَ فتنفِرون منها ، وأَعِظُكم بالموعظة فتتفرقون عنها ، وأحثُّكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر القول حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبا ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم .

أيها الشاهدةُ أبدانُهم الغائبةُ عقولُهم المختلفةُ أهواؤهم المبتَلَى بهم أمراؤهم ، صاحبُكم يطيعُ الله وأنتم تعصُونه ، وصاحبُ أهلِ الشام يعصي الله وهم يطيعونه ! لَوَدِدْتُ والله أن معاويةَ صارَفَني بكم صَرْفَ الدينار بالدرهمَ ، فأخذ مني عشرةً منكم وأعطاني رجلاً منهم .

يا أهلَ الكوفة ، مُنِيتُ منكم بثلاثٍ واثنتين : صُمٌّ ذوو أسماع ، وبُكمٌ ذوو كلام، وعُميٌ ذوو أبصار ، لا أحرارُ صدقٍ عند اللقاء ولا ولا إخوانُ ثقةٍ عند البلاء !

لا تنتقم من عدو

من كتاب له الى عبد الله بن عباس عامله على البصرة ، وكان عباس قد اشتدّ على بني تميم لأنهم كانوا مع طلحة والزبير يوم الجمل ، فأقصى كثيراً منهم ، فعظُمَ ذلك على الإمام عليّ الذي يأبى قلبه الكبير الانتقام ، فكتب الى عباس يردعه ويؤنبه ويقرر حقيقة نتجاهلها اليوم .. وهي أن رأس الدولة مسؤول هو أيضاً عن أعمال موظفيه الذين ولاّهم أمور الناس .. قال :

حادِثْ أهلَها بالإحسان إليهم واحلُلْ عَقدة الخوف عن قلوبهم !

وقد بلغني تَنَمُّرُك لبني تميم (١) وغِلْظَتُك عليهم ، فاربَعْ (٢) أبا العباس ، رحمك الله ، في ما جرى على لسانك ويدك من خيرٍ وشرّ ، فإنّا شريكان في ذلك ، وكن عند صالح ظنّي بك ، ولا يَفيلَنّ (٣) رأيي فيك !

النّساء

من خطبة له بعد حرب الجمل في ذم النساء :

فاتّقوا شِرار النساء وكونوا من خيارِهنّ على حَذَر . ولا تطيعوهنّ في المعروف حتّى لا يطمعن في المنكَر !

أربابُ سُوء

من خطبة له في التحذير من بني أمية :

ألاَ إنّ أخْوَفَ الفِتَن عندي عليكم فتنةُ بني أميّة ، فإنّها فتنة عمياء مظلمة . وايمُ الله لَتَجِدُنّ بني أمية لكم أربابَ سُوء بعدي كالنّاب

---

١ ـ تنمّرك : تنكر أخلاقك .

٢ ـ اربع : ارفق وقف عند حدّ ما تعرف . يريد الإمام أمره بالتثبُّت في جميع ما يعتمده فعلاً وقولاً من خير وشر وألا يعجل به لأنه شريكه به ، فإنه عامله ونائب عنه .

٣ ـ فال رأيه : ضعف .

الضروس (١) : تَعْذِمُ بفيها وتخبِطُ بيدها وتَزْبِنُ برِجلها (٢) وتمنع درَّها ، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلاّ نافعاً لهم . ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكونَ انتصارُ أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربّه والصاحبِ من مستصحبِه (٣) تردُ عليكم فتنتُهم شوهاءَ مخشيّة (٤) وقِطَعاً جاهلية !

لا مَدَرَ ولا وَبَرَ

من كلام له في بني أمية :

والله لا يزالون حتى لا يَدَعوا لله محرّماً إلا استحلّوه ، ولا عَقْداً إلاّ حلّوه ، وحتى لا يبقى بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلاّ دخَلَهُ ظُلْمُهم (٥) وحتى يقومَ الباكيان يبكيان : باكٍ يبكي لدينه وباكٍ يبكي لدنياه ، وحتى تكونَ نُصرةُ أحدِكم من أحدهم كنُصرة العبد من سيده ، إذا شَهِدَ أطاعه ، وإذا غاب اغتابه !

---

١ – الناب : الناقة المسنّة . الضروس : السيئة الخلق تعضّ حالبها .

٢ – تعذم : تأكل بجفاء وتعض . تزبن : تضرب .

٣ – التابع من متبوعه ، أي : انتصار الأذلاّء ، وما هو بانتصار .

٤ – شوهاء : قبيحة المنظر . مخشيّة : مرعبة .

٥ – بيوت المدر : المبنية من طين . وبيوت الوبر : الخيام .

رَحبُ البُلعوم

من كلام له لأصحابه :

أمَا إنه سيظهرُ عليكم بَعدي رجلٌ رحبُ البُلعوم مندحقُ البطن (١) يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد ! ألاَ وإنه سيأمرُكم بسَبّي والبراءة مني . أمّا السبّ فسُبّوني ، فإنه لي زكاة ولكم نجاة . وأمّا البراءة فلا تتبرّأوا مني ، فإني وُلدتُ على الفطرة وسبقتُ إلى الايمان والهجرة !

نَهَمُ الأثرياء

من كتاب له الى معاوية ، وفيه نظرة الإمام الصائبة الى أصحاب الثراء الذين لا يزيدهم المال إلا نَهماً وحرصاً على الاستزادة منه :

أمّا بعد ، فإنّ الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها ، ولم يُصِبْ صاحبُها منها شيئاً إلا فَتَحَتْ له حِرصاً عليها ولَهجاً بها (٢) . ولن يستغني صاحبُها بما نال فيها عما لم يبلغْه منها . ومِن وراء ذلك فراقُ ما جَمَع ونَقْضُ ما أبرم . ولو اعتبرتَ بما مضى حفظتَ ما بقي ، والسلام .

١ ـ مندحق البطن : عظيم البطن بارزه كأنه لعظمه مندلق من بدنه يكاد يبين عنه . والواضح أن المقصود بهذا الكلام هو معاوية .

٢ ـ لهجاً : ولوعاً وشدّة حرص .

مَعَ الحقّ

كتب معـاوية إلى الإمام علي يطلب اليه أن يترك له الشام ، فكتب اليه الإمام جواباً جاء فيه :

فأمّا طلبُك إليّ الشامَ ، فإني لم أكن لأُعطيَك اليومَ ما منعتُك أمس وأمّا قولك « إن الحرب قد أكلتِ العربَ إلاّ حُشاشاتِ أنفُسٍ بقيتْ » ألا ومَن أكَلَه الحقُّ فإلى الجنَّة ، ومن أكَلَه الباطلُ فإلى النار . وأمّا استواؤنا في الحرب والرجال فلستُ بأمضَى على الشك منّي على اليقين !

ناقل التمر إلى هجر

من كتاب له الى معاوية أيضاً جواباً :

أمّا بعدُ ، فقد أتاني كتابُك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً صلى الله عليه لدينهِ ، وتأييدَه إياه بمَن أيَّدَه مِن أصحابه ، فلقد خبّأَ لنا الدهر منك عَجَبًا إذ طفِقْتَ تُخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمتهِ علينا في نبيّنا ، فكنتَ في ذلك كناقلِ التمر إلى هجَر أو داعي مُسدِّدِه إلى النضال (١) .

١ — هجر : مدينة في البحرين كثيرة النخيل . المسدّد : معلم رمي السهام . النضال : المراماة . يقول : كنت في ذلك كمن ينقل التمر إلى مصدره ويدعو معلمه في الرمي الى المناضلة ، وهما مثلان لناقل الشيء الى معدنه والمتعالم على معلّمه .

ثم ذكرت ما كان من أمري وأمرِ عثمان ، فلَكَ أن تُجابَ عن هذه لِرَحِمِكَ منه (١) فأيُّنا كان أعدى له وأهدى إلى مَقَاتِلِه (٢) : أمَنْ بذَلَ له نُصْرَتَه فاستقعدَهُ واستكفَّه (٣) ؟ أم من استنصرَه فتراخى عنه وبثَّ المَنُونَ إليه (٤) حتى أتى قَدَرُه عليه ؟

وما كنتُ لأعتذرَ مِن أنّي كنتُ أنقِمُ عليه أحداثاً (٥) ، فإن كان الذنبُ إليه إرشادي وهدايتي له ، فرُبَّ ملومٍ لا ذنب له .

اتّقِ الله

من كتاب له الى معاوية ايضاً :

فاتّقِ الله في ما لديك ، وانظرْ في حقّه عليك ، وارجع إلى معرفةِ ما لا تُعذَر بجهالته . وإن نفسك قد أولجتْك شراً وأقحمتْك غيّاً (٦) وأوردتْك المهالك وأوعرتْ عليك المسالك .

١ — أي لقرابتك منه يصح الجدال معك في أمره .

٢ — أعدى : أشد عدوانا . المقاتل : وجوه القتل .

٣ — استقعده واستكفه : طلب اليه أن يقعد عن نصرته وأن يكفَّ عن مساعدته . والذي بذل النصرة هو الإمام . والذي استقعد الإمام واستكفّه هو عثمان .

٤ — المعنى هو أن عثمان استنصر بعشيرته من بني أمية كمعاوية ، فخذلوه وخلّوا بينه وبين الموت فكأنهم أفضوا بالموت إليه .

٥ — نقم عليه : عاب عليه . الأحداث : جمع حدَث ، وهو هنا البدعة .

٦ — أولجتك : أدخلتك . أقحمتك غياً : رمت بك في الضلال .

أرديتَ جيلاً من النّاس

من كتاب له الى معاوية أيضاً :

وأرديتَ جيلاً من الناس كثيراً : خدعتَهم بِغَيِّك وألقيتَهم في موجِ بحرِك تَغْشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشُبُهات ، فجازوا عن وِجْهتِهم (١) ونكصوا على أعقابهم (٢) وتولّوا على أدبارِهم وعوّلوا على أحسابهم إلاّ مَن فاءَ من أهل البصائر (٣) .

خِدعة الصّبيّ

ومن كتاب له الى معاوية جواباً :

وذكرتَ أني قتلت طلحةَ والزبيرَ وشرّدتُ بعائشة ونزّلتُ المصرَيْن (٤) وذلك أمرٌ غِبتَ عنه فلا عليك ، ولا العذرُ فيه إليك .

وقد أكثرتَ في قَتَلَةِ عثمان فادخل في ما دخل فيه الناس (٥) ثم حاكِمِ

١ ــ جازوا عن وجهتهم : بعدوا عن جهة قصدهم ، أي كانوا يقصدون حقاً فمالوا إلى باطل .
٢ ــ نكصوا : رجعوا .
٣ ــ عولوا : اعتمدوا . أي : اعتمدوا على شرف قبائلهم فتعصبوا تعصّب الجاهلية ونبذوا نصرة الحق . فاء : رجع (إلى الحق) .
٤ ــ شرد به : طرده وفرّق أمره . المصران : الكوفة والبصرة .
٥ ــ ما دخل فيه الناس هو : البيعة .

القوم إليّ أحملك وإياهم على كتاب الله تعالى . وأمّا تلك التي تريد (١) فإنها خُدْعة الصبيّ عن اللبن (٢) .

سبحان الله يا معاوية

من كتاب له الى معاوية أيضاً :

فسبحانَ الله ! ما أشدّ لزومك للأهواء المبتَدَعة ، مع تضييع الحقائق . فأمّا إكثارُك الحِجاجَ في عثمان وقَتَلَته (٣) ، فإنك إنما نَصرتَ عثمان حيث كان النصرُ لك ، وخذلتَه حيث كان النصر له (٤) والسلام ؟

يغدر ويفجر

من كلام له في مسلكه ومسلك معاوية :

والله ما معاويةُ بأدهى مني ، ولكنه يغدِرُ ويفجُرُ . ولولا كراهيةُ الغدر لكنتُ من أدهى الناس !

١ ـ تلك التي تريد : ولاية الشام . وكان الإمام يأبى أن يبقي معاوية في هذه الولاية .
٢ ـ خدعة يصرف بها الصبي أول فطامه عن اللبن . والمقصود هنا : ما تصرف به عدوّك عن قصدك به في الحروب وما إليها من أحوال الخصومة .
٣ ـ الحِجاج : الجدال .
٤ ـ نصرت عثمان بعد مقتله .. حيث كان في الانتصار له فائدة لك تتّخذه ذريعة لجمع الناس إلى أغراضك . أما وهو حي ، وكان انتصارك له يفيده ، فقد خذلته وأبطأت عنه .

ثمن البيعة

من خطبة له :

ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمنا (١) ! فلا ظفرت يد البائع ، وخزيت أمانة المبتاع . فخذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها !

أكلة الرشا

وقد ورد مثل المعنى السابق أيضاً في كتاب بعث به الإمام الى جماعة من أصحابه . قال :

إنّما تقاتلون أكلة الرُشا وعبيد الدنيا والبدع والأحداث . لقد نمي إليّ أن ابن الباغية (٢) لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يأتيه أتاوة هي أعظم ممّا في يديه من سلطان ، فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا ، وتربت يد هذا المشتري نصرة غادرٍ فاسق بأموال الناس !

١ ــ ضمير « يبايع » يعود إلى عمرو بن العاص ، فإنه شرط على معاوية أن يوليه مصر لو تمّ له الأمر . وهذا ما كان بعد ذلك .

٢ ــ المقصود هو عمرو بن العاص .

أذهبت دنياك وآخرتك

من كتاب له الى عمرو بن العاص يوم لحق بمعاوية :

فإنك قد جعلتَ دِينك تَبَعاً لدنيا امرئ ظاهرٍ غَيُّه مهتوكٍ سِتْرُه يَشِينُ الكريمَ بمجلسه ويُسفِّهُ الحليمَ بخِلْطته ، فاتَّبعتَ أثَرَه وطلبتَ فضْلَه اتباعَ الكلب للضِرغام (١) : يلوذُ إلى مَخالبه وينتظر ما يلقي إليه من فضْل فريسته ، فأذهبتَ دنياك وآخرتك ! ولو بالحقّ أخذتَ أدركتَ ما طلبتَ . فإن يُمكِّنّي منك ومن أبي سفيان أجزِكُما بما قدّمتما .

لأشدّنّ عليك

من كتاب له الى زياد بن أبيه وهو على البصرة :

وإني أُقسم بالله قسَماً صادقاً لئن بلَغَني أنك خُنتَ من فَيْء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً (٢) لأشُدّنّ عليك شَدّةً تَدَعُك قليلَ الوَفْر (٣) ثقيلَ الظهر ضئيل الأمر ، والسلام .

١ ـ الضرغام : الأسد .

٢ ـ الفيء : المال من غنيمة أو خراج .

٣ ـ لأشدن عليك شدة : لأحملنّ عليك حملة . الوفر المال .

مترّغ في النعيم

ومن كتاب له إلى زياد بن أبيه أيضاً :

أترجو أن يعطيَك الله أجرَ المتواضعين وأنت عندَه من المتكبّرين ؟ وتطمعُ ، وأنت متمرّغٌ في النعيم تمنعُه الضعيفَ والأرملةَ ، أن يوجبَ لك ثوابَ المتصدّقين ؟ وإنّما المرء مَجزيٌ بما أسلف (١) وقادمٌ على ما قدّم .

إحذرْ معاوية

من كتاب له الى زياد بن أبيه أيضاً وقد بلغه ان معاوية كتب اليه يريد خديعته باستلحاقه :

وقد عرفتُ أن معاوية كتب إليك يستزلُّ لُبَّكَ ويستفِلُّ غَرْبَكَ (٢) فاحذره ، فإنما هو الشيطان يأتي المؤمنَ من بين يديه ومن خلفِه ، وعن يمينه وعن شِماله ، ليقتحمَ عليه غَفْلتَه ويستلبَ غِرّته (٣) .

---

١ — أسلف : قدّم في سالف أيامه .

٢ — يستزل : يطلب به الزلل ، وهو الخطأ . الغرب : الحدّة والنشاط . يستفل غربك : يطلب ثلمَ حدّتك .

٣ — يقتحم غفلته : يدخل غفلته بغتة فيأخذه فيها . وتشبيه الغفلة بالبيت يسكن فيه الغافل ، من روائع التشبيه . الغرة : خلوّ العقل من ضروب الحيل ، والمراد منها العقل الغر والساذج .

الناس عندنا أسوة

من كتاب له الى سهل بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على المدينة ، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية :

أمّا بعد ، فقد بلغني أن رجالاً ممَّن قِبَلَكَ (١) يتسلّلون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتُك مِن عددهم ويذهبُ عنك من مَدَدهم ، فكفى لهم غيّاً ولك منهم شافيا (٢) . وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعُوه ووعَوه ، وعلموا أن الناس عندنا أسوةٌ فهربوا إلى الأثَرة (٣) فبُعداً لهم وسُحقاً (٤) ! إنهم والله لم ينفِروا مِن جور ولم يلحقوا بعدل !

يا أشباه الرّجال

من خطبة له بعد أن غزا سفيان بن عوف من بني غامد ، بلدة الأنبار على الشاطىء الشرقي للفرات . وقد بعثه معاوية لشنّ الغارات على أطراف العراق تهويلاً على أهله .

١ ــ قبلك : عندك .

٢ ــ يتسللون : يذهبون واحداً بعد واحد . غيا : ضلالا . يقول : فرارهم كافٍ في الدلالة على ضلالهم . والضلال داء شديد في بنية الجماعة ، وقد كان فرار هؤلاء الضالين شفاء للجماعة من هذا الداء .

٣ ــ الأثرة : اختصاص النفس بالمنفعة وتفضيلها على غيرها بالفائدة

٤ ــ السحق ، بضم السين : البعد البعيد .

وهذا أخو غامد وقد وردتْ خيلُه الأنبار وقد قتلَ حسّانَ بن حسان البكري وأزالَ خيلَكم عن مَسَالحها (١) . وقتل منكم رجالاً صالحين . ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخلُ على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهَدة (٢) فينتزعُ حِجلَها (٣) وقُلُبَها (٤) وقلائدها ورِعاثَها (٥) ما تُمتَنعُ منه إلا بالاسترجاع (٦) والاسترحام ثم انصرفوا وافرين (٧) ما نالَ رجلاً منهم كَلْمٌ ولا أُريق لهم دم . فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به جديرا . فيا عَجَبا ، والله ، يُميتُ القلبَ ويجلبُ الهمَّ اجتماعُ هؤلاء القوم على باطِلهم وتفرّقُكم عن حقكم ، فقُبحاً لكم وتَرَحاً (٨) حين صِرتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَون ولا تَغزُون ، ويُعصَى الله وترضَون ! فإذا أمرتُكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم : هذه حَمَارّةُ القيظ (٩) أمهِلنا يسبَخْ عنّا الحرّ (١٠) ! وإذا أمرتُكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صَبَارّةُ القُرّ (١١) أمهِلنا

---

١ — جمع مسلحة ، وهي : الثغر والمرقب حيث يخشى طروق الأعداء .
٢ — المعاهدة : الذمية ، أي الداخلة في ذمة المسلمين وفي حمايتهم . وأهل الذمة هم أهل الكتاب من غير المسلمين .
٣ — الحجل : الخلخال .
٤ — القلب ، بالضم ، كقفل : السوار .
٥ — الرعاث جمع رعثة : القرط .
٦ — الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء .
٧ — وافرين : تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم .
٨ — ترحا : هما وحزنا .
٩ — حمارّة القيظ ، بتشديد الراء : شدة الحر .
١٠ — يسبخ : يخفف ويسكن .
١١ — صبارّة الشتاء ، بتشديد الراء : شدة برده . والقر : البرد ، وفي كتب فقه اللغة ان « القر » هو برد الشتاء خاصة ، أما « البرد » فعامّ فيه وفي بقية الفصول .

ينسلخْ عنّا البرد ! كلُّ هذا فِراراً من الحرّ والقُرّ ، فأنتم والله من السيف أفرّ ، يا أشباهَ الرجال ولا رجال ! حُلوم الأطفال ، وعقولُ ربّات الحِجال (١) لَوَددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم ! معرفةٌ والله جرّت ندماً وأعقبتْ سَدَماً (٢) ! قاتَلَكم الله ! لقد شحنتم صدري غيظاً وأفسدتم عليَّ رأيي بالعِصيان والخِذلان ، حتّى قالت قريش : إن ابن طالب أبي رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب !

لله أبوهم ! وهل أحدٌ منهم أشدُّ لها مِراساً وأقدمُ فيها مقاماً مني ؟ ! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، وها أناذا قد ذرّفتُ على الستين (٣) ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع ! !

لو ضربته بسيفي

من كلام له :

لو ضربتُ خيشومَ المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني . ولو صببتُ الدنيا بجَمّاتها (٤) على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني !

١ ــ ربات الحجال : النساء .

٢ ــ السدم : الهمّ مع الأسف والغيظ .

٣ ــ ذرفت على الستين : زدت عليها .

٤ ــ جمّات ، جمع جمة ، بفتح الجيم ، وهي من السفينة مجتمع الماء المترشح من ألواحها ، أي : لو كفأتُ عليه الدنيا بجليلها وحقيرها .

أقولاً بغير علم

من خطبة له في تأنيب المتخاذلين من أصحابه :

أيها الناس المجتمعةُ أبدانُهم ، المختلفةُ أهواؤهم ، كلامُكم يوهي الصُمَّ الصِّلاب وفِعلُكم يُطمِعُ فيكم الأعداء (١) ! ما عزّت دعوةُ مَن دعاكم ولا استراح قلبُ مَن قاساكم ! أيَّ دارٍ بعد دارِكم تمنعون ؟ ومع أيّ إمامٍ بَعدي تقاتلون ؟ المغرورُ واللهِ مَن غَرَرْتُموه ، ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيَب ! أصبحتُ والله لا أصدّق قولكم ولا أطمع في نصركم ولا أوعد العدوّ بكم ! ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبّكم ؟ القوم رجال أمثالكم ! أقولاً بغير علم ؟ وغفلةً من غير ورع ؟ وطمعاً في غير حق ؟ !

لا أُصلِحُكم بإفساد نفسي

ومن كلام له في تأنيب المتخاذلين من أصحابه أيضاً :

كم أداريكم كما تدارَى الثياب المتداعية كلّما حِيصتْ من جانبٍ

١ ــ الصم ، جمع أصم ، وهو من الحجارة الصلب . والصلاب : الشديدة ، أي تقولون من الكلام ما يفلق الحجر بشدّته وقوته ، ثم يكون فعلكم من الضعف والاختلال بحيث يطمع فيكم العدوّ .

تهتكتْ من آخر (١) ! أكلّما أطلّ عليكم مَنْسِرٌ من مناسر (٢) أهل الشام أغلقَ كلّ رجل منكم بابه ، وانجحرَ انجحارَ الضَّبَّةِ في جُحْرِها والضبُعِ في وِجارها (٣) ؟! الذليلُ واللهِ مَن نصرتموه ! وإنكم واللهِ لَكثيرٌ في الباحات قليلٌ تحت الرايات ، وإني لَعالمٌ بما يُصلحكم ويقيمُ أَوَدَكم (٤) ولكني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي !

الرّأيُ معَ الأناة

من كلام له وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد للحرب بعد إرساله جريراً بن عبد الله البجلي إلى معاوية :

إن استعدادي لحرب أهل الشام وجريرٌ عندهم إغلاقٌ للشام ، وصرفٌ لأهله عن خيرٍ إنْ أرادوه . والرأي عندي معَ الأناة .

ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينَه (٥) وقلّبتُ ظهرَه وبطنَه ، فلم أرَ

---

١ ــ المتداعية : الحلقة المتخرقة . ومداراتها : استعمالها بالرفق التام .

٢ ــ المنسر : القطعة من الجيش تمر أمام الجيش الكثير .

٣ ــ انجحر : دخل الجحر أو الوجار .

٤ ــ أودكم : اعوجاجكم .

٥ ــ مثل تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل .

لي إلاّ القتالَ أو الكُفرَ (١) . إنه قد كان على الناس والٍ أحدث أحداثاً (٢) وأوجد للناس مقالاً ، فقالوا ، ثم نقَموا فغَيَّروا .

لقد سئمتُ عتابكم

من خطبة له في استنفار الناس إلى أهل الشام :

أُفٍّ لكم ، لقد سئمتُ عتابكم ! إذا دعوتُكم إلى جهادِ عدوّكم دارت أعينُكم كأنكم من الموت في غَمرة (٣) ، ومن الذهول في سكرة ! ما أنتم إلاّ كإبلٍ ضَلَّ رُعاتُها فكلّما جُمعتْ من جانبٍ انتشرت من آخر ! تُكادون ولا تَكيدون ، وتُنتَقَصُ أطرافُكم فلا تَمتعضون (٤) ، لا يُنامُ عليكم وأنتم في غفلةٍ ساهون ، غُلِبَ واللهِ المتخاذلون ! وايمُ الله إني لأَظُنُّ بكم أنْ لو حَمِسَ الوغى واستحرَّ الموت قد انفرجتم عن ابن أبي

---

١ – المراد بالكفر هنا : الفسق ، لأن ترك القتال تهاون بالنهي عن المنكر ، وهو فسق.

٢ – يريد من الوالي الخليفة الذي كان قبله ، وتلك الأحداث معروفة في التاريخ ، وهي التي أدّت بالقوم الى التألب على قتله .

٣ – دوران الأعين : اضطرابها من الجزع ، ومَن غمرَه الموت يدور بصره . وغمرة الموت : الشدة التي تنتهي اليه .

٤ – تغضبون .

طالب انفراجَ الرأس (١) . والله إن أمرَأً يمكّنُ عدوّه من نفسه يعْرُقُ لحمَه (٢) ويَهْشِمُ عظمَه ويَفْري جلدَه ، لعظيمٌ عجزُه ضعيفٌ ما ضُمَّت عليه جوانحُ صدره (٣) . أنت فكن ذاك إن شئت (٤) فأمّا أنا فوالله دون أن أعطيَ ذلك ضربٌ بالمشرفية تطير منه فَرَاشُ الهامِ (٥) ويفعلُ الله بعدَ ذلك ما يشاء !

بقاء الدولة

من خطبة له خطبها بصفين :

أما بعدُ ، فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقّاً بولايةِ أمرِكم ، ولكم عليّ من الحقّ مثلُ الذي لي عليكم ، فالحقّ أوسعُ الأشياء في التواصُف وأضيقُها في التناصُف (٦) ، لا يَجري لأحدٍ إلاّ جرى عليه ، ولا يجري عليه إلا جرى له .

---

١ — حمس : اشتد وصلب . استحر : بلغ في النفوس غاية حدّته . وقوله « انفراج الرأس » يعني انفراجاً لا التئام بعده ، فإن الرأس اذا انفرج عن البدن أو انفرج أحد شقيه عن الآخر لم يعد للالتئام .

٢ — يأكل لحمه حتى لا يبقى منه شيء على العظم .

٣ — الجوانح : الضلوع تحت الترائب . يريد ضعيف القلب .

٤ — يمكن ان يكون خطاباً عاماً لكل من يمكّن عدوّه من نفسه . ويروى انه خطاب للأشعث بن قيس عندما قال له : « هلاّ فعلت فعل عثمان » فأجابه الإمام بقوله هذا.

٥ — فراش الهام : العظام الرقيقة التي تلي القحف .

٦ — يتسع القول في وصفه حتى إذا وجب الحقّ على الانسان الواصف له ، فرّ من أدائه ولم ينتصف من نفسه كما ينتصف لها .

ثم جعل ، سبحانه ، من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا ، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض (١) . وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ولا يصلح الولاة إلا باستقامة الرعية . فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي اليها حقها عز الحق بينهم ، واعتدلت معالم العدل ، فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء . وإذا غلبت الرعية واليها ، أو أجحف الوالي برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور فعمل بالهوى وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل ! فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار .

وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

١ ــ اي : لا يستحق أحد شيئاً إلا بأدائه مكافأة ما يستحقه .

٢ ــ أي : إذا عطل الحق لا تأخذ النفوس وحشة أو استغراب لتعودها على تعطيل الحقوق وأفعال الباطل .

٣ ــ بفوق ان يعان : بأعلى من أن يحتاج إلى الإعانة ، أي : بغنى عن المساعدة .

٤ ــ اقتحمته : احتقرته .

هنا أجابه رجلٌ من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته له.
فقال الإمام هذا القول الرائع :

وإنّ مِن أسخف حالات الوُلاة عند صالح الناس أن يُظَنّ بهم حبُّ الفخر ويوضعَ أمرُهم على الكِبْر . وقد كرهتُ أن يكونَ جالَ في ظنّكم أني أحبُّ الإطراء واستماع الثناء ، ولست بحمدالله كذلك ، فلا تكلّموني بما تُكلَّمُ به الجبابرة ، ولا تتحفّظوا مني بما يُتَحَفَّظُ به عند أهل البادرة (١) ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظُنّوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي ، فإنه مَن استثقَلَ الحقّ أن يقال له أو العدلَ أن يُعرَض عليه كان العملُ بهما أثقلَ عليه ! فلا تكفُّوا عن مقالةٍ بحقّ أو مشورةٍ بعدل ، فإني لستُ في نفسي بِفَوقِ أن أخطىء ؟

السِلْم أوْلى

من كلام له وقد استبطأ أصحابهُ إذنَه لهم في القتال بصفّين :

أمّا قولُكم : أكلُّ ذلك كراهيةُ الموت ؟! فوالله ما أُبالي أدخلتُ إلى الموت أو خرجَ الموتُ إليّ ! وأمّا قولُكم شكّاً في أهل الشام ! فوالله ما

١ ــ البادرة : الحدة والغضب .

ما دفعتُ الحرب يوماً إلا وأنا أطمعُ أن تلحق بي طائفةٌ فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي (١) ، وذلك أحبُّ إليّ من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوءُ بآثامها .

الوصيّة الشريفة

من وصية له لعسكره قبل لقاء العدو بصفّين :

لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم . فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تُصيبوا مُعْوِراً (٢) ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمنَ أعراضكم وسببنَ أمراءكم !

اللهمّ جنّب المنتصر البغي

من خطبة له لما عزم على لقاء القوم بصفّين :

اللهمَّ ربَّ هذه الأرضِ التي جعلتَها قراراً للأنام ، ومَدْرجاً

١ — تعشو الى الضوء : تستدل عليه في الظلام فتهتدي اليه .

٢ — المعور : الذي أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها .

للهَوامّ والأنعام ، ومـا لا يُحصى ممّا يُرى وممّا لا يُرى ! وربَّ الجبالِ الرواسي التي جعلتَها للأرضِ أوتاداً وللخَلق اعتماداً (١) ، إنْ أظهرتَنا (٢) على عدوّنا فجنِّبْنا البغي وسدِّدْنا للحقّ . وإن أظهرتَهم علينا فارزُقْنا الشَّهادةَ واعصِمْنا من الفتنة !

اللهم اصلح ذات بيننا وبينهم

من كلام له بصفّين وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام رداً على سب أهل الشام إياه :

إني أكرهُ لكم أن تكونوا سبّابين . ولكنكم لو وصفتم أعمالَهم وذكرتم حالهم ، كان أصوبَ في القول وأبلغَ في العذر ، وقلتم مكانَ سبّكم إياهم :

اللهمَّ احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبَينِهِم ، وأهدِهِم من ضلالتهم حتّى يعرفَ الحقّ مَن جهِلَهُ ويرعوي عن الغَيّ والعدوان مَن لَهِجَ به (٣) .

١ ـ اعتمادا : معتمدا ، أي ملجأ يعتصمون به إذا طردتهم الغارات من السهول . وكما ان الجبال الرواسي هي ملجأ يعتصم به الانسان ، هي ايضاً للحيوانات تعتصم بها

٢ ـ أظهرتهم : نصرتهم وجعلت لهم الغلبة

٣ ـ الارعواء : النزوع عن الغي والرجوع عن وجه الخطأ . لهج به : أولع به فثابر عليه .

ونطق بألسنتهم

ومن خطبة له

اتّخذُوا الشيطانَ لأمرِهم مِلاكاً(١) واتّخذهم له أشراكاً ، فباض وفرَّخ في صدورهم ، ودبَّ ودرج في حُجورهم ، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم ، فركب بهم الزلل وزيّن لهم الخطل(٢) فِعْلَ مَن قد شرَّكهم الشيطانُ في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه .

جعلوهم حكّاماً على الرّقاب

سألَ الإمامَ سائلٌ عن أحاديث البدع وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر . فقال في جملة ما قال :

إنَّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذبا . وقد أخبرك اللهُ عن المنافقين بما أخبرك ووصَفَهم بما وصفهم به لك ، ثم بقوا بَعْدَهُ – يعني النبي – فتَقَرَّبوا إلى أئمة الضلالة والدُّعاة إلى النار بالزُّور والبهتان ، فوَلّوهم الأعمالَ وجعلوهم حكّاماً على رقاب الناس وأكلوا بهم الدنيا . وإنما الناس مع الملوك إلاَّ مَن عَصَمَ الله !

---

١ – ملاك الشيء : قوامه الذي يُملك به .

٢ – الخطل : أقبح الخطأ .

صنفان

ومن كلام له في محبّيه ومبغضيه :

وسيهلِكُ فيَّ صِنفان : محبٌّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحقّ ، ومبغضٌ مفرطٌ يذهب به البُغض الى غير الحق . وخير الناس فيَّ حالاً النمطُ الأوسطُ فالزموه ، والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة !

ومن كلامه في هؤلاء :

هَلَكَ فيَّ رجلان : محبٌّ غالٍ ، ومبغضٌ قالٍ .

ومن كلامه أيضاً وقد توفي سهل بن حنيف الانصاري بالكوفة بعد رجوعه معه من صفين ، وكان من أشد أنصار الإمام اندفاعاً في سبيل الحق . :

لو أحبَّني جبلٌ لتَهَافت (١) .

---

١ ــ تهافت : تساقط بعدما تَصَدَّع .

أئمة العدل

عاد الإمامُ العلاء بن زياد الحارثي بالبصرة ، وهو من أصحابه . فلما رأى سعة داره قال له :

ما كنتَ تصنعُ بسَعَة هذه الدار في الدنيا ؟ أمَا أنت اليها في الآخرة كنت أحوَج ؟ وبَلى ، إن شئتَ بلغتَ بها الآخرة : تَقْري فيها الضيف ، وتصِلُ فيها الرحِم ، وتُطلِعُ منها الحقوقَ مَطالعَها (١) فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة !

فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين : أشكو اليك أخي عاصم بن زياد . قال : وما له ؟ قال : لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا . قال : علَيَّ به . فلما جاء قال :

يا عُدَيَّ نفسه (٢) لقد استهام بك الخبيث . أما رَحِمتَ أهلَكَ وولدك ! أترى اللهَ أحلَّ لك الطيّباتِ وهو يكرهُ أن تأخذها ؟ أنت أهونُ على الله مِن ذلك (٣) .

---

١ ــ أطلع الحق مطلعه : أظهره حيث يجب أن يظهر .

٢ ــ عدي : تصغير عدو .

٣ ــ في هذا الكلام بيان أن أطايب الدنيا لا تبعد الإنسان عن الله لطبيعتها ، ولكن لسوء القصد منها .

قال عاصم : يا أمير المؤمنين ، ها أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ! قال الإمام :

وَيْحَكَ ، إني لستُ كأنتَ . إن اللهَ فرَضَ على أئمّة العدل أن يُقدّروا أنفُسَهم بضَعَفَةِ الناس كي لا يَتَبيَّغَ بالفقير فَقرُهُ[1] .

لو أعطيت الأقاليم السبعة

من كلام رائع له في صفة نفسه حافظاً لأموال العامة ، وذلك بعد أن أملق أخوه عقيل بن أبي طالب فاستعطاه :

والله لأن أبيتَ على حَسَكِ السّعدان[2] مسهّداً ، وأُجَرَّ في الأغلال مُصفّداً ، أحَبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يومَ القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام .

والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحتَ أفلاكها على أن أعصيَ اللهَ في نملة أسلُبُها جِلْبَ شعيرة[3] ما فعلتُ . وإنّ دنياكم عندي لأهونُ

---

١ – يقدروا أنفسهم الخ .. : يقيسوا أنفسهم بالضعفاء ليكونوا قدوة للغني في الاقتصاد وصرف الأموال في وجوه الخير ومنافع المجتمع . يتبيّغ بالفقير فقره : يهيج به ألم الفقر فيهلكه .

٢ – يريد من الحسك : الشوك . والسعدان : نبت شائك ترعاه الإبل .

٣ – جلب : قشرة .

من ورقة في فم جرادة تقضَمُها (١) ! ما لعليٍّ ولنعيمٍ يفنى ولذة لا تبقى . نعوذُ بالله من سُبات العقل وقُبح الزلل وبه نستعين .

تحرّكه العواصف

من كلام له يجري مجرى الخطبة :

وكنتُ كالجبل لا تحرّكهُ القواصفُ ولا تُزيلُه العواصف : لم يكن لأحد فيّ مَهمَزٌ (٢) ولا لقائلٍ فيّ مَغمَزٌ . الذليل عندي عزيزٌ حتى آخذَ الحقَّ له ، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحقّ منه !

لولا تخمة الظالم وجوع المظلوم

من خطبة له معروفة بالشقشقية :

... إلى أن قام ثالثُ القوم نافجاً حضنَيه (٣) ، وقام معه بنو أبيه يخضِمون مالَ الله خَضْمَةَ الإبلِ نبتَةَ الربيع (٤) ، إلى أن أجهزَ عليه

١ ـ تقضمها : تكسرها بأطراف أسنانها .

٢ ـ الهمز والغمز : الوقيعة ، أي : لم يكن فيّ عيب أعاب به .

٣ ـ يشير إلى عثمان . نافجاً حضنيه : رافعاً لهما ، والحضن : ما بين الإبط والكشح . يقال للمتكبر : جاءنا نافجاً حضنيه . ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاماً .

٤ ـ الخضم : الأكل مطلقاً ، أو بأقصى الأضراس .

عَمَلَه وكَبَتْ به بِطْنَتُه ، فما راعني إلاّ والناس ينثالون عليّ (١) من كل جانب ، حتى لقد وُطِيءَ الحَسَنان (٢) وشُقّ عطفاي (٣) ، مجتمعين حولي كرَبيضة الغنم (٤) . فلما نهضتُ بالأمر نكثَتْ طائفةٌ ، ومرقتْ أخرى ، وقَسَطَ آخرون (٥) كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين » ! بلى ، والله لقد سمعوها ووعوها ، ولكنهم حَلِيتْ الدنيا في أعينهم وراقهم زِبْرِجُها (٦) . أمَا والذي فَلَقَ الحبّة وبَرَأَ النسمةَ ، لولا حضور الحاضر (٧) وقيامُ الحُجّة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يُقارّوا على كِظّة ظالمٍ ولا سَغَب مظلوم (٨) ، لألقيتُ حَبْلَها على غاربها (٩) ، ولسقيتُ آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دُنياكم هذه أزهدَ عندي من عَفْطة عنز .

---

١ — البطنة : البطر والأشر والتخمة والإسراف في الشبع . كبت به ، من كبا الجواد إذا سقط لوجهه . ينثالون : يتتابعون مزدحمين .

٢ — ولداه الحسن والحسين .

٣ — شق عطفاه : خدش جانباه من الاصطكاك .

٤ — ربيضة الغنم : الطائفة الرابضة من الغنم .

٥ — الناكثة : أصحاب الجمل . والمارقة : أصحاب النهروان من الخوارج . القاسطون : الجائرون ، وهم أصحاب صفين .

٦ — الزبرج : الزينة من وشي أو جوهر .

٧ — يقصد مَن حَضر لبيعته ، ولزوم البيعة لذمة الإمام بحضوره .

٨ — الكظة : ما يعتري الآكل من امتلاء البطن بالطعام ، والمراد استئثار الظالم بالحقوق . السغب : شدة الجوع ، والمراد منه هضم حقوق المظلوم .

٩ — الغارب : الكاهل ، والكلام تمثيل للترك وإرسال الأمر .

أهل الحيلة

من خطبة له :

إن الوفاء توأمُ الصدق ولا أعلمُ جُنَّةً أوقى منه(١). ولا يَغدرُ مَن علِمَ كيف المرجِع . ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثرُ أهلِه الغدرَ كَيْساً (٢) ونَسَبَهم أهلُ الجهلِ فيه إلى حُسن الحيلة ! ما لهم ؟ قاتلهم الله ! قد يرى الحُوّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلة (٣) ودونه مانعٌ من أمر الله ونهْيِه فيدعها رأيَ عينٍ بعدَ القدرة عليها وينتهز فُرصتها من لا حريجةَ له في الدين(٤) .

أنت وأخوك الإنسان

من وصية له كتبها لابنه الحسن من صفين :

يا بُنيّ ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ؛ فأحبِبْ لغيرك

---

١ — الجنة : الوقاية .

٢ — الكيس : العقل .

٣ — الحوّل القلّب : البصير بتحويل الأمور وتقليبها .

٤ — يقول : أهل هذا الزمان يعدّون الغدر من العقل وحسن الحيلة . ولكن ما لهم يزعمون ذلك مع أن البصير بتحويل الأمور وتقليبها قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده ، لكنه يجد دون الأخذ به مانعاً من أمر الله ونهيه ، فيدع الحيلة وهو قادر عليها ، خوفاً من الله ووقوفاً عند حدوده !

ما تحب لنفسك ، واكرهْ له ما تكره لهـا ، ولا تَظلِمْ كما لا تحب أن تُظلَم ، وأحسن كما تحب أن يُحسنَ إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحبّ أن يقال لك .

يا بني ، إياك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهـل الدنيا اليها وتكالُبهم عليها (١) فقد نبَّأ الله عنها ونعتْ لك نفسها وتكشّفتْ لك عن مَساويها ، فإنما أهلها كلابٌ عاوية وسباع ضارية يهِرُّ بعضهم بعضاً ويأكلُ عزيزُها ذليلَها ويقهر كبيرُها صغيرَها .

واعلمْ أنّ من كانت مطيّته الليـلَ والنهار فإنه يُسارُ بـه وإنْ كان واقفاً ، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً (٢) .

أكرمْ نفسك عن كلّ دنيّـة وإن ساقتك الى الرغـائب ، فإنك لن تعتاض بما تبذُلُ من نفسك عوَضاً . ولا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حراً ، وما خيرُ خيرٍ لا يُنالُ إلاّ بشرّ (٣) ويُسرٍ لا يُنال إلاّ بعُسر !

قارنْ أهلَ الخير تكن منهم ، وباينْ أهلَ الشرّ تبِنْ عنهم . بئسَ الطعامُ الحرام ، وظلمُ الضعيف أفحشُ الظلم .

إحمل نفسك من أخيك عند صَرْمه على الصلة (٤) ، وعنـد صدوده

---

١ ــ إخلاد اهل الدنيا اليها : سكونهم اليها . التكالب : التواثب .

٢ ــ وادعاً : ساكنا مستريحا .

٣ ــ يريد : أي خير في شيء سماه الناس خيراً وهو مما لا يناله الانسان إلا بالشر ، فإن كان طريقه شراً فكيف يكون هو خيراً ؟

٤ ــ الصرم : القطيعة ، أي : ألزم نفسك بصلة أخيك الانسان إذا قطعك .

على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل (١) ، وعند تباعده على الدنوّ ، وعند شدّته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنه ذو نعمة عليك . ولِنْ لمن غالظك (٢) فإنه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوّك بالفضل . وإن أردتَ قطيعة أخيك فاستبقِ له من نفسك بقيّةً يرجع إليها إنْ بدا له ذلك يوماً ما (٣) . ومن ظنّ بك خيراً فصدّق ظنه . ولا تُضيعنّ حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه فإنه ليس لك بأخٍ مَن أضعتَ حقّه . ولا يكوننّ أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته (٤) ولا يكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، وليس جزاءُ من سرّك أن تسوءه .

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاءَ عند الغنى . وإن جزعتَ على ما تفلّتَ من يديك ، فاجزع على كل ما لم يصل إليك . استدلّ على ما لم يكن بما كان ، فإن الأمور أشباه . ولا تكوننّ ممن لا تنفعه العظة إلاّ إذا بالغتْ في إيلامه .

---

١ ــ الجمود : البخل .

٢ ــ لِن : أمر من « لانَ » .

٣ ــ اي : استبقِ بقية من الصلة يسهل له معها الرجوع اليك إذا هو شاء ذلك .

٤ ــ أي : اذا أتى اخوك الانسان بأسباب القطيعة فقابلها بموجبات الصلة حتى تكون الغلبة للمودّة . ولا يصح أن يكون أخوك أقدر على ما يوجب القطيعة منك على ما ما يوجب الصلة . وهذا أبلغ قول في لزوم حفظ المودة بين الناس .

مَن ترك القصد جار (١) . والصديق مَن صَدَقَ غَيْبُه (٢) . رُبَّ قريبٍ أبعد من بعيد ، ورُبَّ بعيدٍ أقرب من قريب ، والغريب من لم يكن له حبيب . سلْ عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

إذا تَغَيَّرَ السلطان تَغَيَّرَ الزمان !

أنصِتوا لقولي

من كلام له قاله للخوارج وقد خرج إلى معسكرهم :

أكُلُّكم شهِد معنا صِفِّين ؟

فقالوا : مِنّا مَن شهِد ومنّا مَن لم يَشْهَد .

قال : فامتازوا فِرقتين ، فليكن مَن شَهِد صِفِّين فِرقةً ، ومَن لم يشهدها فرقة ، حتى أكلِّمَ كلاًّ منكم بكلامه .

ونادى الناسَ :

أمسِكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي وأقبلوا بأفئدتكم إليَّ ، فمَن نَشَدْناه شَهادة فلْيقُلْ بعِلمه فيها .

ثم كَلَّمهم بكلام طويل ، من جملته أن قال :

ألم تقولوا عند رَفْعِهم المصاحفَ حيلةً وغِيلةً ، ومَكراً وخديعة :

١ ـ القصد : الاعتدال . جار : مال عن الصواب .

٢ ـ الغيب : ضد الحضور . أي : من حفظ لك حقك وهو غائب عنك .

إخوانُنا وأهلُ دَعوَتِنا استقالونا واستراحوا الى كتاب الله سبحانه ، فالرأيُ القبولُ منهم والتنفيسُ عنهم ؟ فقلت لكم : هذا أمرٌ ظاهرُهُ إيمان وباطنُه عُدْوان ، وأوّلُه رحمة وآخره ندامة . فأقيموا على شأنكم والزموا طريقكم ولا تلتفتوا إلى ناعقٍ نَعَق : إن أُجيب أضَلَّ وإن تُرِكَ ذَلَّ ؟

وقد كانت هذه الفَعْلَةُ ، وقد رأيتُكم أعْطيتموها . والله لئن أبيتُها ما وَجَبَتْ عليَّ فريضتُها ، ولا حمّلني اللهُ ذَنبَها ! ووالله إن جئتُها إني لَلْمُحِقُّ الذي يُتَّبَعُ . وإنَّ الكتابَ لَمَعِي . ما فارقتُه مذ صحبتُه : فلقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله . وإن القتْلَ لَيدورُ على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات . فما نزدادُ على كلِّ مُصيبةٍ وشدّةٍ إلا إيماناً ومُضيّاً على الحقّ وصبراً على مَضَض الجِراح . ولكنّا إنّما أصبحنا نقاتلُ إخوانَنا في الإسلام على ما دخل فيه من الزَّيْغ والاعوجاج ، والشُبهة والتأويل . فإذا طمِعْنا في خَصْلة (١) يلُمُّ اللهُ بها شَعَثَنا ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا ، رغبْنا فيها وأمسكنا عمّا سواها !

تركا الحق وهما يبصرانه

من كلام له يكشف به للخوارج الشبهة
وينقض حكم الحكَمين :

فإنْ أبيتم إلاّ أن تزعموا أني أخطأتُ وضللتُ ، فلِمَ تُضلّلون عامّةَ أمةِ محمد صلى الله عليه وآله بضلالي ، وتأخذونهم بخطئي ،

---

١ ـ الخصلة ، يراد بها هنا : الوسيلة .

وتُكفّرونهم بذنوبي ! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضعَ البُرْء والسُّقْم ، وتَخْلِطون من أذنب بمن لم يذنب .

لم آتِ ، لا أبَا لكم ، بُجْراً ، ولا خَتَلْتُكم عن أمركم ولا لبّستُه عليكم (١) ، إنّما اجتمع رأيُ ملئِكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ألاّ يتعدّيا القرآن ، فتاهَا عنه ، وتركَا الحقّ وهما يبصرانه ، وكان الجورُ هواهما فمَضَيَا عليه . وقد سبق استثناؤنا عليهما ، في الحكومة بالعدل والصَّمْدِ للحق ، سُوءَ رأيهما وجَوْرَ حُكْمِهِما (٢) .

أَنا نذيركم

من خطبة له في تخويف أهل النهروان (٣)
قبل أن يبدأوه القتال :

فأنا نذيرُكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر وبأهضام هذا الغائط (٤) على غير بيّنة من ربكم ولا سلطانٍ مبينٍ معكم : قد طوّحتْ بكم الدار

---

١ ــ البجر : الشر والأمر العظيم والداهية . ختلتكم : خدعتكم . لبّستُه عليكم : خلطتُه وشبّهتُه حتى لا يُعرف
٢ ــ الصمد : القصد .
٣ ــ النهروان : اسم لأسفل نهر على مقربة من الكوفة . وأهل النهروان هم الخوارج .
٤ ــ صرعى : جمع صريع ، أي : طريح . الأهضام ، جمع : هضم وهو المطمئن من الوادي . والغائط : ما سفل من الأرض ، والمراد هنا منها المنخفضات . يقول : إني أحذركم من اللجاج في العصيان فتصبحوا مقتولين مطروحين ، بعضكم في أثناء هذا النهر ، وبعضكم في هذا الوادي وهذه المنخفضات .

واحتبلكم المقدار (١) ، وقد كنتُ نهيتُكم عن هذه الحكومة فأبيتم عليّ إباء المخالفين المنابذين حتى صرفتُ رأيي إلى هواكم ، وأنتم مَعَاشرُ أخفّاء الهام (٢) سفهاءُ الأحـلام ولم آتِ ، لا أبا لكم ، بُجْراً ولا أردتُ لكم ضُرّاً .

أين العمالقة

من خطبة خطب الإمام بها الناس بالكوفة وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف وحمائل سيفِ ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف :

أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياش وأسبغ عليكم المعاش . فلو أن أحداً يجِدُ إلى البقاء سُلّماً ، أو لدَفْعِ الموت سبيلاً ، لكان ذلك سليمانُ بن داود عليه السلام ، الذي سُخِّرَ له مُلْكُ الجنّ والإنس ، معَ النبوّةِ وعظيمِ الزُّلفة . فلمّا استوفى طُعْمَتَه واستكمل

---

١ ـ يقال « تطاوحت به النوى » أي : ترامت . احتبلهم : أوقعهم في حبالته . المقدار : القدر . يقول : لقد صرتم في متاهة لا يدع الضلال لكم سبيلاً إلى مستقرّ من اليقين ، فأنتم كمن رمت به داره وقذفته . وانتم مقيّدون للهلاك لا تستطيعون منه خروجا .

٢ ـ الهام : : الراس . وخفة الرأس كناية عن قلة العقل .

مُدّته ، رمتْه قِسِيُّ الفناء بنبال الموت ، وأصبحتِ الديارُ منه خالية ، والمساكن مَعطّلة ، وورِثَها قومٌ آخرون . وإنّ لكم في القرون السالفة لَعِبْرَة !

أين العمالقةُ وأبناء العمالقة ! أين الفراعنةُ وأبناء الفراعنة ! أين أصحابُ مدائنِ الرّسّ الذين قتلوا النبيّين وأطفأوا سُنَنَ المُرسلين ، وأحيَوا سُنَنَ الجبّارين ! أينَ الذين ساروا بالجيوش ، وهزّموا بالألوف ، وعسكروا العساكر ، ومدّنوا المدائن !

أين عمّار

ومن الخطبة السابقة نفسها :

ألاَ إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مُقبلاً ، وأقبلَ منها ما كان مُدبراً ، وأزمعَ التّرحالَ عبادُ الله الأخيارُ ! ما ضرَّ إخوانَنا الذين سُفكَتْ دماؤهم وهم بصِفّين أن لا يكونوا اليومَ أحياء يُسيغون الغُصَص ويشربون الرَّنق (١) ؟ أين إخواني الذين ركبوا الطريقَ ومضَوا على الحقّ ؟ أين عمّار ؟ وأين ابنُ التَّيِّهان ؟ وأين ذو الشّهادتين (٢) ؟ وأين نُظَراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على النيّة ، وأبرِدَ برؤوسهم إلى الفَجَرة (٣) ؟!

---

١ — الرنق : الكدر .

٢ — عمار : عمار بن ياسر ، وكان ممّن عُذّب هو وأبوه وأخوه وأمه في بدء الدعوة . وابن التيهان : ابو الهيثم مالك بن التيهان ، من أكابر الصحابة . ذو الشهادتين : خزيمة بن ثابت الأنصاري ، من الصحابة . وهؤلاء الثلاثة شهدوا صفين واستشهدوا بها .

٣ — أبرد برؤوسهم : أرسلت رؤوسهم مع البريد بعد قتلهم إلى البغاة للتشفيّ منهم .

الكِبر والتّعَصُّب والبغي

من خطبة له طويلة تسمّى « القاصعة (١) » :

ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه مِن غير ما فضلٍ جعلَه الله فيه سوى ما ألحقتِ العظمةُ بنفسه مِن عداوة الحسد ، وقدحتِ الحميّةُ في قلبه من نار الغضب ، ونَفَخَ الشيطانُ في أنفه مِن ريح الكِبْرِ الذي أعقبَه الله به الندامة .

فاللهَ اللهَ في كِبْر الحميّة وفخرِ الجاهلية ، فإنه مَنَافخُ الشيطان التي خَدَعَ بها الأممَ الماضية والقرونَ الخالية .

ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصَفْوكم كَدَرَهم ، وأدخلتم في حقكم باطلَهم ؛ وهم أساس الفُسوق اتّخذَهم إبليس مطايا ضلالٍ وجُنداً بهم يصولُ على الناس ؛ وتَراجمةً يَنطِقُ على ألسنتهم استراقاً لعقولكم ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم ، فجعلكم مرمى نَبْله ومَوطِئ قدمه ومأخذَ يده . فاعتبروا بما أصابَ الأمم المستكبرين مِن قبلِكم من بأس الله ، واتّعظوا بمثاوي خدودهم(٢) ومصارعِ جُنوبهم . واستعيذوا بالله من لواقح الكِبر (٣) كما تستعيذون به مِن طوارق الدهر !

١ – قصع فلان فلانا : حقّره . وقد سميت هذه الخطبة « القاصعة » لأن ابن أبي طالب حقّر فيها حال المتكبرين وأهل البغي .

٢ – مثاوي ، جمع مثوى ، بمعنى المنزل . ومنازل الخدود : مواضعها من الأرض بعد الموت . ومصارع الجنوب : مطارحها على التراب .

٣ – لواقح الكبر : مُحْدَثاته في النفوس .

ولقد نظرتُ فما وجدتُ أحداً من العاملين يتعصّبُ لشيء من الأشياء إلاّ عن علّة تحتملُ تمويهَ الجُهّلاء أو حُجّة تَليطُ بعقول السفهاء ، غيرَكم ؛ فإنّكم تتعصبون لأمرٍ لا يُعرَف له سبب ولا علّة : أما إبليس فتعصَّبَ على آدمَ لأصله ، وطعنَ عليه في خِلقته ، فقال : « أنا ناريٌّ وأنت طينيٌّ ! » وأمّا الأغنياء من مُترفَة الأمم فتعصّبوا لآثار مَواقعِ النِّعَم فقالوا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذّبين ! »

فإن كان لا بدّ من العصبيّة فليكنْ تعصبُكم لمكارم الخصال ومَحامد الأفعال ومَحاسن الأمور التي تَفاضلتْ فيها المُجَداءُ والنُّجَداء بالأخلاق الرغيبة والأحلام العظيمة ، فتعصّبوا لخِلال الحمد : مـن الحفظ للجِوار والوفاء بالذمام ؛ والطاعة للبِرّ ؛ والمعصية للكِبر ، والكفِّ عن البغي ؛ والإعظام للقتل ، والإنصاف للخلق ؛ والكظم للغيظ ؛ واجتناب الفساد في الأرض .

واحذروا ما نزّل بالأمم قبلكم من المَثُلات (١) بسوء الأفعال وذميم الأعمال . فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالَهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم .

ألاَ وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث (٢) والفساد في الأرض : فأمّا الناكثون فقد قاتلتُ . وأما القاسطون فقد جاهدتُ (٣) . وأمّا المارقةُ

١ ــ المثلات : العقوبات .

٢ ــ النكث : نقض العهد .

٣ ــ القاسطون : الجائرون على الحق .

فقد دوّختُ . وأمّا شيطان الرَّدْهة (١) فقد كُفيتُه بصعقة سُمعتْ لها وَجْبةُ قلبه ورجّةُ صدره . وبقيتْ بقيّةٌ من أهل البغي ، ولئن أذنَ الله في الكرّة عليهم لأديلنّ منهم (٢) إلاّ ما يتشذّرُ في أطراف البلاد البلاد تَشذُّراً (٣) .

وإني لمن قوم لا تأخذُهم في الله لومةُ لائم : سيماهم سيما الصدّيقين ، وكلامُهم كلامُ الأبرار ، عُمّارُ الليلِ ومَنارُ النهار (٤) لا يستكبرون ولا يَعلُون ولا يَغُلّون (٥) ولا يُفسدون : قلوبُهم في الجِنان وأجسادهم في العمل .

الدّنيا تُطْوى مِنْ خَلفِكم

من عهد له إلى محمد بن أبي بكر حين قلّده مصر . وفيه تذكير بأحوال الدنيا وترغيب للولاة في أن يعدلوا ويرحموا لئلاّ يُعذّبوا ، وذلك بأروع ما تجري به ريشة العبقرية من بيان :

وأنتم طُرَداءُ الموت : إن أقمتم له أخذَكم ، وإن فررتم منه أدرككم ،

---

١ ــ الردهة : النقرة في الجبل قد يجتمع فيها . وشيطانها ذو الثدية من رؤساء الخوارج وجد مقتولاً في ردهة .
٢ ــ لأديلن منهم : لأمحقنهم ثم أجعل الدولة لغيرهم .
٣ ــ يتشذر : يتفرق ، أي : لا يفلت مني إلاّ من يتفرّق في أطراف البلاد .
٤ ــ عمار ، جمع عامر ، أي : يعمرون الليل بالسهر للفكر والعبادة .
٥ ــ يغلون . يخونون .

وهو ألزَمُ لكم مِن ظِلّكم ! الموت معقود بنواصيكم (١) ، والدنيا تُطوى مِن خلفِكم ، فاحذروا ناراً قعرُها بعيد ، وحرُّها شديد ، وعذابُها جديد ، ليس فيها رحمة ولا تُسمَع فيها دعوة !

دستور الولاة

من رسالة كتبها للأشتر النخعي لما ولاّه على مصر وأعمالها في عهد خلافته . وهي من جلائل رسائله ووصاياه ؛ وأجمعها لقوانين المعاملات المدنية والحقوق العامة والتصرّفات الخاصة في نهج الإمام . كما انها من أروع ما أنتجه العقل والقلب جميعاً في تقرير علاقة الحاكم بالمحكوم ، وفي مفهوم الحكومة ، حتى أن الإمام سبق عصره أكثر من ألف سنة بجملة ما ورد في هذه الرسالة — الدستور ؛ من إشراق العقل النيّر والقلب الخيّر .

ثم اعلمْ يا مالكُ أني قد وجّهتُك إلى بلادٍ قد جرَتْ عليها دولٌ قبلك مِن عدلٍ وجور . وأن الناس ينظرون من أمورك في مثلِ ما كنتَ تنظر فيه من أمور الوُلاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنتَ تقول فيهم ، وإنّما يُستدَلُّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسُن عباده ، فليكن أحبُّ الذخائر إليك ذخيرةَ العمل الصالح . فاملِكْ هواك وشُحَّ بنفسك عمّا لا يَحِلُّ لك

١ — النواصي ، جمع ناصية ؛ وهي : مقدَّم شعر الرأس .

فإنّ الشُّحَّ بالنفس الإنصافُ منها في ما أحبّتْ أو كرهتْ (١) . وأشعِر قلبَك الرحمةَ للرعية ، والمحبّةَ لهم ، واللطفَ بهم . ولا تكونَنَّ عليهم سَبُعاً ضارياً تَغتنمُ أكلَهم فإنهم صنفان : إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخَلق ، يَفرُطُ منهم الزلل (٢) ، وتَعرِضُ لهم العِلل ، ويُؤتى على أيديهم في العَمْد والخطأ (٣) ، فأعطِهم من عفوك وصفحك مِثلَ الذي تحبُّ أن يعطيَك الله مِن عفوه وصفحه ، فإنك فوقَهم ووالي الأمرِ عليك فوقَك ، والله فوقَ مَن ولاّك ! ولا تندَمَنَّ على عفوٍ ، ولا تَبْجَحَنَّ بعقوبة ولا تُسرعَنَّ إلى بادرةٍ وجدتَ منها مندوحة (٤) .

أنصفِ اللهَ وأنصفْ الناسَ مِن نفسِك ومِن خاصّةِ أهلِك ومَن لك فيه هوًى مِن رعيّتك (٥) ، فإنك إلاّ تفعلْ تظلِم ! ومَن ظلمَ عبادَ الله كان اللهُ خصمَه دون عباده . وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمةِ الله وتعجيلِ نقمته مِن إقامةٍ على ظلم ، فإنّ الله سميعٌ دعوةَ المضطهَدين وهو للظالمين بالمِرصاد .

ولْيكنْ أحبُّ الأمور إليك أوسطَها في الحقّ ، وأعمَّها في العدل وأجمَعها لرضا الرعية ، فإنّ سُخْطَ العامّة يُجحفُ برِضا الخاصة .

١ — الشح : البخل . يقول : انتصف من نفسك في ما أحبت وكرهت . أي ابخل بها ولا تمكّنها من الاسترسال في ما أحبّت . واحرص على صفائها كذلك بأن تحملها على ما تكره إن كان ذلك في الحق .
٢ — يفرط : يسبق . الزلل : الخطأ .
٣ — يؤتى على أيديهم : تأتي السيئات على أيديهم .
٤ — بجح بالشيء : فرح به . البادرة : ما يبدر من الحدة عند الغضب في قول أو فعل . المندوحة : المتّسع الذي يمكّن المرء من التخلّص .
٥ — من لك فيه هوى . أي : من تميل اليه ميلاً خاصاً .

وإنَّ سُخط الخاصّة يُغْتَفَر مع رِضا العامّة (١) . وليس أحدٌ من الرعيّة أثقلَ على الوالي مؤونةً في الرّخاء وأقلَّ معُونةً له في البَلاء ، وأكرَهَ للإنصاف ، وأسألَ بالإلحاف (٢) ، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند مُلمّات الدهرِ ، مِن أهلِ الخاصة (٣) .

أطلقْ عن الناس عُقدةَ كلِّ حقد ، واقطع عنك سببَ كلِّ وَتْر (٤) ، ولا تَعْجلَنَّ إلى تصديق ساعٍ فإنَّ الساعي غاشٌ وإنْ تَشَبَّهَ بالناصحين .

إن شرَّ وزرائك مَن كان للأشرار قبلَك وزيرا ، ومَن شَرِكَهم في الآثام ، فلا يكوننَّ لكَ بِطانةً (٥) فإنهم أعوانُ الأثَمَةَ وإخوانُ

١ ـ يحجف : يذهب . يقول للحاكم : إذا رضي عليك الخاصة وسخط عليك العامة ، فلا ينفعك رضا أولئك مع سخط هؤلاء . أما إذا رضي عليك العامة ، وهؤلاء لا يرضيهم إلا العدل ، فسخْط الخاصة مغتفر .

٢ ـ الإلحاف : الإلحاح .

٣ ـ يقول : ليس هنالك من هم أثقل على الحاكم ، وأقل نفعاً له وأكثر ضرراً عليه من خاصته والمتقربين اليه من ذوي الثروة والوجاهة يلازمونه ويلحون عليه في قضاء حاجاتهم ويرهقونه بالمسائل والشفاعات ويغنمون عن سبيله المغانم ويثرون على حساب العامة ، ثم يجحدون كل ذلك ولا يساندون الحاكم أو الجمهور في نائبة أو أزمة . فهم لذلك فئة يجب على الحاكم الصالح أن ينبذها ويعتمد على العامة دون سواهم .

٤ ـ الوتر : العداوة : يقول : احلل عقدة الأحقاد من قلوب الناس بالعدل فيهم وحسن السيرة معهم . واقطع السبب في عداء الناس لك بالإحسان اليهم قولاً وعملاً .

٥ ـ البطانة : الخاصة .

الظَّلَمَة (١) ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلَف ممّن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه . ثم لِيكنْ آثرُهم عندك أقولَهم بمُرّ الحق لك (٢) وأقلّهم مساعدةً في ما يكونُ منك ممّا كرهَ اللهُ لأوليائه واقعاً [ذلك] من هواك حيث وقع . والصَقْ بأهل الورَع والصدق ثم رُضْهُمْ على أن لا يُطروك ولا يَبْجَحوك بباطلٍ لم تفعله (٣) .

ولا يكونَنَّ المحسنُ والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سَوَاء ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ! وألزِمْ كلاًّ منهم ما ألزمَ نفسه (٤) واعلمْ أنه ليس شيءٌ بأدعى إلى حسن ظنٍّ راعٍ برعيّته من إحسانه إليهم (٥) وتخفيفِه المؤونات عنهم ، وتركِ استكراهه إياهم على ما ليس قِبَلَهُمْ (٦) ، فليكنْ منك في ذلك أمرٌ يجتمعُ لك به

١ ــ الأثمة : جمع آثم . الظلمة : جمع ظالم .

٢ ــ آثرهم : أفضلهم . مرارة الحق . صعوبته . يقول : ليكن أفضل وزرائك وأعوانك في نظرك أصدقهم وأكثرهم قولاً بالحق مهما كان الحق صعباً على نفسك .

٣ ــ رضهم : عوّدهم . يطروك : يطنبوا في مدحك . يبجحوك بباطل لم تفعله : يفرّحوك بأن ينسبوا اليك عملاً عظيماً لم تكن فعلته .

٤ ــ أي : أحسن الى المحسن بما ألزم نفسه ، وهو استحقاق الإحسان . وعاقب المسيء بما ألزم نفسه كذلك ، وهو استحقاق العقاب .

٥ ــ ليس هنالك ما يحمل الوالي على الاطمئنان إلى أن قلوب الناس معه كالاحسان اليهم والعدل فيهم وتخفيف الاثقال عن كواهلهم . وهم في غير هذه الحال أعداء له ينتهزون الفرصة للثورة عليه ، وإذ ذاك يسوء ظنه بهم .

٦ ــ قبلهم ، بكسر ففتح : عندهم .

حُسنُ الظنّ برعيّتك ، وإنّ أحقَّ مَن حَسُنَ ظنُّك به لَمَنْ حَسُنَ بلاؤك عنده ، وإنّ أحقَّ من ساء ظنُّك به لَمَنْ ساء بلاؤك عنده (١) .

وأكثِرْ مدارسةَ العلماء ومناقشةَ الحكماء (٢) في تثبيت ما صَلُحَ عليه أمرُ بلادك ، وإقامةِ ما استقام به الناسُ قَبلك .

وَلِّ من جنودك أنصَحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيباً وأفضلَهم حِلماً : ممّن يُبطىءُ عن الغضب ، ويستريحُ إلى العُذر ، ويرأفُ بالضعفاء ، وينبو على الأقوياء (٣) وممن لا يُثيره العنف ، ولا يَقعُد به الضعف .

وإنّ أفضلَ قُرّة عين الوُلاة استقامةُ العدل في البلاد ، وظهورُ مودّة الرعية ، وإنه لا تَظهرُ مودّتُهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصِحُّ نصيحتُهم إلاّ بحيطتهم على ولاة الأمور وقلّةِ استثقال دُوَلهم (٤) .

ثم اعرفْ لكلِّ امرىء منهم ما أبلى ، ولا تُضيفَنَّ بَلاء امرىء إلى

١ ــ البلاء : الصنع ، حسناً أو سيئاً .

٢ ــ المنافثة : المحادثة .

٣ ــ ينبو : يشتدّ ويعلو . يأمر الحاكم بأن يولّي من جنوده من لا يضعف أمام الأقوياء والأثرياء والنافذين بل يعلو عليهم ويشتدّ ليمنعهم من ظلم الضعفاء والفقراء والبسطاء .

٤ ــ الحيطة ، بكسر الحاء : مصدر « حاط » بمعنى : صان وحفظ ، يقول : ان مودة الرعية لا تظهر ونصيحتهم لا تصحّ إلا بقدر ما يرغبون في المحافظة على ولاتهم ويحرصون على بقائهم ولا يستثقلون مدة حكمهم .

غيره (١) ، ولا يدعوَنّكَ شَرَفُ امرىء إلى أن تُعظِّمَ من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضَعَةُ امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما .

ثم اخترْ للحُكم بينَ الناسِ أفضلَ رعيّتِك في نفسك (٢) ممَّن لا تضيق به الأمور ولا تُمحِكُه الخُصوم (٣) ولا يتمادى في الزلّة ، ولا تُشرفُ نفسُه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه (٤) ، وأوقفَهم في الشُّبُهات (٥) وآخذَهم بالحُجَج ، وأقلَّهم تبرُّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرَهم على تكشُّف الأمور ، وأصرمَهم عند اتّضاع الحق ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثِرْ تعَاهُدَ قضائه (٦) وأفسِحْ له في البذل ما يُزيل علّتَه وتقلُّ معه حاجتُه الى الناس وأعطِه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيرُه مِن خاصّتِك ليأمن بذلك اغتيالَ الرجال له عندك .

ثم انظر في أمور عُمّالك فاستعملْهم اختباراً ، ولا تُولِّهم محاباةً

١ — لا تنسبَنَّ صنيع امرىء إلى غيره .

٢ — انتقال من الكلام في الجند الى الكلام في القضاة .

٣ — تُمحكه : تغضبه .

٤ — لا يكتفي بما يبدو له بأول فهم وأقربه ، بل يتأمل ويدرس حتى يأتي على أقصى الفهم وأدناه من الحقيقة .

٥ — الشبهات : جمع شبهة ، وهي ما لا يتضح الحكم فيها بالنص ، فينبغي العمل لردّ الحادثة التي ينظر فيها إلى أصل صحيح .

٦ — أي : تتبع قضاءه بالاستكشاف والتعرف .

وأثَرة فإنهم جِمَاعٌ مِن شُعَبِ الجور والخيانة (١) . ثم تفقَّدْ أعمالهم وابعث العيون (٢) من أهل الصدقِ والوفاء عليهم ، فإنَّ تَعاهُدَك في السرِّ لأمورِهم حَدْوة لهم (٣) على استعمال الأمانة والرفقِ بالرعية . وتَحفَّظْ منَ الأعوان فإنْ أحدٌ منهم بَسَطَ يده إلى خيانة اجتمعتْ بها عليه (٤) عندك أخبارُ عيونِك اكتفيتَ بذلك شاهداً فبسطتَ عليه العقوبةَ في بدنه ، وأخذتَهُ بما أصاب مِن عملِه ، ثم نصبتَه بمقام المذلّة ، ووسمتَه بالخيانة ، وقلّدتَه عارَ التهمة .

وتفقّدْ أمر الخَرَاج بما يُصلحُ أهلَه ، فإنَّ في صلاحِه وصلاحِهم صلاحاً لمَن سِواهم . ولا صلاحَ لمَن سِواهم إلا بِهم ، لأنَّ الناسَ كلّهم عيالٌ على الخَرَاج وأهله . وليكنْ نظرُك في عِمَارة الأرض أبلغَ من نظرك في استجلاب الخراج لأنَّ ذلك لا يُدرَك إلاَّ بالعِمارة . ومَن طلب الخَرَاج بغير عِمارة أخربَ البلاد وأهلَكَ العباد ولم يستقم أمره إلاَّ قليلا . ولا يثقُلَنَّ عليك شيءٌ خفّفتَ به المؤونة عنهم فإنه ذُخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك .

وإن العُمرانَ مُحتَملٌ ما حمّلتَه ، وإنما يُؤتى خرابُ الأرض من

١ ــ أي : ولّهم الأعمال بالاختبار والتجربة ، لا ميلاً منك لمعاونتهم ولا استبداداً منك برأيك ، فإن المحاباة والأثرة يجمعان الظلم والخيانة معاً .

٢ ــ العيون : الرقباء .

٣ ــ حدوة : سَوق وحثّ .

٤ ــ اجتمعت عليها أخبار عيونك : اتفقت عليها أخبار رقبائك .

إعواز أهلها ، وإنما يُعْوِزُ أهلُها لإشراف أنفس الولاة على الجمع (١) وسوء ظنهم بالبقاء وقلّة انتفاعهم بالعِبَر .

ثم انظر في حال كتّابك فولِّ على أمورك خيرَهم ، ممّن لا يجهلُ مبلغَ قدْرِ نفسه في الأمور ، فإنّ الجاهل بقَدْرِ نفسه يكونُ بقدر غيره أجهَل . ثم لا يكنِ اختيارك إياهم على فِراستك واستنامتِك (٢) وحُسن الظنّ منك ، فإنّ الرجال يتعرّفون لفِراسات الوُلاة بتصنُّعِهم وحُسن خدمتهم (٣)، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء . ومهما كان في كتّابك من عيبٍ فتغابيتَ عنه أُلزِمْتَه (٤) .

ثم استوصِ بالتجّارِ وذوي الصِّناعات وأوصِ بهم خيراً : المقيمِ منهم والمضطربِ بماله (٥) ، فإنهم موادّ المنافعِ وأسبابُ المَرافِقِ ، وتفقّدْ أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك . واعلمْ مع ذلك أنّ في كثيرٍ منهم ضيقاً فاحشاً وشُحّاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكّماً في البِياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامّة وعيبٌ على الولاة ، فامنعِ من الاحتكار فإن رسول الله صلى

١ ـ إشراف انفس الولاة على الجمع : تطلّعهم الى جمع المال وادّخاره لأنفسهم طمعاً وجشعاً .

٢ ـ الفراسة : قوة الظن وإدراك الباطن من النظر في الظاهر . الاستنامة : الاطمئنان إلى حسن الرأي . أي : لا يكن اختيارك للكتاب متأثراً بميلك الخاص وفراستك التي قد تخطىء .

٣ ـ أي يخدمون الولاء بما يطيب لهم توسُّلاً إلى حسن ظنّ هؤلاء بهم .

٤ ـ إذا تغابيت عن عيب في كتابك كان ذلك العيب لاصقاً بك .

٥ ـ المتردد بأمواله بين البلدان .

الله عليه وسلّم منع منه . وليكن البيع بيعاً سمحاً : بموازين عدل ، وأسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (١) فمَن قارَفَ حُكْرةً بعد نَهيك إياه فنكّلْ به وعاقبْه في غير إسراف (٢) .

ثم يتحدّث الإمام في رسالته هذه إلى مالك الأشتر عن الطبقة المعوزة فيقول :

واحفظ لله ما استحفظك مِن حقّه فيهم ، واجعل لهم قِسماً من بيت مالك فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكلٌ قد استُرعيتَ حقّه ، فلا يَشْغَلنّك عنهم بطرٌ (٣) فإنك لا تُعذَرُ بتضييعك التافهَ (٤) لإحكامك المهمَّ ؛ فلا تُشخصْ همّك عنهم (٥) ولا تُصعّرْ خدّك لهم (٦) وتفقّدْ أمور مَن لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمُه العيون (٧) وتَحقِره الرجال ، فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصاف من غيرهم . وتَعَهّدْ

---

١ ـ المبتاع : المشتّري .

٢ ـ قارف : خالط . الحكرة : الاحتكار . نكل به : أوقع به العذاب عقوبة له . يقول : من احتكر بعد النهي عن الاحتكار عاقبه لكن من غير إسراف في العقوبة يتجاوز عن حد العدل فيها .

٣ ـ البطر : طغيان النعمة .

٤ ـ يقول : لا عذر لك بإهمالك القليل إذا أحكمتَ الكثير .

٥ ـ لا تشخص همك عنهم : لا تصرف همك عنهم .

٦ ـ صعّر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبرا .

٧ ـ تقتحمه العيون : تكره أن تنظر اليه احتقاراً .

أهلَ اليُتم وذوي الرقّة في السن (١) ممّن لا حيلةَ له ، ولا يَنصِبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل ، والحقُّ كلّه ثقيل !

واجعل لذوي الحاجات منك قِسْماً تُفرّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتُقعِدُ عنهم جُندَك وأعوانك (٢) من أحراسك وشُرَطِك حتى يكلّمك متكلّمُهم غيرَ مُتَتَعْتِـع (٣) فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في غير موطن (٤) : « لن تُقدّس أمّة لا يُؤخذ للضعيف فيها حقّه من القويّ غير مُتَتَعتِـع ! » ثم احتمِلِ الخُرْقَ منهم والعِيَّ (٥) ونَحِّ عنهم الضيقَ والأنَفَ (٦) .

ثم أمورٌ من أمورك لا بدَّ لك من مباشرتها : منها إجابةُ عُمّالك بما يعيا عنه كُتّابُك . ومنها إصدارُ حاجات الناس يومَ ورودها عليك بما تَحْرَجُ به صدورُ أعوانك (٧) . وأمضِ لكلِّ يومٍ عمَلَه فإنّ لكلِّ يومٍ ما فيه .

١ ــ ذوو الرقة في السن : المتقدمون فيه .

٢ ــ أي : تأمر بأن يقعد عنهم جندك وأعوانك وبألا يتعرضوا لهم .

٣ ــ التعتعة في الكلام : التردد فيه من عجز وعيّ ، أو من خوف .

٤ ــ في مواطن كثيرة .

٥ ــ الخرق : العنف . العي : العجز عن النطق . أي : لا تضجر من هذا ولا تغضب من ذاك .

٦ ــ الأنَف : الاستنكاف والاستكبار .

٧ ــ تحرج : تضيق . يقول : إن الأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ، ويحبون المماطلة في قضائها ، استجلاباً للمنفعة أو إظهاراً للجبروت .

ولا تُطوِّلنَّ احتجابك عن رعيّتك ، فإن احتجاب الولاة عن الرعيّة شُعبةٌ من الضيق وقلّةُ علمٍ بالأمور . والاحتجابُ منهم يقطعُ عنهمْ علمَ ما احتجبوا دونَه فيصغُرُ عندهم الكبير ويعظُمُ الصغير ، ويَقبحُ الحسَنُ ويحسُنُ القبيح ، ويُشابُ الحقّ بالباطل . وإنما الوالي بَشَرٌ لا يعرفُ ما توارى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحقّ سِماتٌ (١) تُعرَفُ بها ضروب الصدق من الكَذِب ، وإنما أنت أحدُ رجلَين : إمّا امرؤٌ سَخَتْ نفسُه بالبذل في الحق ففيمَ احتجابُك (٢) من واجبِ حقٍّ تعطيه أو فعلٍ كريمٍ تُسديه ؟ أو مُبتلىً بالمنع فما أسرعَ كَفَّ الناسِ عن مسألتك إذا أيسُوا من بَذْلِك (٣) ، مع أنّ أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شَكَاة مَظْلَمةٍ أو طلبِ إنصافٍ في معاملة .

ثم إنّ للوالي خاصّةً وبطانةً فيهم استئثارٌ وتطاوُل ، وقلّة إنصاف في معاملة ، فاحسِمْ مادّةَ أولئك بقطعِ أسباب تلك الأحوال (٤) ولاتُقطِعَنَّ لأحدٍ من حاشيتك وحامّتِك قطيعةً (٥) ولا يَطمعَنَّ منك في اعتقادِ عُقدةٍ تضرُّ بمن يليها من الناس في شربٍ أو عملٍ مُشترَكٍ يحملون مؤونته على

١ ـ سمات : علامات .

٢ ـ لأي سبب تحتجب عن الناس في أداء حقهم ، أو في عمل تمنحهم إياه ؟

٣ ـ يقول : وإنْ قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا الى البعد عنك ، فلا حاجة للاحتجاب .

٤ ـ احسم : اقطع . يقول : اقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعدّيهم ، وإنما يكون ذلك بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرّف في شؤون العامة .

٥ ـ الاقطاع : المنحة من الأرض . القطيعة : الممنوح منها . الحامة : كالطّامة : الخاصة والقرابة . الاعتقاد : الامتلاك . العقدة : الضيعة .

غيرهم فيكونَ مَهْنأُ ذلك (١) لهم دونك ، وعيبُه عليك في الدنيا والآخرة .

والزمِ الحقَّ مَن لزِمهُ من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً مُحتسِباً ، واقعاً ذلك مِن قَرابتك وخاصّتك حيثُ وقَع ، وابتغِ عاقبتَه بما يَثقُل عليك منه ، فإنّ مغبّة ذلك محمودة (٢) .

وإنْ ظنّت الرعيّةُ بك حَيْفاً فأصحِرْ (٣) لهم بعُذرك ، واعدِلْ عنك ظنونَهم بإصحارك فإنّ في ذلك رياضة منك لنفسك (٤) ورِفقاً برعيّتك وإعذاراً (٥) تَبلُغُ به حاجتك من تقويمهم على الحق .

ولا تَدْفعَنّ صُلحاً دعاك إليه عدوُّك ولله فيه رِضاً ، فإنّ في الصلح دَعَةً لجنودك وراحةً مِن همومك وأمناً لبلادك . وإن عقدتَ بينَك وبين عدوّك عُقدةً أو ألبستَه منك ذمّة فحُطْ عهدك بالوفاء وارعَ ذمّتك بالأمانة واجعلْ نفسك جُنّةً دون ما أعطيت (٦) ولا تَغْدِرَنّ بذمّتك ولا تَخيسَنّ بعهدك

١ ــ المهنأ : المنفعة الهنيئة .

٢ ــ المغبة : العاقبة ، يقول : إن إلزام الحق لمن لزمهم ، وإنْ ثقل على الوالي وعليهم ، محمود العاقبة بحفظ الدولة .

٣ ــ الحيف : الظلم . أصحر بهم : ابرز لهم .

٤ ــ رياضة منك لنفسك : تعويداً لنفسك على العدل .

٥ ــ الإعذار : تقديم العذر أو إبداؤه .

٦ ــ أصل معنى الذمة : وجدان مودع في جبلة الانسان ينبهه لرعاية حق ذوي الحقوق ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها ، ثم أطلقت على معنى العهد . الجنة : الوقاية . يقول : حافظ بروحك على ما أعطيت من العهد .

ولا تَختِلَنَّ (١) عدوّك . ولا تَعقِدْ عَقْداً تُجوِّزُ فيه العِلَل (٢) ولا تُعَوِّلَنَّ على لحنِ قولٍ بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يَدعونّك ضِيقُ أمرٍ لَزِمَك فيه عهدُ الله إلى طَلبِ انفساخهِ بغير الحقّ (٣) .

ولا تُقوِّيَنَّ سلطانك بسفك دمٍ حرام ، فإنّ ذلك ممّا يُضعفه ويوهنُه بل يُزيله وينقلُه ، ولا عذرَ لك عند الله ولا عندي في قتل العمْد !

وإيّاك والمنَّ على رعيّتك بإحسانك ، أو التزيُّد في ما كان مِن فعلك (٤) أو أن تَعِدَهم فتُتبِعَ موعدك بخُلْفك ، فإنّ المنّ يُبْطل الإحسان ، والتزيُّدَ يذهب بنور الحق ، والخُلفَ يوجب المقت عند الله والناس .

وإياك والعجلةَ بالأمور قبلَ أوانها ، أو التسقُّطَ فيها عند إمكانها (٥) أو الوَهْنَ عنها إذا استوضحتْ . فضع كلَّ أمر موضعَه ، وأوقعْ كلَّ أمر موقعه .

١ ـ خاس بعهده : خانه ونقضه . الختل : الخداع .

٢ ـ العلل : جمع علة وهي في النقد والكلام بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوّله الى غير المراد ، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته .

٣ ـ لحن القول : ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض . يقول : إذا ربت ثقلاً من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملص منه ، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك .

٤ ـ التزيّد : إظهار الزيادة في الأعمال والمبالغة في وصف الواقع منها في معرض الافتخار .

٥ ـ التسقط : يريد به هنا : التهاون .

وإياك والاستئثارَ بما الناسُ فيه أُسوة (١) ، والتغابي عما تُعنى به مما قد وضَح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك ، وعمّا قليل تنكشفُ عنك أغطية الأمور ويُنتصَف منك للمظلوم . إملِكْ حميّة أنفك (٢) وسَورةَ حدّك وسطوةَ يدك وغَرْبَ لسانك (٣) واحترِسْ من كلّ ذلك بكفّ البادرة (٤) وتأخير السطوة حتى يسكن غضبُك فتملك الاختيار .

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لِمَنْ تقدّمك من حكومة عادلة أو سنّة فاضلة ، وتجتهدَ لنفسك في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا ، واستوثقتُ به من الحجّة لنفسي عليك ، لكي لا تكون لك علّةٌ عند تسرُّع نفسك إلى هواها . وأنا أسأل الله أن يوفّقني وإياك لِمَا فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح اليه وإلى خلقه (٥) .

---

١ ــ احذر أن تخصّ نفسك بشيء تزيد به عن الناس ، وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامة .

٢ ــ أي : أملك نفسك عند الغضب .

٣ ــ السورة : الحدة : والحد : البأس . والغرب : الحد ، تشبيهاً للسان بحدّ السيف ونحوه .

٤ ــ البادرة : ما يبدر من اللسان عند الغضب ، وإطلاق اللسان يزيد الغضب اتقاداً . والسكون يطفيء من لهبه .

٥ ــ يريد من العذر الواضح : العدل ، فإنه عذر لك عند من قضيت عليه ، وعذر عند الله في من أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة .

حُدودُ الضّريبة

من وصية كان الإمام يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهي تزخر بحنان الحاكم — الأب — على أبنائه ، وتصلح لأن تدخل في دستور الدولة المثالية التي يحلم بها صفوة الخلق :

إذا قدمتَ على الحيّ فانزلْ بمائهم من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم امضِ إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلّمَ عليهم ، ولا تُخدِجْ بالتحية لهم (١) ، ثم تقول :

عبادَ الله ، أرسلني إليكم وليّ الله وخليفتُه لآخذَ منكم حقَّ الله في أموالكم . فهل لله في أموالكم من حقّ فتؤدّوه إلى وليّه ؟

فإن قال قائل : لا ! فلا تراجعْه . وإن أنعم لك مُنعم (٢) فانطلقْ معه من غير أن تخيفه وتُوعدَه أو تَعْسِفَه أو ترهقه (٣) ! فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضّة . فإن كان له ماشيةٌ أو إبلٌ فلا تدخلْها إلا بإذنه. فإذا أتيتَها فلا تدخلِ عليها دخول متسلّط عليه ولا عنيفٍ به ، ولا تُنفّرنَّ بهيمة ولا تفزّعنَّها ولا تسوءنَّ صاحبَها فيها. واصدع المال صَدعين (٤) ثم خيّره :

١ — أخدجت السحابة : قلّ مطرها .

٢ — أنعم لك منعم ، أي : قال لك : نعم .

٣ — تعسفه : تأخذه بشدة . ترهقه : تكلفه ما يصعب عليه .

٤ — أي : اقسمه قسمين .

فإذا اختار فلا تَعَرَّضَنَّ لِمَا اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاءٌ لحقّ الله في ماله ، فاقبض حقّ الله منه . فإن استقالك فأقِلْهُ (١)، ثم اخلطهما ، ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله .

السفهاء والتجار

من كتاب بعث به الإمام الى أهل مصر
مع مالك الاشتر لما ولاّه إمارتها :

إني والله لو لقيتُهم واحداً وهُمْ طِلاع الأرض كلّها (٢) ما باليتُ ولا استوحشتُ . وإني من ضلالهم الذي هم فيه والهدى الذي أنا عليه لَعَلى بصيرةٍ من نفسي ويقينٍ من ربّي ، ولكنني آسى (٣) أن يليَ أمرَ هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها فيتّخذوا مالَ الله دُوَلاً وعبادَه خَوَلاً (٤) والصالحين حرباً والفاسقين حِزباً ، فلولا ذلك ما أكثرتُ تأليبكم وتأنيبكم وجمعَكم وتحريضكم !

١ ـ أي : فإن ظنّ في نفسه سوء الاختيار وأنّ ما أخذتَ منه من الزكاة أكرم مما في يده ، وطلب الإعفاء من هذه القسمة ، فاعفه منها ، واخلط ، وأعد القسمة .

٢ ـ الطلاع : ملء الشيء . يقول : لو كنتُ واحداً وهم يملأون الأرض للقيتُهم غير مبال بهم . والضمير يعود هنا على خصومه ومحاربيه من وجهاء ذلك الزمان .

٣ ـ آسى : أحزن .

٤ ـ دولا ، جمع دولة « بالضم » : أي شيئاً يتداولونه بينهم ويتصرفون به في غير حق الله . الخول : العبيد .

المرتشي في الحكم

ومن كلام له :

أيتها النفوس المختلفة والقلوب المتشتّتة ، الشاهدةُ أبدانُهم والغائبةُ عنهم عقولُهم ! أظأرُكم على الحق (١) وأنتم تنفِرون عنه نفور المِعزى من وعوعة الأسد ! هيهاتِ أن أطلَعَ بكم سرارَ العدل (٢) أو أقيمَ اعوجاجَ الحق .

اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فُضول الحطام ، ولكن لنرِدَ المعالمَ من دينك ونُظهر الإصلاح في بلادك فيأمنَ المظلومون من عبادك .

وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي البخيلُ فتكونَ في أموالهم نَهْمَتُه ، ولا الجاهلُ فيُضلّهم بجهله ، ولا الجافي فيقطعَهم بجفائه ، ولا الحائفُ للدوَل (٣) فيتّخذَ قوماً دون قوم ، ولا المرتشي في الحكم فيذهبَ بالحقوق .

---

١ ـ أظأركم : أعطفكم .

٢ ـ سرار ، في الأصل : آخر ليلة من الشهر ، والمراد هنا : الظلمة . أي : أن اطلع بكم شارقاً يكشف عمّا عرض على العدل من الظلمة .

٣ ـ الحائف : الجائر الظالم . والدول ، جمع دولة ـ بالضم ـ وهي المال . وقد سمي المال « دولة » لأنه يُتَداوَل ، أي ينتقل من يد ليد .

مع المظلوم

من كلام له :

إني أريدكم لله وأنتم تريدوني لأنفسكم ! أيها الناس ، أعينوني على أنفسكم ، وآيمُ اللهِ لأنصفَنَّ المظلومَ مِن ظالمِه ، ولأقودَنَّ الظالمَ بِخزامته (١) حتى أورِدَه مَنْهل الحق وإنْ كان كارها !

المال للناس

• •

من كلام رائع كلّم به عبد الله بن زمعة ، وهو من أنصاره ، وذلك انه قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً . فقال :

إن هذا المال ليس لي ولا لك ! وجَنَاةُ أيديهم (٢) لا تكون لغير أفواههم !

١ — الخزامة : حلقة من شعر تُجعل في وترة أنف البعير ليُشدَّ فيها الزمام ويسهل قياده .

٢ — أي : جناة أيدي العامة .

أمانة

من كتاب له الى الأشعث بن قيس عامله على اذربيجان :

وإنَّ عَمَلَك ليس لك بطُعمة (١) ولكنه في عنقك أمانة .

ليس لك أن تفتات في رعية (٢) ، وفي يديك مالٌ من مال الله عزَّ وجلَّ ، وأنت من خزّانه حتى تسلّمه إليَّ ، ولعلّي أن لا أكون شرَّ وُلاتك (٣) والسلام .

لأضربنّك بسيفي

من كتاب له إلى بعض عمّاله وقد اختطف ما قدر عليه من أموال الأمة وهرب إلى الحجاز :

فلمّا أمكنتْك الشدّة في خيانة الأمّة أسرعتَ الكرّة وعاجلتَ الوثبة واختطفتَ ما قدَرتَ عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطافَ

١ – عملك : ما وليت لتعمله في شؤون الأمة . طعمة : المأكلة والمكسب .

٢ – تفتات : تستبد .

٣ – يرجو أن لا يكون شر المتسلطين عليه . ولا يحقّ الرجاء إلا إذا استقام .

الذئب الأزلَّ داميةَ المعزى الكسيرة (١) فحملتَه إلى الحجاز رحيبَ الصدر بحَمله غيرَ متأثّم من أخذه (٢).

كيف تُسيغُ شَراباً وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ فاتّقِ الله وارددْ إلى هؤلاء القوم أموالَهم، فإنك إنْ لم تفعلْ ثم أمكنني اللهُ منك لأعذِرَنَّ الى الله فيك (٣) ولأضربنَّك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلاّ دخل النار!

والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلتَ ما كانت لهما عندي هَوادة (٤) ولا ظَفِرا مني بإرادة حتى آخذَ الحقَّ منهما وأُزيلَ الباطلَ عن مَظْلمتِهما!

الوالي والرّشوة

من كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي الى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها:

أمّا بَعدُ يا ابنَ حُنَيف، فقد بَلَغني أن رجلاً مِن فِتْيَة أهل البصرة

١ ــ الأزلّ: السريع الجري. الكسيرة: المكسورة.
٢ ــ التأثم: التحرّز من الإثم، وهو الذنب.
٣ ــ اي: لأعاقبنّك عقاباً يكون لي عذرا عند الله من فعلتك هذه.
٤ ــ الهوادة: الصلح، أو الاختصاص بالميل.

دعاك إلى مأدبة فأسرعتَ إليها تُستطابُ لك الألوان وتُنقل إليك الجِفان (١) ، وما ظننتُ أنك تُجيب إلى طعام قومٍ عائلُهم مجفوٌّ (٢) وغنيّهم مدعوّ .

ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيه (٣) ، ومن طُعْمِه بقُرصَيه ! ألا وإنكم لا تَقدِرون على ذلك ، ولكنْ أعينوني بورع واجتهاد ، وعفّة وسَداد . فوالله ما كَنَزْتُ من دنياكم تبراً ، ولا ادّخرتُ من غنائمها وَفْرا ، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمرا ، ولا حُزتُ من أرضها شبرا . ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مُصَفّى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونَسائج هذا القزّ ، ولكنْ هيهات أنْ يغلِبني هواي ، ويقودَني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة ولعلّ بالحجاز أو اليمامة مَن لا طَمعَ له في القُرص (٤) ولا عهدَ له بالشِّبَع ! أوَأبيتُ مبطاناً وحولي بطونٌ غَرْثى وأكبادٌ حرّى (٥) ؟ أوَأقنع من نفسي بأن يقال أميرُ المؤمنين ولا أشاركهُم في مَكَارِهِ الدهر !؟ وكأني بقائلكم يقول : « إذا كان هذا قُوتَ ابن أبي طالب فقد قَعَدَ به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ؟ » ألا وإنّ الشجرةَ البرّية أصلبُ عوداً ، والروائعَ الخَضِرةَ أرقُّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خُمودا ! واللهِ لو تَظاهرتِ العربُ على قتالي لَمَا ولّيتُ عنها !

١ ــ تستطاب : يُطلب لك طيّبها . الألوان : أصناف الطعام . الجفان، جمع جفنة ، وهي : القصعة .

٢ ــ عائلهم : فقيرهم ومحتاجهم . مجفو : مطرود من الجفاء .

٣ ــ الطمر : الثوب الخلق .

٤ ــ القرص : الرغيف .

٥ ــ غرثى : جائعة . حرّى : عطشى .

الوالي والهوى

من كتاب له إلى الأسود بن قطيبة صاحب جند حلوان ، وهي إيالة من إيالات فارس :

أما بعد ، فإنّ الوالي إذا اختلف هواه (١) منعَه ذلك كثيراً عن العدل . فليكن أمرُ الناس عندك في الحق سَواءً ، فإنه ليس في الجور عِوَضٌ من العدل ، فاجتنب ما تنكر أمثاله (٢) .

واعلم أنه لن يُغنيك عن الحقّ شيءٌ أبداً ، ومن الحقّ عليك حِفْظُ نفسك ، والاحتسابُ على الرعية بجُهدك (٣) .

إخفض جناحك

من كتاب له الى بعض عماله :

واخفِضْ للرعية جَناحك وابسُطْ لهم وجهَك وألِنْ لهم جانبَك ،

١ ــ اختلف الهوى : جرى مع أغراض النفس حيث تذهب . ووحدة الهوى : توجُّهه الى أمر واحد ، وهو إجراء العدالة .

٢ ــ اي : ما لا تستحسن مثله لو صدر من غيرك .

٣ ــ الاحتساب على الرعية : مراقبة أعمالها وتقويم ما اعوجّ منها وإصلاح ما فسد .

وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية (١) ، حتّى لا يطمعَ العظماء في حيفِكَ (٢) ولا ييأسَ الضعفاءُ من عدلك !

عَلِّمِ الجاهِل

من كتاب له إلى قثم بن العباس ، وهو عامله على مكة :

علّم الجاهل وذاكر العالِمَ ، ولا يكن لك إلى الناس سفيرٌ إلاّ لسانُك ولا حاجبٌ إلاّ وجهُك . ولا تَحْجُبَنَّ ذا حاجةٍ عن لقائك بها فإنها إنْ ذِيدتْ عن أبوابك في أول وِرْدِها لم تُحمد فيما بعدُ على قضائها (٣) .

وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى مَن قِبَلَكَ (٤) من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضعَ الفاقة ، وما فَضَلَ عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه في مَن قِبَلَنا .

ومُر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكنٍ أجرا ...

---

١ ـ آس بينهم : شارك وسوِّ بينهم .

٢ ـ الحيف : الظلم .

٣ ـ ذيدت : دُفعت ومُنعت . الورد : الورود . يقول : إذا منعت الحاجة أول ورودها لا تُحمد على قضائها فيما بعد ، لأن حسنة القضاء لا تُذكر في جانب سيئة المنع .

٤ ـ قبلك : عندك .

الوالي الخائن

من كتاب له إلى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان في بعض ما ولاّه من أعماله :

ولئِن كان ما بَلَغني عنك حقّاً لَجَمَلُ أهلك وشِسْعُ نعلك خيرٌ منك (١) . ومَن كان بصفتك فليس بأهلٍ أنْ يُسَدَّ به ثغرٌ ، أو يَنفُذَ به أمر ، أو يُعلى له قَدْر ، أو يُشرَكَ في أمانة أو يؤمَن على خيانة (٢) فأقبلْ إليَّ حين يصلُ إليك كتابي هذا إنْ شاء الله .

الأخلاق الكريمة

من كتاب له الى الحارث الهمذاني :

واحذر كلَّ عملٍ يُعمل به في السرّ ويُستَحى منه في العلانية . واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكرَه أو اعتذر منه . ولا تحدّث الناس

---

١ ـ الجمل يضرب به المثل في الذلة والجهل . الشسع : سير بين الإصبع الوسطى والتي تليها في النعل ، كأنه زمام

٢ ـ أي : على دفع خيانة .

ملاحظة : قال الشريف الرضي : والمنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : إنه لَنظّارٌ في عِطفيه ، مختالٌ في بُرديه !

بكلّ ما سمعتَ به فكفى بذلك كذباً . ولا تردَّ على الناس كلَّ ما حدّثوك به فكفى بذلك جهلاً . وتجاوزْ عند المقدرة واحلُمْ عند الغضب واصفحْ مع الدولة (١) .

وإياك ومصاحبةَ الفُسّاق فإن الشرّ بالشرّ مُلحق . واحذر الغضب فإنه جُندٌ عظيمٌ من جنود ابليس !

أهلُ الجَشع وأهلُ الفقر

من خطبة له في أهل الجشع وأهل الفاقة :

وقد أصبحتم في زمنٍ لا يزدادُ الخير فيه إلا إدباراً ، والشرُّ فيه إلاّ إقبالاً ، والشيطانُ في هلاك الناس إلاّ طمعاً .

إضربْ بطرفك حيث شئتَ مِن الناس : هل تُبصر إلاّ فقيراً يكابد فقراً ، أو غنيّاً بدّلَ نعمةَ الله كفرا ؟ أين أخياركم وصُلَحاؤكم ، وأحراركم وسمحاؤكم ؟ وأين المتورّعون في مكاسبهم ؟ والمتنزّهون في مذاهبهم ؟ أليس قد ظعنوا جميعاً عن هذه الدنيا ؟ وهل خُلقتم إلاّ في حُثالة (٢) لا تلتقي بذمّهم الشفتان استصغاراً لقَدْرهم وذَهاباً عن ذكرهم . لَعَنَ الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المُنكَر العاملين به !

---

١ ـ أي عند ما تكون لك السلطة .

٢ ـ الحثالة : الرديء من كل شيء . والمراد هنا أدنياء الناس وصغار النفوس منهم .

القاضي الجاهل

من كلام له في صفة من يتصدّى
للحكم بين الناس وهو ليس أهلاً لذلك .

حتّى إذا ارتوى من آجنٍ واكتنز من غير طائلٍ (١) جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره » (٢) . فإن نزلت به إحدى المبهَمات هيّأ لها حَشْواً رَثّاً من رأيه ، ثم قَطَعَ به (٣) ؛ فهو من لَبْس الشُّبُهات في مثل نَسْج العنكبوت ، لا يدري أصاب أم أخطأ ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ . وإن أخطأ رَجا أن يكون قد أصاب (٤) .

جاهلٌ خبّاطٌ جَهالات (٥) ، يذرو الروايات كما تذرو الريحُ الهشيمَ (٦) .

---

١ ــ الماء الآجن : الفاسد المتغير الطعم واللون . شبّه الإمام مجهولات القاضي التي يظنها معلومات ، بالماء الآجن . اكتنز : جمع ما عده كنزاً . غير طائل : دون وخسيس .

٢ ــ التخليص : التبيين . التبس على غيره : اشتبه عليه .

٣ ــ المبهمات : المشكلات . الحشو : الزائد الذي لا فائدة فيه . الرث : الخلق البالي .

٤ ــ الجاهل بالشيء : من ليس على بيّنة منه . فإذا أثبتَه عرضتْ له الشُّبهة في نفْيه ، وإذا نفاه عرضتْ له الشبهة في إثباته . فهو في ضعف حكمه في مثل نسج العنكبوت ضعفاً ، ولا بصيرة له في وجوه الخطإ والإصابة . وقد جاء الإمام في تمثيل حاله بأبلغ ما يكون من التعبير عنه ، كما يقول ابن أبي الحديد .

٥ ــ خبّاط : صيغة مبالغة من خبط الليل ، إذا سار فيه على غير هدى . وقد شبه الامام الجهالات بالظلمات التي يخبط فيها السائر .

٦ ــ الهشيم : ما يبس من النبت وتفتّت . تذرو الريح الهشيم : تطيره فتفرقه وتمزقه .

لا يَحسَبُ العلمَ في شيء مما أنكرَه ، ولا يرى أنّ مِن وراء ما بلغَ مذهبا لغيره . وإنْ أظلم أمرٌ اكتتَمَ به لما يعلم مِن جهل نفسه (١) تَصرُخُ من جور قضائه الدماء وتعجُّ منه المواريث(٢) . الى الله أشكو من معشر يعيشون جُهّالاً ويموتون ضُلاّلاً ليس فيهم سِلعةٌ أبْوَرُ من الكتاب إذا تُلِيَ حقّ تِلاوتهِ ، ولا سِلعةٌ أنفقُ بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرّفَ عن مواضعه (٣) ، ولا عندَهم أنكرُ من المعروف ولا أعرَفُ مِن المُنكَر .

يحكم برأيه

من كلام له في بعض القضاة أيضاً :

ترِدُ على أحدهم القضية في حُكم من الأحكام فيحكمُ فيها برأيه . ثم ترِدُ تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه . ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّبُ آراءهم جميعاً ... (٤) وإلهُهم واحد ، ونبيُّهم واحد ، وكتابهم واحد !

---

١ ــ اكتتم به : كتمه وستره .

٢ ــ تعجّ : تصرخ . وصراخ الدماء وعج المواريث تمثيل لحدة الظلم وشدة الجور .

٣ ــ اذا تُلِي حق تلاوته : إذا أُخذ على وجهه وفُهم على حقيقته . والكتاب هو القرآن الكريم .

٤ ــ استقضاهم : ولاّهم القضاء . يصوّب آراءهم جميعاً : يفتي بأن آراءهم جميعاً صائبة ...

وعالمهم منافق

من كلامه في وصف أبناء زمانه :

واعلموا أنكم في زمانٍ القائلُ فيه بالحقِ قليلٌ ، واللسانُ عن الصدق كليلٌ ، واللازم للحق ذليل ، أهلُه معتكفون على العصيان ، فتاهُم عارمٌ (١) وشائبُهم آثمٌ وعالِمُهم منافق ، لا يعظّمُ صغيرُهم كبيرَهم ولا يَعُولُ غنيُّهم فقيرَهم !

يعملون في الشُّبهات

من خطبة له :

وما كلُّ ذي قلبٍ بلبيب ، ولا كلُّ ذي سمْع بسميع ، ولا كلُّ ناظر ببصير ، فيا عجبي ، وما لي لا أعجب ، مِن خطإ هذه الفِرَق على اختلاف حُجَجَها في دينها ! يعملون في الشُّبُهات ويسيرون في الشهوات . المعروف عندهم ما عرفوا ، والمُنْكَر عندهم ما أنكروا (٢) . مَفْزَعُهم في المعضلات إلى أنفسهم ، وتعويلُهم في المهمّات على آرائهم ،

١ ــ شرس : سيء الخلق .

٢ ــ أي : يستحسنون ما بدا لهم استحسانه ، ويستقبحون ما خطر لهم قبحه بدون رجوع الى دليل بيّن أو شريعة واضحة .

كأنَّ كلَّ امرئ منهم إمامُ نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعُرَى ثِقات وأسبابٍ مُحْكمات (١) .

زَجْرُ النَّفْس

من خطبة له :

عبادَ الله ، زِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا ، وحاسبوها قبل أن تحاسَبوا ، وتنفّسوا قبل ضيق الخِناق وانقادوا قبل عُنْفِ السياق (٢) واعلموا أنه مَن لم يعِنْ على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجرٌ ولا واعظ !

إيّاك

من كلام له لابنه الحسن :

يا بنيَّ ، إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضُرُّك . وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبعُد عنك أحوجَ (٣) ما تكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه (٤) . وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب : يُقرّبُ عليك البعيد ويُبعد عليك القريب !

---

١ ـ يثق كل منهم بخواطر نفسه كأنه أخذ منها بالعروة الوثقى ، على ما بها من جهل ونقص .

٢ ـ اي : انقادوا الى ما يطلب منكم بالحثّ الرفيق قبل أن تساقوا اليه بالعنف الشديد .

٣ ـ أحوج : حال من الكاف في « عنك » .

٤ ـ التافه : القليل .

الرّضا والسّخط

من كلام له :

أيها الناس ، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله ، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شِبَعُها قصير (١) وجوعُها طويل !

أيها الناس ، إنما يجمع الناسَ الرّضا والسُخطُ .

أيها الناس ، مَن سَلَكَ الطريقَ الواضحَ وردَ الماء ، ومَن خالف وقَع في التيه .

النّفاق والظّلم

من خطبة له :

ثم إياكم وتهزيعَ الأخلاقِ وتصريفها (٢) . وإن لسان المؤمن مِن وراء قلبه ، وإن قلب المنافق مِن وراء لسانه (٣) ، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم

---

١ ــ يقصد : الدنيا .

٢ ــ تهزيع الشيء : تكسيره . والصادق اذا كذب فقد انكسر صدقه ، والكريم إذا لؤم فقد انثلم كرمه . وتصريف الأخلاق : تقليبها بين حال وحال :

٣ ــ اي ان لسان المؤمن تابع لاعتقاده لا يقول إلا ما يعتقد . والمنافق يقول ما ينال به غايته الخبيثة ، فإذا قال شيئاً اليوم ينقضه غدا ، فيكون قلبه تابعاً للسانه .

بكلامٍ تَدَبّرهُ في نفسه : فإن كان خيراً أبداه ، وإن كان شراً واراه (١) . وإنّ المنافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه !

وأمّا الظلمُ الذي لا يُتركُ فظُلمُ العبادِ بعضهم بعضاً . وإن جماعةً في ما تكرهون من الحق خيرٌ من فرقةٍ في ما تحبُّون من الباطل (٢) ! طوبى لمن شَغَلَه عيبُه عن عيوب الناس ، فكان من نفسه في شُغُلٍ والناسُ منه في راحة !

العشيرة

من خطبة له :

أيها الناس ، إنه لا يَستغني الرجل ، وإن كان ذا مال ، عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم ، وهم أعظمُ الناس حيطةً من ورائه وألمّهم لشَعَثه (٣) وأعطفُهم عليه عند نازلةٍ إذا نزلت به .

ومَن يقبِضْ يدَه عن عشيرته فإنما تُقبَضُ منه عنهم يدٌ واحدة وتُقبَض منهم عنه أيدٍ كثيرة !

---

١ — واره : أخفاه .

٢ — أي : من يحافظ على نظام الالفة والاجتماع ، وإن ثقل عليه أداء بعض حقوق الجماعة وشقّ عليه ما تكلّفه به مرّ الحق ، فذلك هو الجدير بالسعادة ، دون من يسعى للشقاق وهدم نظام الجماعة ،وإن نال بذلك حقاً باطلاً وشهوة وقتية ، فقد يكون في حظه الوقتي شقاؤه الأبدي ، ذلك لأنه متى كانت الفرقة أصبح كل واحد عرضة لشرور سواه ، فولّت الراحة وفسدت حال المعيشة .

٣ — الحيطة : الرعاية . والشعث : التفرق والانتشار .

طبائع الإنسان

من كلام له في طبائع الانسان :

وله (١) موادُّ الحكمة وأضدادٌ من خلافها : فإنْ سَنَح له الرجاء أذلّه الطمع . وإن هاج به الطمعُ أهلكه الحرص . وإن عرَض له الغضب اشتدّ به الغيظ . وإن أسعدَه الرضا نسيَ التحفّظ (٢) . وإن ناله الخوف شغَله الحذر . وإن اتّسع له الأمن استلبتْه الغِرّة (٣) وإن أفاد مالاً أبطرَه الغنى (٤) . وإن أصابتْه مصيبةٌ فضَحه الجزَع . وإن عضّته الفاقة شغَله البلاء . وإن جَهَدَه الجوع قعد به الضعف . وإن إفرط به الشّبَع كظّتْه البطنة (٥) . فكلّ تقصير به مضرّ ، وكلّ إفراطٍ له مفسد !

الزّمانُ وأهله

ومن بديع قوله :

إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجلٌ الظنّ برجل لم تظهر

---

١ ــ أي للقلب .

٢ ــ التحفظ : التوقّي والتحرُّز من المضرّات .

٣ ــ الغرة : الغفلة . سلبته : ذهبت به عن رشده .

٤ ــ أفاد : استفاد .

٥ ــ كظته : كربته وآلمته . البطنة : امتلاء البطن حتى يضيق النفس .

منه خـَزْيةٌ (١) فقد ظلم ! وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظنَّ برجل فقد غرَّر (٢) !

كم من صائم

ومن كلامه في معنى الصوم والصلاة :

كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوعُ والظمأ . وكم من قائم (٣) ليس له من قيامه إلاّ السهر والعناء . حبّذا نومُ الأكياس وإفطارُهم !

أصناف الناس

من خطبة له في سوء طباع الناس بزمانه :

أيها الناس ، إنّا قد أصبحنا في دهر عـَنُود وزَمَن كَنود (٤) يُعَدّ فيه المحسنُ مسيئاً ، ويزداد الظالمُ عُتُوّاً ، لا ننتفع بما علمنا ولا نَسأل عمّا جهلْنا ولا نتخوّف قارعةً حتّى تحلّ بنا (٥) . فالناس على أربعة أصناف :

١ ـ الخزية : البلية تصيب الانسان فتذله وتفضحه

٢ ـ غرَّر : أوقع بنفسه في الغرر ؛ أي : الخطر .

٣ ـ أي : قائم للصلاة .

٤ ـ العنود : الجائر . الكنود : الكفور .

٥ ـ القارعة : الخطب .

منهم من لا يمنعهم الفسادَ إلاّ مَهانةُ نفسه وكَلالةُ حدِّه ونَضيضُ وفْره (١). ومنهم المُصْلتُ لسيفه والمعلنُ بشرِّه ، قد أشرطَ نفسَه وأوبَقَ دينَه لحُطامٍ ينتهزه أو مِقْنَبٍ يقودُهُ أو منبرٍ يَفْرَعُه (٢) . ولَبِئْسَ المَتْجَرُ أنْ ترى الدنيا لنفسك ثمنا . ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة . ولا يَطلبُ الآخرة بعمل الدنيا : قد طَامَنَ مِن شخصه وقارَبَ مِن خَطْوِه وشَمَّر مِن ثوبه وزخرفَ من نفسه للأمانة . واتَّخذ سَتْرَ الله ذريعةً إلى المَعْصِية . ومنهم مَن أبعده عن طلب المُلْك ضؤولة نفسهِ وانقطاع سببه : فَقَصَرَتْه الحالُ على حاله فتحلّى باسم القناعة وتَزَيَّنَ بلباس أهل الزّهادة !

وبقيَ رجالٌ غَضَّ أبصارَهم ذِكْرُ المرجِع وأراقَ دموعَهم خوفُ المحشَر . فهم بين شريد نادٍّ وخائفٍ مقموع وساكتٍ مكعوم وداعٍ مُخْلِص وثَكلانَ موجَع (٣) . قد أخملتْهُم التقيّة (٤) وشملتْهم الذِّلّة .

---

١ — أي : لايقعد بهم عن طلب الإمارة والسلطان إلا حقارة نفوسهم وضعف سلاحهم وقلة مالهم .

٢ — أصلت السيف : امتشقه . أشرط نفسه : هيأها وأعدّها للشر والفساد في الأرض . أوبق دينه : أهلكه . الحطام ، هنا : المال . ينتهزه : يغتنمه أو يختلسه . المقنب : طائفة من الخيل ، وإنما يطلب قود المقنب تعزّزاً على الناس وكبراً . فرَع المنبر : علاه .

٣ — نادّ : هارب من الجماعة الى الوحدة . المقموع : المقهور . المكعوم ، مِن كَعَم البعير ، أي: شدّ فاه لئلاّ يأكل أو يعض . الثكلان : الحزين .

٤ — أخمله : أسقط ذكره حتى لم يبقَ له بين الناس نباهة . التقية : اتّقاء الظلم بإخفاء الحال .

وقد وعظوا حتى مَلّوا وقُهروا حتى ذَلّوا وقُتلوا حتى قلّوا . فاتّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعظ بكم مَن بَعدَكم ، وارفضوها ذميمةً فإنها رفضتْ من كان أشغفَ بها منكم !

مَعَ كلّ ريح

ومن كلامه في ناس زمانه :

همَجٌ رعاعٌ أتباعُ كلّ ناعقٍ يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى رُكنٍ وثيق .

رُبّ صغير غلب كبيرًا

من كلام له :

إحذر الكلام في مجالس الخوف ، فإنّ الخوف يُذهل العقل الذي منه تستمدّ ، ويشغلُه بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي تروم نصْرتَهُ . واحذر الغضبَ ممّن يحملك عليه ، فإنّه مميتٌ للخواطر مانعٌ من التثبّت . واحذر المحافلَ التي لا إنصافَ لأهلها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والاستماع ، ولا أدبَ لهم يمنعهم من جَور الحُكم لك وعليك . واحذر كلام من لا يفهم عنك فإنه يُضجِرك . واحذر استصغار الخصم فإنه يمنع من التحفّظ ، ورُبّ صغيرٍ غلبَ كبيرا !

سراجه بالليل القمر

ومن خطبة له تحتوي قولاً رائعاً في محمد
والمسيح :

وقد كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم كافٍ لك في الأسوة ودليلٌ على ذمّ الدنيا وعيبها ، وكثرة مخازيها ومساويها إذ قُبضتْ عنه أطرافُها ووُطِئتْ لغيره أكنافُها وفُطم عن رضاعها وزُوِي عن زخارفها .

وإنْ شئتُ قلتُ في عيسى ابن مريم عليه السلام فلقد كان يتوسّد الحجرَ ويلبس الخشِنَ ، وكان إدامُه الجوعَ وسراجُه بالليل القمرَ ، وظلالُه في الشتاء مشارقَ الأرض ومغاربَها ، وفاكهتُه وريحانُه ما تُنبتُ الأرضُ للبهائم . ولم تكن له زوجةٌ تَفتِنُه ولا مالٌ يلفِتُه ولا طمعٌ يُذلّه ، دابّتُه رجلاه وخادمه يداه .

على منهاج المسيح

قال نوف البكالي : رأيت أمير المؤمنين
عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه
فنظر في النجوم ، فقال لي : يا نوف ، أراقدٌ

أنت أم رامق ؟ فقلت : بل رامق (١) .
قال :

طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ، أولئك قومٌ اتّخذوا الأرض بساطاً وترابَها فراشاً وماءها طيباً والقرآنَ شِعاراً والدّعاء دثاراً، ثم قَرَضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح !

إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال : إنها ساعةٌ لا يدعو فيها عبدٌ إلا استجيب له إلاّ أنْ يكون عشّاراً أو عريفاً أو شرطياً (٢) .

لا تقولوا بما لا تعرفون

من خطبة له في صفة الخيّرين :

عبادَ الله ، إنّ مِن أحبِّ عباد الله اليه عبداً قد ألزمَ نفسَه العدل فكان أولُ عدله نفيَ الهوى عن نفسه ، يصف الحقّ ويعملُ به ، لا يدعُ للخير غايةً إلاّ أمّها (٣) ولا مظنّةً إلاّ قصدَها (٤) .

أيها الناس ، لا تقولوا بما لا تعرفون ، فإنّ أكثر الحق في ما تنكرون ! واعذروا مَن لا حجّة لكم عليه !

---

١ ــ أراد بـ « الرامق » منتبه العينين ، في مقابلة الراقد بمعنى النائم .
٢ ــ العشار : من يتولى أخذ أعشار الاموال ، وهو المكاس . والعريف : من يتجسس على أحوال الناس وأسرارهم فيكشفها لأميرهم ، مثلاً . الشرطة : أعوان الحاكم .
٣ ــ أمّها : قصدها .
٤ ــ المظنّة : موضع ظن لوجود الخير .

منطقهم الصّوابُ ومشيهم التّواضع

رُوي أن صاحباً لابن أبي طالب يقال له « همام » قال له : يا أمير المؤمنين ، صف لي المتّقين حتى كأني أنظر اليهم ! فتثاقل الإمام عن جوابه قليلاً ، ثم قال في صفة المتّقين قولاً رائعاً كثيراً ، هذا بعضه :

أمّا بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى خلقَ الخَلق حين خلقَهم غنياً عن طاعتهم آمنــاً من مَعصيتهم ، لأنه لا تضُرُّه معصيةُ مَن عصاه ولا ولا تنفعُه طاعةُ من أطاعه ، فقسمَ بينهم معايشَهم ووضعهم من الدنيا مواضعَهم ، فالمتّقون فيها هم أهلُ الفضائل : منطِقُهم الصواب ومَلبَسُهم الاقتصادُ ومَشيُهُم التواضُع ، غَضُّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم ووقَفُوا أسماعَهم على العِلم النافع لهم ، نُزّلتْ أنفسُهم منهم في البلاء كما نُزّلتْ في الرّخاء (١) ، ولولا الأجَلُ الذي كُتبَ عليهم لم تستقرَّ أرواحُهم في أجسادهم طَرْفةَ عين .

لا يَرضَون مِن أعمالهم القليلَ ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم

---

١ — أي انهم إذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل في الله كأنهم في رخاء لا يجزعون ولا يهنون ، وإذا كانوا في رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة كأنهم في بلاء ، لا يبطرون ولا يتجبرون .

متّهِمون ، ومِن أعمالهم مشْفقون (١) : إذا زُكّي أحدُهم (٢) خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلمُ بنفسي مِن غيري ، وربّي أعلمُ بي مني بنفسي . اللهمّ لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنّون ، واغفِرْ لي ما لا يعلمون !

فمِن علامة أحدهم : أنك ترى له حزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وقصداً في غنىً (٣) ، وخشوعاً في عبادة ، وتجمُّلاً في فاقة ، وصبراً في شدّة ، ونشاطاً في هدًى ، وتحرُّجاً عن طمع (٤) . يمزُج الحلمَ بالعلم والقولَ بالعمل . الخيرُ منه مأمول ، والشرُّ منه مأمون . يعفو عمّن ظلمه ويعطي مَن حرَمه ويصل من قطَعَه ، بعيداً فُحشُهُ ليّناً قولُه حاضراً معروفُه ،لا يَحيف على مَن يبغض ولا يأثم في مَن يحب . يعترفُ بالحقّ قبلَ أن يُشهَد عليه . لا ينابز بالألقاب (٥) ولا يُضارُّ بالجار ولا يشمتُ بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرُجُ من الحق . نفسُه منه في عناء والناسُ منه في راحة . بُعدُهُ عمّن تَبَاعَدَ عنــه زهدٌ ونزاهة ، ودنوُّهُ ممّن دنا منه لينٌ ورحمة . ليس تَباعُدُه بكِبْرٍ وعظمة ولا دنوُّه بمَكْرٍ وخدعة .

---

١ أي : خائفون من التقصير فيها .

٢ ــ زكي : مدحه أحد .

٣ ــ قصدا : اقتصادا .

٤ ــ التحرج ، هنا : التباعد .

٥ ــ أي : لا يدعو غيره باللقب الذي يكرهه ويشمئزّ منه .

المنافقون

ومن خطبة له يصف فيها المنافقين :

يتلوّنون ألواناً ويفتنّون افتناناً (١) . لهم بكلّ طريقٍ صريعٌ (٢) ، وإلى كلّ قلبٍ شفيع ، ولكلّ شجوٍ دموع (٣) . يتقارضون الثناء (٤) ويتراقبون الجزاء . إن سألوا ألحفوا وإن عَذَلوا كشفوا (٥) وإن حكموا أسرفوا . قد أعدّوا لكلّ حقٍّ باطلاً ولكلّ قائمٍ مائلاً ولكلّ حيٍّ قاتلاً ، ولكل بابٍ مفتاحاً ولكلّ ليلٍ مصباحاً : يتوصلون الى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم ويُنفقوا به أعلاقَهم (٦) .

١ — يفتنّون : يأخذون في فنون من القول لا يذهبون مذهباً واحدا .

٢ — الصريع : المطروح على الأرض ، أي : انهم كثيراً ما خدعوا أشخاصاً أوقعوهم في الملكة .

٣ — الشجو : الحزن ، أي : يبكون تصنعاً متى ارادوا .

٤ — يتقارضون: كل واحد منهم يسلف الآخر ديناً ليؤديه اليه ، وكل يعمل للآخر عملاً يرتقب جزاءه منه .

٤ — كشفوا : فضحوا .

٦ — ينفقوا : يروّجوا . الأعلاق ، جمع علق ، وهو الشيء النفيس . والمراد : ما يزينونه من خداثعهم .

كان عليهم سرمداً

من كلام له في وصف من فارقوا الدنيا :

لا يُفزعهُم ورودُ الأهوال ولا يُحزنُهُم تنكّرُ الأحوال ، ولا يَحفِلون بالرواجف ولا يأذنون للقواصف ، غُيّباً لا يُنتَظَرون وشُهوداً لا يَحضرون ، وإنما كانوا جميعاً فتشتّتوا ، وما عن طول عهدِهم ولا بُعدِ محلّهم عميتْ أخبارُهم وصَمّت ديارهم (١) ، ولكنهم سُقُوا كأساً بدّلتْهم بالنُطقِ خرَساً وبالسمع صمماً وبالحركات سكوناً .

جيرانٌ لا يتآنسون وأحبّاء لا يتزاورون ، بليتْ بينهم عُرَى التعارف وانقطعتْ منهم أسبابُ الإخاء ، فكلُّهم وحيدٌ وهم جميع ، وبجانب الهجر وهم أخلاّء ، لا يتعارفون لليلِ صباحاً ولا لنهارٍ مساءً ، أيّ الجديدين ظَعَنوا فيه كان عليهم سَرْمَداً (٢) .

---

١ ـ صمّت : خرست عن الكلام . وخرس الديار : عدم صعود الصوت من سكانها .

٢ ـ الجديدان : الليل والنهار ، فإن ذهبوا في نهار فلا يعرفون له ليلا ، أو في ليل فلا يعرفون له نهاراً .

تحمله على أهوالها

ومن خطبة رائعة له في معنى الدنيا :

ساكنُها ظاعنٌ وقاطنُها بائن (١) تَميدُ بأهلها مَيدَانَ السفينة تَقصِفُها العواصفُ في لُجج البحار فمنهم الغَرِقُ ومنهم الناجي على بطونِ الأمواجِ تَحفِزُهُ الرياحُ بأذيالها وتَحمِلُهُ على أهوالها (٢) ، فما غرِقَ منها فليس بمستدرَك وما نجا منها فإلى مهلَك !

كانوا أطول أعمارا

من خطبة له في أحوال الدنيا :

أمّا بعد، فإني أُحذّركم الدنيا ، فإنها حُلوةٌ خَضِرة ، حُفّتْ بالشهوات وتحلّت بالآمال وتزيّنتْ بالغرور .

---

١ ــ بائن : مبتعد ، منفصل .

٢ ــ أي : منهم من هلك عند تكسر السفينة ومنهم من بقيت فيه الحياة فخلص محمولا على بطون الأمواج ، كأن الأمواج في انتفاخها كالحيوان المنقلب على ظهره وبطنه إلى أعلى . أما هذا الناجي الذي تدفعه الرياح ، فمصيره أيضاً إلى الهلاك ، بعد طول العناء .

لم يكن امرؤٌ منها في حَبْرةٍ (١) إلاّ أعقبتْه بَعدَها عَبرة ، ولم يلقَ في سَرّائِها بطناً إلا مَنَحتْه من ضرّائِها ظَهرا (٢) . وحَريٌّ إذا أصبحتْ له منتصرة أن تمسي له متنكّرة . وإنْ جانبٌ منها احلَولى ، أمرَّ منها جانبٌ فأوبى (٣) . لا ينال امرؤٌ من غَضارتها رَغَباً (٤) إلا أرهقتْه من نوائبها تَعَباً ! ولا يمسي منها في جَناح أمن إلا أصبح على قوادمِ خوف (٥) !

كم من واثقٍ بها قد فَجعَتْه ، وذي طُمأنينةٍ اليها قد صرعتْه ، وذي أُبَّهةٍ (٦) قد جعلتْه حقيراً ، وذي نخوةٍ قد ردّتْه ذليلا . مُلكُها مسلوب ، وعزيزُها مغلوب ، وموفورُها منكوب ، وجارُها محروب (٧) !

ألستم في مساكنِ مَن كان قَبلَكم أطولَ أعماراً ، وأبقى آثاراً ، وأبعدَ آمالاً ، وأعدَّ عديداً ، وأكثف جنودا ! تَعَبّدوا للدنيا أيَّ تعبُّد ، وآثروها أيَّ إيثار ، ثم ظعنوا عنها بغير زاد ! فهل بَلَغَكم أن الدنيا سَخَتْ لهم نفساً بفِديْة ، أو أعانتْهم بمعونة ، أو أحسنت لهم صحبة !

---

١ – الحبرة : المسرة والنعمة .

٢ – كنى بـ « البطن » عن الإقبال ، وبـ « الظهر » عن الإدبار .

٣ – أوبى : صار كثير الوباء .

٤ – الغضارة : النعمة والسعة . الرغب – بفتح الباء – الرغبة .

٥ – القوادم : أربع ريشات في مقدَّم جناح الطائر .

٦ – الأبهة : العظمة .

٧ – محروب : مسلوب المال .

ويل لسككم العامرة

ومن كلام له في مصير البصرة :

ويلٌ لِسِكَكِكُم العامرة (١) ، والدورِ المزخرفةِ التي لها أجنحةٌ كأجنحة النسور ، وخراطيمُ كخراطيم الفيَلة ، من أولئك الذين لا يُندَبُ قتيلُهم ، ولا يُفقَدُ غائبِهم . أنا كابُّ الدنيا لوجهها ، وقادِرُها بقدرِها وناظرُها بعينها !

اللهمّ قد انصاحت جبالنا

من خطبة له في الاستسقاء ، وهي من الخطب التي تزخر بالعاطفة والحنان ، وبالتواضع لخالق الكون وهيبة الوجود :

اللهمّ قد انصاحتْ جبالُنا (٢) ، واغبرّتْ أرضُنا ، وهامت دوابُّنا وتحيّرتْ في مَرابضها وعجّت عجيجَ الثّكالى على أولادها ، وملّتِ التّردّدَ في مراتعِها والحنينَ إلى مواردها . اللهمّ فارحم أنينَ الآنّة ، وحنينَ

١ ـ سكك ، جمع سكة : الطريق المستوي .

٢ ـ انصاحت : جفت أعالي بُقولها ويبست من الجدب .

الحائمة ! اللهمّ فارحم حَيرَتها في مذاهبها وأنينَها في مَوالجها (١) ! اللهم خرجنا إليك حين اعتكرتْ علينا حدابيرُ السنين وأخلفتْنا مخايلُ الجود (٢) ، فكنتَ الرجاء للمبتئس والبلاغَ (٣) للملتمس : ندعوك حين قنطَ الأنام ومُنع الغمام وهَلَكَ السوامّ (٤) أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتَك بالسَّحاب المنبعق والربيع المُغدق والنبات المونق سَحاً وابلاً (٥) تحيي به ما قد مات وترُدُّ به ما قد فات . اللهمّ سُقْيا منك محيية مُرْوِية ، تامّة عامة ، طيّبة مباركة ، هنيئة ، مَريعة ، زاكياً نَبْتُها ثامراً فرعُها (٦) ناضراً ورقُها ، تنعش بها الضعيفَ من عبادك وتحيي بها الميتَ من بلادك . اللهمّ سُقْيا منك تُعشبُ بها نِجادُنا (٧) وتجري بها وهادنا وتُخصبُ بها جَنَابُنا (٨) وتُقبل بها ثمارنا وتعيش بها مواشينا وتَنْدَى بها أقاصينا (٩) وتستعينُ بها ضواحينا من بركاتك الواسعة !

١ — مداخلها في المرابض .

٢ — مخايل ، جمع مخيلة ، كمصيبة ، وهي : السحابة تظهر كأنها ماطرة ثم لا تمطر . والجود : المطر .

٣ — البلاغ : الكفاية .

٤ — السوام : جمع سائمة وهي : البهيمة الراعية من الإبل ونحوها .

٥ — سحاً : صباً . الوابل : الشديد من المطر الضخم القطر .

٦ — زاكيا : ناميا . ثامرا : آتيا بالثمر .

٧ — النجاد جمع نجد ، وهو : ما ارتفع من الأرض .

٨ — الجناب : الناحية .

٩ — القاصية : الناحية أيضاً ، وهي بمعنى البعيدة عنّا من أطراف بلادنا ، في مقابلة « جنابنا » .

الغيبة

من كلام له في النهي عن غيبة الناس :

وإنما ينبغي لأهل العِصمة أن يرحموا أهلَ الذنوب والمَعْصية ، ويكونَ الشكرُ هو الغالبَ عليهم ، فكيف بالغائب الذي غاب أخاه وعيّرَهُ ببلواه ؟!

يا عبدَ الله ، لا تعجلْ في عيب أحدٍ بذنبه فلعلّه مغفورٌ له ، ولا تأمنْ على نفسك صغيرَ مَعْصيةٍ فلعلّك معذّب عليه !

يذهب اليوم ويجئ الغد

من خطبة له :

إعلموا ، عبادَ الله ، أنّ عليكم رَصَداً من أنفسكم (١) وعيوناً من جوارحكمْ ، وحُفّاظَ صدق يحفَظون أعمالكم وعددَ أنفاسكم لا تسترُكم منهم ظلمةُ ليلٍ داج ولا يُكنّكم منهم بابٌ ذو رتاج (٢) ، وإنَّ غداً من اليوم قريب .

---

١ ـ الرصد ، جمع راصد ، ويريد به رقيب الذمة وواعظ السر الوجداني الذي لا يغفل عن التنبيه ولا يخطيء في الإنذار والتحذير .

٢ ـ الرتاج : الباب العظيم إذا كان مُحكم الغَلَق .

يذهب اليومُ بما فيه ويجيء الغد لاحقاً به ، فكأنّ كلّ امرىء منكم قد بلغَ من الأرض منزلَ وَحْدتِه ، فيا له من بيتِ وحدة ومنزلِ وحشة ومَفْرَدِ غُربة !

آه من بُعد السفر

دخل ضرار بن حمزة الضبائي على معاوية، فسأله هذا عن الإمام علي ، فقال ضرار : فأشهد لقد رأيتُه في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم (١) ويبكي بكاء الحزين ، ويقول :

يا دنيا يا دنيا ، إليك عني ! أبي تعرَّضتِ ؟ أم إليَّ تَشَوَّفتِ ؟ لا حان حينُك (٢) ! هيهات ! غُرّي غيري ، لا حاجةَ لي فيك ، فعيشُك قصير ، وخطرُك يسير ، وأملُك حقير ! آه من قلّة الزاد ، وطول الطريق ، وبُعد السفر ، وعظيم المورد ! (٣)

---

١ ــ السليم : الملدوغ .

٢ ــ تعرض به : تصدّى له وطلبه . لا حان حينك : لا جاء وقت وصولك الى قلبي وتمكُّن حبك منه .

٣ ــ المورد : موقف الورود على الله في الحساب .

طبيعة الوجود

ومن خطبه التي تدل على إدراكه العميق لطبيعة الوجود وأحواله :

مع كل جُرعةٍ شَرَقٌ ، وفي كلّ أكلةٍ غَصَصٌ ، لا تنالون منها — يعني الدنيا — نعمةً إلا بفراق أُخرى ، ولا يُعمَّر معمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهدمِ آخرَ مِن أجَلِه ، ولا تُجدَّد له زيادة في أكلهِ إلاّ بنفاد ما قبلَها مِن رزقه ، ولا يحيا لَه أثَرٌ إلا مات له أثر ، ولا يتجدَّد له جديد إلا بعد أن يخلَقَ له جديد (١) ، ولا تقوم له نابتةٌ إلا وتسقطُ منه محصودة . وقد مضت أصولٌ نحن فروعُها !

وأجرى فيها قمراً منيراً

من خطبة له يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض :

ثم أنشأ سبحانه فَتْقَ الأجواء وشقَّ الأرجاء وسكائكَ الهواء (٢) فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّارُه متراكماً زخّارُه حَمَلَهُ على متن الريح

١ — يخلق : يبلى .
٢ — سكائك ، جمع سكاكة وهي : الهواء الملاقي عنان السماء .

العاصفة والزعزع القاصفة . ثم أنشأ سبحانه ريحاً أعصفَ مَجْراها فأمرَها بتصفيق الماء الزخّار (١) وإثارةِ موج البحار ، فمَخَضَتْه مخْضَ السِّقَاء (٢) وعصفتْ به عصفَها بالفضاء تردُّ أوله إلى آخره وساجيَه إلى مائره (٣) حتى عبَّ عُبابه .

ثم زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثواقب (٤) وأجرى فيها سراجاً مستطيراً (٥) وقمراً منيراً ، في فلكٍ دائر وسقف سائر !

تلاطُم الماء

من خطبة له في قدرة الله :

يعلَمُ عجيجَ الوحوش في الفَلَوات ، ومعاصيَ العبادِ في الخلوات ، واختلافَ النِّينان في البحار الغامرات (٦) ، وتلاطُمَ الماء بالرياح العاصفات !!

---

١ ــ تصفيق الماء : تحريكه وتقليبه .

٢ ــ مخضته : حركته بشدة كما يمخض السقاء بما فيه من اللبن ليستخرج زبَده . والسقاء : وعاء من جلد للبن والماء .

٣ ــ الساجي : الساكن . والمائر : الذي يذهب ويجيء ، أو المتحرك مطلقاً .

٤ ــ الثواقب : المنيرة المشرقة .

٥ ــ مستطيراً : منتشر الضياء ، ويقصد به الشمس .

٦ ــ النينان ، جمع نون وهو : الحوت .

خلقة الخفاش

من خطبة له يذكر فيها خلقة الخفاش :

ومن لطائف صَنْعته وعجائب حكمته ما أرانا مِن غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياءُ الباسط لكلّ شيء ، ويبسُطُها الظلامُ القابضُ لكلّ حيّ ، وكيف عشِيَتْ أعينُها عن أن تستمدّ من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها وتصلَ بعلانية برهانِ الشمس إلى معارفها ، ورَدَعَها تلألؤ ضيائها عن المضيّ في سُبُحات إشراقها (١) وأكنّها في مكامنها عن الذهاب في بَلَج ائتلاقها(٢) فهي مُسدِلة الجفون بالنهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدلُّ به في التماس أرزاقها ، فلا يردُّ أبصارَها إسدافُ ظُلمتِه (٣) ، ولا تمتنع من المُضيّ فيه لغَسَقِ دُجُنّتِه(٤) . فإذا ألقت الشمس قناعَها وبدت أوضاحُ نهارها ، ودخل مِن إشراق نورها على الضِّباب (٥) في وِجارها ، أطبقتِ الأجفانَ على مآقيها وتبلّغتْ (٦) بما اكتسبتْ مِن فَيْء ظُلَمِ لياليها . فسبحانَ مَن جعل الليلَ لها نهاراً

---

١ ــ سبحات النور : درجاته وأطواره .

٢ ــ البلج : الضوء ووضوحه . الائتلاق : اللمعان الشديد .

٣ ــ أسدف الليل : أظلم .

٤ ــ الدجنة : الظلمة .

٥ ــ الضباب ، جمع ضب وهو الحيوان المعروف .

٦ ــ تبلغت : اكتفت أو اقتاتت .

ومعاشاً ، والنهارَ سَكَناً وقَراراً . وجعل لها أجنحة من لحمها تعرُجُ بها عند الحاجة الى الطيران كأنها شظايا الآذان (١) غيرَ ذواتِ ريشٍ ولا قَصَب، إلاّ أنك ترى مواضع العروق بيّنةً أعلاماً (٢) لها جَناحان لمّا يرقّا فينشقّا ولم يغلُظا فيثقُلا ، تطير وولَدها لاصق بها لاجىء إليها : يقع إذا وقعتْ ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتدّ أركانُه ويحملَه جَناحُه ويعرفَ مذاهبَ عيشه ومصالحَ نفسه . فسبحانَ الباري لكلّ شيء على غير مِثالٍ خَلاَ من غيره !

خلقة الطاووس

من خطبة له يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس :

ومِن أعجبها خَلقاً الطاووسُ الذي أقامه في أحكَم تعديل ، ونضّد ألوانَه في أحسن تنضيد ، بجَناحٍ أشرجَ قَصَبَه (٣) وذنَبٍ أطال مَسْحَبَه،

---

١ ــ شظايا ، جمع شظية ، وهي : الفلقة من الشيء ، أي : كأنها مؤلفة من شقق الآذان .

٢ ــ رسوماً ظاهرة .

٣ ــ أشرج قصبه : داخَلَ بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر .

إذا دَرَج إلى الأنثى نَشَرَه مِن طيّه وَسَما به مُظِلاً على رأسه كأنه قِلْعُ داريٍّ عَنَجَهُ نوتيُّه (١) يختال بألوانه ويميس بزَيَفانه (٢) .

تخالُ قَصَبَه مداريَ من فضّة (٣) وما أُنبت عليه من عجيب داراته (٤) وشموسه خالصَ العِقْيان (٥) وفِلَذَ الزَّبرجد . فإن شبّهتَه بما أنبتت الأرض قلتَ : جَنَىً جُنِيَ من زهرة كل ربيع ! وإن ضاهيتَه بالملابس فهو كموشّي الحُلَل ! وإن شاكلتَه بالحُلِيِّ فهو كفُصوصٍ ذات ألوان نُطِّقَتْ باللّجين المكلّل (٦) ، يمشي مشْيَ المرِحِ المختال ، ويتصفّحُ ذنَبَه وجَناحيه فيقهقهُ ضاحكاً لجمال سِرباله وأصابيغِ وشاحه !

فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زَقَا (٧) مُعْوِلاً بصوتٍ يكادُ يُبينُ عن استغاثته ، ويشهدُ بصادق توجُّعِه ، لأن قوائمه حُمْشٌ كقوائم الدِّيَكَةِ الخلاسيّة (٨) .

١ — القِلْع : شراع السفينة . عَنَجه : جذَبه فرفعه . النوتي : الملاّح .
٢ — الزيفان : التبختر ، ويريد به حركة ذنَب الطاووس يميناً وشمالاً .
٣ — القصب : الريش . المداري ، جمع مدرى . والمدرى والمدراة : أداة ذات أسنان كأسنان المشط .
٤ — الدارات جمع دارة : وهي بالنسبة للشمس كالهالة بالنسبة للقمر .
٥ — العقيان : الذهب الخالص .
٦ — اللجين : الفضة . المكلل : المزين بالجواهر .
٧ — زقا يزقو : صاح .
٨ — حمش : جمع أحمش ، أي : دقيق . والديك الخلاسي : الديك المتولد بين دجاجة وديك من لونين مختلفين .

وله في موضع العُرف قُنْزُعةٌ خضراء موشّاة . ومَخْرَجُ عنقِه كالإبريق ومَغْرزُها إلى حيثُ بطنُه كصِبْغ الوسمة اليمانية (١) أو كحريرة مُلبّسة مرآةً ذاتَ صقال (٢) . وكأنه مُلفّعٌ بمِعجرٍ أسحمَ إلاّ أنه يُخيّل لكثرة مائه وشدّة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به .

ومع فتْقِ سمْعه خطٌّ كمستَدَقّ القلم في لون الأقحوان أبيضُ يَقَقٌ ، فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق . وقلَّ صِبْغٌ إلاّ وقد أخذ منه بقِسط وعَلاه بكثرة صقالهِ وبريقهِ وبَصيصِ ديباجهِ ورَونقه (٣) ، فهو كالأزاهير المبثوثة لم تُربّها أمطارُ ربيعٍ ولا شموسُ قَيظ .

وقد ينحسرُ مِن ريشه ويَعرّى من لباسه فيسقُطُ تَتْرَى ، وينبُتُ تِباعاً ، فينحتُّ مِن قَصبه انحتاتَ أوراق الأغصان (٤) . ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبلَ سقوطه : لا يُخالفُ سالفَ ألوانه ولا يقع لونٌ في غير مكانه .

وإذا تصفّحتَ شَعرةً من شعرات قَصَبهِ أرتْكَ حُمرةً وردية ،

---

١ – مغرزها : الموضع الذي غرز فيه العنق منتهياً الى مكان البطن . الوسمه : نبات يخضّب بـه .

٢ – الصقال : الجلاء .

٣ – علاه : فاقه . البصبص : اللمعان .

٤ – ينحسر من ريشه : يتكشف منه ويعرى . تترى : شيئاً بعد شيء . ينحتّ : يسقط وينقشر . انحتات الأوراق : تناثر الأوراق .

وتارة خضرةٌ زبرجديّة ، وأحياناً صفرةٌ عسجدية (١) ، فكيف تصل الى صفة هـــذا عمائقُ الفِطَن أو تبلغُه قرائـــحُ العقول (٢) أو تستنظمُ وصفَه أقوالُ الواصفين وأقـــلُّ أجزائه قد أعجزَ الأوهـــامَ أن تدركه والألسنة أن تصفه !

خلقة النملة

من خطبة له في وصف خلقة النملة :

أُنظروا الى النملة في صِغر جثتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدقّ الفكر ، كيف دبّت على أرضها وصَبّتْ على رزقها ! تنقل الحبّةَ الى جُحْرِها وتَعُدُّها في مستقرّها . تجمعُ في حرّها لبردها وفي ورودها لصَدَرِها ، مكفولةٌ برزقِها مرزوقةٌ بوِفْقِها (٣) لا يُغفلُها المنّان ولا يحرمُها الديّان ولو في الصَّفا اليابس والحجر الجامس(٤) . ولو فكّرتَ في مجاري أكلها ، في عُلْوِها وسُفْلِها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها (٥) وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيتَ من خَلقها عجباً ولقيتَ

١ ــ ذهبية .

٢ ــ عمائق ، جمع عميقة . القرائح جمع قريحة وهي : الخاطر والذهن .

٣ ــ الصَدَر : الرجوع بعد الورود . بوفقها : بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها ، أو بما هو قدر كفايتها منه .

٤ ــ الجامس : الجامد .

٥ ــ الشراسيف : مقاطع الأضلاع .

في وصفها تعبا ! فتعالى الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها ! لم يُشركه في فِطرتها فاطر ولم يُعنْه في خلقها قادر .

ولو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغَ غاياته ما دلّتك الدلالة إلاّ على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كلّ شيء (١) وغامضِ اختلاف كل حي ! وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف ، في خلْقه إلاّ سَواء !

خلقة الجرادة

ومنها في وصف الجرادة :

وإن شئت قلتُ في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين ، وأسرجَ لها حدقتين قمراوين (٢) وجعل لها السمْعَ الخفيَّ ، وفتح لها الفم السويَّ ، وجعل لها الحسّ القويّ ، ونابَين بهما تَقرض ومِنْجلَين بهما تَقبِض (٣) . يرهبُها الزرّاع في زرعهم ولا يستطيعون ذَبّها (٤) ولو أجلبوا بجَمْعهم ، حتى تَرِدَ الحرْثَ في نزواتها (٥) وتقضي منه شهواتها ! وخلْقُها كلّه لا يكون إصبعاً مستدقّة !

١ — أي : إن دقة التفصيل في النملة على صغرها وفي النخلة على طولها ، تدلّك على ان الصانع واحد .
٢ — أي : مضيئتين كأن كلاً منهما ليلة أضاءها القمر .
٣ — أراد بالمنجلين هنا : رجليها ، لاعوجاجهما وخشونتهما .
٤ — دفعها ٥ — وثباتها .

اِغفِرلي

من كلام له كان يدعو به :

اللهمّ اغفِر لي ما أنت أعلمُ به مني ، فإنْ عُدتُ فعُدْ عليّ بالمغفِرة ! اللهمّ اغفِرْ لي ما تقرَّبتُ به إليك بلساني ثم خالفَه قلبي ! اللهمّ اغفر لي رَمَزات الألحاظ (١) وسقطات الألفاظ ، وشهوات الجَنان وهَفَوات اللسان !

ماذا لقيت

وقال في سُحرة اليوم الذي ضُرب فيه(٢) :

ملكتْني عيني وأنا جالس(٣) فسَنَح لي رسول الله (ص) فقلت : يا رسول الله ، ماذا لقيتُ من أمّتك من الأوَد واللّدَد ! (٤) فقال : ادعُ عليهم ! فقلت : أبدَلَني الله بهم خيراً منهم ، وأبدَلَهم بي شراً لهم منّي !

---

١ ــ رمزات الألحاظ : الإشارة بها .
٢ ــ السحرة : السحَر الأعلى من آخر الليل .
٣ ــ ملكتني عيني : غلبني النوم .
٤ ــ الأود : الاعوجاج . اللدد : الخصام .

العفو عن القاتل

من كلام له قاله قبل موته على سبيل الوصية ، لما ضربه ابن ملجم :

أنا بالأمس صاحبُكم ، واليومَ عِبرةٌ لكم ، وغداً مفارقُكم ! إن أبقَ فأنا وليُّ دمي . وإن أفْنَ فالفناء ميعادي . وإن أعفُ فالعفوُ لي قُربة ، وهو لكم حَسَنة ، فاعفوا !

مظلوم

من كلام له في معنى الظلم الواقع عليه :

ما زلتُ مظلوماً منذ قَبَضَ اللهُ نبيّه حتى يوم الناس هذا . ولقد كنتُ أُظلَمُ قبل ظهور الإسلام . ولقد كان أخي عقيلٌ : يُذنبُ أخي جعفر ، فيضربني !

الأثوار الثلاثة

رأينا أن نثبت هذا المثل هنا ، لأنه من أجمل الأمثال العربية التي جاءت حكايةً عن الحيوان ، ثم لأنه أول هذه الأمثال التي شاعت فيما بعد على يد ابن المقفع بكتابه الشهير « كليلة ودمنة » ، وفيه دعوة الى الاتحاد وتنفير من الفتنة . والغريب أن يكون هذا المثل الذي ثبتتْ نسبتُه الى الإمام علي ، غير مذكور في « نهج البلاغة » على اختلاف طبعاته وكثرة المعتنين به ، ولا في الكتب التي استدرك مصنّفوها ما فات جامعَ « النهج » :

أثوارٌ ثلاثةٌ كنّ في أجَمة ، أبيضُ وأسود وأحمر ، ومعهنّ فيها أسد ، فكان لا يقدر منهنّ على شيء لاجتماعهنّ عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدلّ علينا في أجَمتنا إلاّ الثور الأبيض ، فإنّ لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكُلُهُ صَفَتْ لنا الأجَمَة ! فقالا له : دونك فكلْه . فأكلَه . فلما مضت أيام ، قال للأحمر : لوني على لونك فدعني آكلُ الأسودَ لتصفو لنا الأجَمة ! فقال : دونك فكُلْه ! ثم قال للأحمر : إني آكلُك لا محالة ! فقال : دعني أُنادي ثلاثاً . فقال : افعلْ . فنادى : ألاَ إني أُكِلْتُ يوم أُكِلَ الثورُ الأبيض !

طائفة

من روائع أمثاله

مَن ظنَّ بك خيراً فصدِّقْ ظنَّه .

لا تظننَّ بكلمةٍ خرجتْ من أحد سوءًا وأنت تجد لها في الخير محتملاً .

أسوأ الناس حالاً مَن لم يثق بأحدٍ لسوء ظنّه ، ومن لم يثق به أحدٌ لسوء فعله .

ليس من العدل القضاء بالظنّ على الثقة .

سوء الظن يدوي القلوب (١) ويتّهم المأمونَ ، ويوحش المستأنسَ ، ويغيّر مودّةَ الإخوان .

ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظمَ أجراً ممّن قدر فعفّ . لَكاد العفيف أن يكون ملاكاً من الملائكة .

العفو زكاة الظفَر .

أولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة .

أسترْ عورة أخيك واغتفر زلة صديقك .

عليك بالصدق في كل أمورك .

لا سوأةَ أسوأ من الكذب .

الكذّاب يخيف نفسه وهو آمن .

علامة الإيمان أن تؤثر الصدقَ حيثُ يضرُّكَ على الكذب حيث ينفعك .

جانبوا الكذب فإن الصادق على منجاةٍ وكرامة ، والكاذب على شَفَا مَهواةٍ وهلكة .

١ ـ يدوي : يصيب بالداء .

الكذّاب والميت سواء . لأن فضيلة الحي على الميت الثقةُ به ، فإذا لم يوثَق بكلامه فقد بطلتْ حياتُه .

إن كنتَ صادقاً كافيناك ، وإن كنتَ كاذباً عاقبناك .

لا يصلح الكذبُ في جدّ ولا هزل ؛ ولا في أن يعِدَ أحدُكم صبيَّه ثم لا يفي له . إنّ الكذب يهدي الى الفجور .

خيرُ المقال ما صدقَتْه الفعال .

إنّ مَن عدمَ الصدقَ في منطقه فقد فُجع بأكرم أخلاقه .

ما السيف الصارم في كفّ الشجاع بأعزّ له من الصدق .

أقبحُ الصدق ثناءُ المرء على نفسه .

ذمّتي بما أقول رهينة .

اعتصموا بالذمم .

لا تغدرَنّ بذمّتك ولا تخيسَنّ بعهدك ولا تَختِلَنّ عدوّكَ .

أوفوا إذا عاقدتم ، واعدلوا إذا حكمتم ، ولا تَفَاخروا بالآباء .

لا تكن ممن ينهى ولا ينتهي ، ويأمر بما لا يأتي ؛ ويصف العبرة ولا يعتبر ، فهو على الناس طاعن ولنفسه مُداهن .

لا تصحب المائق (١) فإنه يزيّن لك فعله ويودّ أن تكون مثله .

لا صديقَ لمتلوّن ، ولا وفاء لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنيء .

انتهزو فُرَص الخير .

---

١ ــ المائق : الأحمق .

إفعلوا الخير ولا تَحقِروا منه شيئاً ، فإنّ صغيره كبير وقليله كثير .

قولوا الخير تُعرَفوا به . واعملوا الخير تكونوا مِن أهله .

الساعي بالخير كفاعله . أما الساعي بالشرّ ومحاربةِ الخير فهو عدوّ الله والبشر .

ولا يقولنَّ أحدُكم إن أحداً أولى بفعل الخير منّي .فيكونَ والله كذلك.

إذا تحرّكتْ صورة الشر ولم تظهر ولّدتِ الفزع . فإذا ظهرتْ ولّدت الألم . وإذا تحرّكت صورة الخير ولم تظهر ، ولّدتِ الفرج ، فإذا ظهرتْ ولّدتِ اللذة .

مَن اعتدل يوماه فهو مغبون .

الكيِّسُ من كان يومه خيراً من أمسه .

مَن اعتدل يوماه فهو مغبون .

مَن مَنَّ بمعروفه أفسده .

لا يُزهّدنّك في المعروف مَن لا يشكر لك .

أهلُ المعروف إلى اصطناعه أحوَجُ من أهل الحاجة إليه .

لا تستصغر شيئاً من المعروف قدرتَ على اصطناعه إيثاراً لِمَا هو أكثر منه ، فإن اليسير في حال الحاجة أنفع من الكثير في حال الغنى عنه .

فاعلُ الخير خيرٌ منه ، ، وفاعل الشرّ شَرٌّ منه .

لا تعمل الخير رياءً ولا تتركه حياءً .

من لا يعرف الخير من الشر فهو بمنزلة البهيمة .

لن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

أطلبوا الخير وأهلَه ، واعلموا أنَّ خيراً مِن الخير مُعطيه ، وشراً مِن الشرِّ فاعله .

ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلا قال له : أنا يومٌ جديد ، وأنا عليك شهيد، فقل فيَّ خيراً واعمل خيراً فإنك لن تراني بعد أبد !

قال في صفة الإنسان الشريف : ينوي كثيراً من الخير ، ويعمل بطائفة منه ، ويتلهّف على ما فاتَه كيف لم يعمل به .

وقال فيه أيضاً : قد ألزمَ نفسَه العدل ، يصف الحقّ ويعمل به . لا يدَعُ للخير غايةً إلا أمَّها ولا مَظَنَّةً إلاّ قَصَدَها .

أحصد الشرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك .

من استحسن القبيح كان شريكاً فيه .

إذا أردتَ أن تعرف طبْعَ الرجل فاستشرْهُ ، فإنك تقف في مشورته على عدله وجوره ، وخيره وشرّه .

ليس في البرق الخاطف مستمتَعٌ(١) لمن يخوض في الظلمة .

إقبلْ عذرَ مَن اعتذر اليك ، وأخّر الشرّ ما استطعت .

ليكن أمرُ الناس عندك في الحق سواء .

مَن تعدَّى الحقَّ ضاع مذهبُه .

من صارَعَ الحقَّ صرَعه .

لا يؤنسنَّك إلاّ الحقّ ولا يوحشنّكَ إلا الباطل .

١ — مستمتَع : متعة .

ألاَ وإنه بالحقِّ قامت السماوات والأرض .

ما شككتُ في الحق مذ رأيته .

اتبعوا الحق وأهله حيث كانوا .

لا تزيدنّي كثرةُ الناس حولي عزّة ، ولا تفرُّقهم عني وحشة ، وما أكرهُ الموتَ على الحق .

ليس مَن طلب الحقَّ فأخطأه كمن طلب الباطلَ فأدركه .

مَن طلب عزّاً بباطل أورثَهُ الله ذلاًّ بحقّ .

من استثقلَ الحقَّ أن يقال له أو العدلَ أن يُعرَض عليه ، كان العملُ بهما أثقل عليه .

لنا حقٌّ فإن أُعطيناه وإلاَّ ركبْنا أعجاز الإبل وإنْ طال السُّرى .

لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة مَن يسلكه .

إعملوا في غير رياء .

للمرائي ثلاث علامات : ينشطُ إذا رأى الناس ، ويكسل إذا كان وحده ، ويحبّ أن يُحمَد في جميع أحواله !

ليكنْ دنوُّك من الناس لِيناً ورحمة .

عاتب أخاك بالإحسان اليه واردده بالإنعام عليه .

صِلْ مَن قطَعَك ، وأعطِ مَن حرَمَك ، وأحسن إلى مَن أساء إليك ، وقل الحقَّ ولو على نفسك .

أُزجر المسيء بثواب المحسن .

إنْ لم تكن حليماً فتحلَّمْ ، فإنه قلَّ مَن تَشَبَّهَ بقومٍ إلا أوشك أن يكون منهم .

ليس جزاءُ مَن سَرَّك أن تسوءه .

ما ظفرَ مَن ظفر الإثمُ به ، والغالب بالشرّ مغلوب .

من أساء خلقَه عذّبَ نفسه .

كفى بحسن الخُلق نعيما .

لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقّرها قلةُ الثقة بنفسك ، ولا يغرّنّك المرتقى السهلُ إذا كان المنحدَرُ وعْراً .

إرحمْ تُرحَمْ . قل الخير تُذكَرْ بخير . اجتنب الغيبة فإنها إدامُ كلاب النار .

ليرأفْ كبيرُكم بصغيركم .

مَن وعظ أخاه سراً فقد زانَه ، ومَن وعَظَه علانيةً فقد شانَهُ .

عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب ، وبالعدل على الصديق والعدوّ .

سامع الغيبة أحد المغتابين .

الغيبة جُهدُ العاجز .

نظر الإمام إلى رجل يغتاب آخر عند ابنه الحسن ، فقال : يا بُنيّ ، نزِّهْ سمعك عنه ، فإنه نَظَرَ إلى أخبث ما في وعائه فأفرغَه في وعائك .

إمحضْ أخاك النصح وساعدْه على كل حال ، ولا تصرمْ أخاك على ارتياب ولا تقاطعه دون استعتاب فلَعَلَّ له عذراً وأنت تلوم .

الويل كل الويل لمن استحسن لنفسه ما يكرهه لغيره ، وأزرى على الناس بمثل ما يأتي .

ليس بعاقل مَن انزعج من قول الزور فيه ، ولا بحكيم مَن رضيَ بثناء الجاهل عليه .

مَن تَجَرَّأ لك تَجَرَّأ عليك .

مَن مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك ، ذمّك بما ليس فيك من القبيح وهو ساخط عليك .

عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! وعجباً لمن قيل فيه الشر وليس فيه كيف يغضب !

لتكن معرفتك بنفسك أوثقَ عندك من مدح المادحين لك .

من استحيا من الناس ولم يستحي مِن نفسه فليس لنفسه عنده قدر !

رأس العلم الرفق .

ما كان الرفق في شيء إلا زانَهُ .

وإنّ غائباً يحدوه الجديدان الليلُ والنهار لَحَريٌّ بسرعة الأوبة (١) .

طوبى لمن شغلَه عيبُه عن عيوب الناس .

من نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذاك الأحمق بعينه .

من نسي زلله استعظم زلل غيره ، ومَن تكبّر على الناس ذلّ .

وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره .

---

١ — يحدوه : يسوقه . الأوبة : الرجوع .

الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل .

مَن عرف نفسه فقد عرف ربّه .

هالك امرؤٌ لم يعرف قدره .

أنظرْ وجهك كل وقت في المرآة ، فإن كان حَسَناً فاستقبحْ أن تضيف اليه فعلاً قبيحاً وتشينه به . وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تجمع بين قبيحين !

الإنسان مرآة الانسان ، يتأمله ويسدُّ فاقَتَهُ .

إذا كان في رجل خَلَّةٌ رائقة فانتظروا أخَواتها (١) .

شِرارُكم المشّاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبّة ، المبتغون للأبرياء المعايب .

لا سؤددَ مع انتقام ، ولا صوابَ مع ترك المشورة .

لا أقبلُ شهادة الفاسق إلاّ على نفسه .

إذا حُيِّيتَ بتحيّة فحيِّ بأحسنَ منها . وإذا أُسديتْ إليك يدٌ فكافئها بما يربي عليها ، والفضل في ذلك للبادي .

إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره ، تنكّرتْ للناس أخلاقُه .

إذا رفعتَ أحداً فوق قدره ، فتوقّعْ منه أن يحطّ منك بقدر ما رفعتَ منه !

لا تشمتْ بالمصائب ولا تدخل في الباطل ولا تخرج من الحق .

لا تفرح بسقطة غيرك ، فإنك لا تدري ما تتصرّف الأيام بك !

---

١ ـ الخلة : الخصلة .

أكرم نفسك عن كل دنيّة .

لا يأبى الكرامةَ إلا حمار .

من كفّارات الذنوب العِظام إغاثةُ الملهوف والتنفيسُ عن المكروب .

من عزّى الثكلى فقد أظلّه الله في ظلّ عرشه .

أدّب اليتيم بما تؤدب به ولدك .

ساووا ضعفاءكم في مآكلكم .

لا يطمع قريبك في حَيْفك (١) ولا ييأس عدوُّك من عدلك .

لا تَصْحبَنّ في سَفَرٍ مَن لا يرى لك من الفضل عليه مثلَ ما يرى له من الفضل عليك .

إنّ مشيَ الماشي مع الراكب مَفْسَدةٌ للراكب ومَذَلّةٌ للماشي .

لا تُسارَّ أحداً في مجلسك ، وإنْ غضبتَ فقم ، ولا تَقْضيَنّ وأنت غضبان .

ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة .

إذا طرقك إخوانُك فلا تدّخر عنهم ما في البيت ، ولا تتكلّف لهم ما وراء الباب .

شرُّ الإخوان مَن تُكُلِّفَ له .

إياك وكلَّ عملٍ إذا ذُكر لصاحبه أنكرَه .

---

١ ـ الحيف : الظلم .

مَن عمل في السرّ ما يستحيي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر .

من أصلحَ سريرتَه أصلح علانيتَه .

مَن حذّرك كمن بشّرك .

لا يرضى عنك الحاسد حتى يموت أحدُكما .

حسدُ الصديق من سُقم المودّة .

التواضع نعمة لا يفطن لها الحاسد .

ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفَسٌ دائم وقلبٌ هائم وحُزن لازم ، مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملك !

الثناءُ بأكثر من الاستحقاق ملَقٌ ، والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسَد .

خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنّوا إليكم .

لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته ووفاته .

عدوّ عاقل خيرٌ من صديق جاهل .

مِن أشرف أعمال الكريم غفلتُه عما يعلم .

أكبر الأعداء أخفاهم مكيدة .

مَن كساه الحياءُ ثوبَه لم يرَ الناسُ عيبه .

ما جفّت الدموع إلاّ لقسوةٍ في القلوب ، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب .

تحتاج القرابة إلى مودّة : ولا تحتاج المودّة إلى قرابة .

ربّ قريبٍ أبعد من بعيد . ورب بعيد أقرب من قريب . والغريب من لم يكن له حبيب .

المودّة قرابة مستفادة .

فَقدُ الأحبة غربة .

مِن كرمِ المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه ، وحنينُه إلى أوطانه ، وحفظُه قديمَ إخوانه .

الطمع رقٌّ مؤبّد .

أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

كم من عقلٍ أسيرٍ تحت هوًى أمير .

إن كنتَ جازعاً على ما تَفلّتَ من يديك ، فاجزعْ على كل ما لم يصل إليك .

الهوى مطيّة الفتنة .

إذا أيسرتَ فكلُّ الرجال رجالك ، وإذا أعسرتَ أنكرَك أهلُك .

إذا أقبلتِ الدنيا على أحد أعارتْه محاسنَ غيره ، وإذا أدبرتْ عنه سلبتْه محاسنَ نفسه .

فَوْتُ الحاجة أهونُ مِن طلبها إلى غير أهلها .

ثلاثةٌ يُرحَمون : عاقلٌ يجري عليه حُكمُ جاهل ، وضعيف في يد ظالم قوي ، وكريم يحتاج إلى لئيم .

إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه يفكر ، فإنه لا يفكر إلا في خير . وإذا سألتَ لئيماً حاجة فعاجله ، فإنه إن فكّر عاد إلى طبعه .

الرغبة الى الكريم تُحرّكه على البذل ، وإلى الخسيس تغريه بالمنع .

الكريم لا يلين على قَسر ، ولا يقسو على يُسر !

وجّهوا آمالكم إلى مَن تحبّه قلوبكم .

السخاء ما كان ابتداءً ، فأمّا ما كان عن مسألة فحياءٌ وتذمُّم (١) .

البخل جامعٌ لمساوىء العيوب ، وهو زمامٌ يُقادُ به إلى كل سوء .

البخل جلباب المسكنة .

البخلاء من الناس يكون تغافُلُهم عن عظيم الجرم أسهلَ عليهم من من المكافأة على يسير الإحسان .

يا ابن آدم ، ما كسبتَ فوق قوْتك فأنت فيه خازن لغيرك .

يا ابن آدم ، كن وصيّ نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يُعمَل فيه من بعدك .

من يكن له مالٌ فليْفكّ به العاني والأسير .

مَن كرمتْ عليه نفسه هان عليه ماله .

الحرصُ والكِبْرُ والحسد دواعٍ إلى التقحّم في الذنوب .

لا تهضمنّ محاسنك بالفخر والكِبْر .

---

١ ـ التذمّم : الفرار من الذم .

إذا أردتَ أن تُحمَدَ فلا يظهر منك حرصٌ على الحمد .

أكبر الفخر ألاّ تفخر .

يكون الصبر على قدر المصيبة .

المصيبة واحدة ، فإنْ جزعتَ كانت اثنتين .

عوّدْ نفسك الصبرَ على المكروه .

عند تَناهي الشدّة تكون الفرجة .

الصبر مطيّة لا تكبو .

الصبر صبران : صبرٌ على ما تكره وصبرٌ عمّا تحب .

الدهر يومان : يومٌ لك ويوم عليك . فإنْ كان لك فلا تبطر ، وإن كان عليك فاصبر .

مَن صَبَرَ صَبْرَ الأحرار ، وإلاّ سَلاَ سُلُوَّ الأغمار (١) .

لا تكن عند النعماء بطِراً ولا عند البأساء فشِلاً .

التكبّر على المتكبرين هو التواضع بعينه .

مَن طلبَ شيئاً نالَه أو بعضَه .

المرء مخبوء تحت لسانه .

هانت عليه نفسه مَن أمَّر عليه لسانَه .

لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .

---

١ ـ الاغمار ، جمع غمر ، وهو : الجاهل الذي لم يجرب الأمور .

إذا فعلتَ كلَّ شيء فكنْ كمن لم يفعل شيئاً .

لا خير في الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير في القول بالجهل .

أمسك عليك لسانك فإنَّ تَلافيك ما فرط من صمتك أيسرُ عليك من إدراك ما فات من منطقك .

لا تسأل عمّا لا يكون : ففي الذي قد كان لك شغل .

الوفاء لأهل الغدر غدرٌ عند الله .

إن الأمور إذا اشتبهت اعتُبر أولـُها بآخرها .

أصابَ متأمّلٌ أو كاد ، وأخطأ مستعجلٌ أو كاد !

ما أكثر العِبَرَ وأقلَّ الاعتبار .

رأي الشيخُ أحبُّ من جَلَد الغلام (١) .

قيل له : صف لنا العاقل . فقال : هو الذي يضعُ الأشياء مواضعَها . فقيل : فصف لنا الجاهل . فقال : قد فعلتُ .

مَن اشتبه عليكم أمرُه فانظروا إلى خُلَطائه .

إذا كنتَ في إدبار ، والموت في إقبال ، فما أسرعَ الملتقى .

مَن تَذَكَّرَ بُعْدَ السفر استعدَّ .

نَفَسُ المرء خُطاه إلى أجَلِه .

كم من أكلةٍ منعتْ أكلات .

---

١ ــ جلد الغلام : صبره على القتال .

الخلاف يهدم الرأي .

لا رأي لمن لا يطاع .

قال لما سمع قول الخوارج « لا حُكمَ إلا لله » : كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطل !

مَن جهل شيئاً عابَه .

الناسُ أعداء ما جهلوا .

مَن لانَ عودُه كثفتْ أغصانه .

نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة على شك .

فقيهٌ واحد أشدّ على إبليس من ألف عابد .

أفضَلُ الزهد إخفاء الزهد .

ليست الصلاة قيامُك وقعودك إنما الصلاة إخلاصك .

أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه .

لا تحتقرَنّ صغيراً يمكن أن يكبر ؛ ولا قليلاً يمكن أن يكثر .

يأتي على الناس زمانٌ لا يُقرَّب فيه إلا الماحل (١) ولا يُظرَّف فيه إلا الفاجر (٢) ولا يضعَّفُ فيه إلا المنصِف (٣) .

الدنيا حمقاء لا تميل إلا إلى أشباهها !

١ ــ الماحل : الساعي في الناس بالوشاية عند السلطان .
٢ ــ لا يظرّف : لا يُعدّ ظريفاً .
٣ ــ لا يُضعَّف : لا يُعدُّ ضعيفاً .

أنا كابّ الدنيا لوجهها ، وقاردُها بقدرها ، وناظرُها بعينها .

أيها الناس ، إني واللهِ ما أحثُّكم على طاعة إلا أسبقُكم إليها ، ولا أنهاكم عن مَعْصيةٍ إلا أتناهى قبلكم عنها .

مَن نصبَ نفسَه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلّم نفسه ومؤدّبُها أحقُّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم .

ينبغي لمن وليَ أمرَ قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيته ، وإلاّ كان بمنزلة مَن رام استقامة ظِل العود قبل أن يستقيم ذلك العود !

واعجباه ! أتكون الخلافة بالصحابة والقرابة !

أشقى الرعاة مَن شقيتْ به رعيتُه .

ما أقبحَ الغدرَ من السلطان .

لا زعامةَ لسيّء الخُلق .

إذا كان الراعي ذئباً ، فالشاةُ مَن يحفظها !

لا تَقْبَلَنّ في استعمال عُمّالك وأمرائك شفاعةً إلا شفاعة الكفاية والأمانة .

مَن فسدتْ بطانتُه كان كمَن غَصّ بالماء ، فإنه لو غَصّ بغيره لأساغَ الماءُ غُصّتَه !

العدلُ صورة واحدة ، والجور صور كثيرة . ولهذا سهلَ ارتكابُ الجور

وصعُبَ تَحَرِّي العدل ، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها . وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض (١) .

قدِّمِ العدل على البطش ولا تستعمل الفعلَ حيث ينجع (٢) القول .

شرُّ الناس إمامٌ ضَلَّ وضُلَّ به .

البغيُ آخر مدة الملوك .

عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان .

المسؤول حرٌ حتى يَعِد ..

قلوب الرعية خزائنُ راعيها ، فما أودَعَها من عدلٍ أو جور وجَدَه فيهما .

ألاَ وإني أقاتلُ رجلين : رجلاً ادَّعى ما ليس له ، وآخرَ منَع الذي عليه .

يد الله فوق رأس الحاكم ترفرف بالرحمة ، فإذا حاف (٣) وكلَه اللهُ إلى نفسه .

قال في الله تعالى : وقَلَعَ جبالَها ونَسَفَها ودَكَّ بعضُها بعضاً من هيبةِ جلالته !

الحمد لله الذي لا تُواري عنه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضاً .

على أئمة العدل أن يقدروا أنفسَهم بالعامة .

---

١ ـ ارتياض : مران .
٢ ـ ينجع : ينفع .
٣ ـ حاف : ظلم .

بَنَى رجلٌ من عمّاله بناءً فخماً ، فقال الإمام : أطلعتِ الورقُ رؤوسها ، إن البناء يصف لك الغنَى !

إذا غضبَ الله على أمة غلت أسعارُها وغَلَبَهَا أشرارها .

ثلاثةٌ يؤثرون المال على أنفسهم : تاجرُ البحر ، وصاحب السلطان ، والمرتشي في الحكم !

اللهمّ اجعلنا خيراً مما يظنون ، واغفر لنا ما لا يعلمون .

عاتبَه عثمان فأكثر وهو ساكت ، فقال : مالك لا تقول : قال : إن قلتُ لم أقل إلاّ ما تكره ، وليس لك عندي إلاّ ما تحب .

لا تدعوَنّ إلى مبارزة .

إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق .

مَن أمنتَ مِن أذيّته فارغب في أخوّته .

إن الله قد أعاذكم مِن أن يجور عليكم .

أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم وتعاونوا .

تعاطوا الحقّ بينكم وتعاونوا به على يد الظالم السفيه .

اللهمّ إني لم آمرهم بظلم خلقك .

يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم .

شيعتُنا الذين إن غَضبوا لم يظلِموا . بَرَكة على مَن جاوروا سِلمٌ لمن خالطوا .

البغي والزور يزريان بالمرء .

وقد خاب مَن حمل ظلما .

ما أقبح القسوة على الجار .

هلك من ادّعى وخاب من افترى .

مَن زرع العدوان حصد الخسران .

بئس َ العدوان على العباد .

الظلم يدعو إلى السيف .

لا تقوّيَنّ سلطانك بسفك دم حرام .

وايمُ الله لأنصفَنَّ المظلوم من ظالمه ولآخذنَّ الظالم بخزامته حتى أورده منهلَ الحق وإن كان له كارهاً .

إختَرْ أن تكون مغلوباً وأنت منصف . ولا تختَرْ أن تكون غالباً وأنت ظالم .

ألأمُ الناس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر .

ظلْمُ الضعيف أفحشُ الظلم .

وأمّا الذنب الذي لا يُغفَرُ ، فظلمُ العباد بعضهم لبعض .

لا تكن للظالم معينا .

للظالم ثلاث علامات : يظلِمُ مَن فوقَه بالمَعْصِية ، ومَن دونه بالغَلَبة ، ويظاهرُ القومَ الظالمين (١) .

---

١ ــ الغلبة : القهر . يظاهر : يعاون .

رحم الله امرأً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فردّه ، وكان عوناً بالحق على صاحبه .

العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به : شركاء ثلاثة .

الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم . وعلى كل داخل في باطل إثمان : إثمُ العمل به ، وإثمُ الرضا به .

قيل له : أيّ الأمور أعجلُ عقوبةً وأسرعُ لصاحبها صَرْعَةً ؟ فقال : ظلمُ مَن لا ناصرَ له إلاّ الله ، واستطالة الغنيّ على الفقير .

أُذكرْ عند الظلم عدْلَ الله فيك ، وعند القدرة قدرةَ الله عليك .

الفجورُ دارُ حصنٍ ذليلٍ : لا يمنعُ أهلَه ولا يُحرزُ مَن لجأ إليه(1) .

لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها .

لكلّ امرىءٍ ما اكتسب .

قيمة كل امرىءٍ ما يُحسن .

واعلموا أن الناس أبناء ما يُحسنون .

لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال .

لا حسَب كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا قرين كحُسن الخلق .

أشرفُ الأشياء العلم ، والله تعالى عالم يحب كل عالم .

مَن أبطأ به عملُه لم يسرع به حسَبُه .

1 — يحرز : يحفظ .

من قصّر في العمل ابتُلي بالهمّ .

لا تكن ممّن يرجو لنفسه بأكثر من عمله .

إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً .

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل .

تعلّموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً ، فَلأَنْ يُذَمّ الزمانُ لكم أحسن من أن يُذَمّ بكم .

ما من حركة إلاّ وأنت محتاج فيها إلى معرفة .

العاملُ بغير علمٍ كسائرٍ في غير طريق . فلا يزيده بُعدُهُ عن الطريق إلاّ بُعداً عن حاجته . والعاملُ بالعلم كسائرٍ على الطريق الواضح ، فلينظرْ ناظرٌ أسائرٌ هو أم راجع ؟

الفكرة تورثُ نوراً والغفلة تورث ظلمة .

سلْ تفقّهاً ولا تسأل تَعنّتاً .

أعلمُ الناس مَن جمعَ علمَ الناس إلى عمله .

من استبدَّ برأيه هَلَكَ . ومن شَاوَرَ الرجال شارَكَها في عقولها .

من استقبلَ وجوهَ الآراء عرفَ مواقعَ الخطإ .

لا كنزَ أنفع من العلم ، ولا عزّ أرفع من الحلم .

قَطَعَ العلمُ عذْرَ المتعلّلين .

ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك .

هلك خزّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

الملوك حكّام على الناس ، والعلماء حكّام على الملوك .

العالم حيّ وإن كان ميتاً ، والجاهل ميت وإن كان حيّاً .

العلمُ إحدى الحياتَين ، والمودّةُ إحدى القرابتين ، والذكر الجميل أحد العُمرين .

لا يَستَحيِيَنَّ أحدٌ إذا سُئل عمّا لا يعلم أن يقول : لا أعلم ! ولا ولا يَستَحيِيَنَّ أحدٌ إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه .

ما أكثر ما تجهلُ من الأمر ، ويتحيّرُ فيه رأيك ، ويَضِلُّ فيه بصرك ، ثم تُبصره بعد ذلك .

لا فقرَ أشدّ من الجهل .

لا يؤمنك مِن شرّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ .

إذا أرذلَ الله عبداً حظّر عليه العلم .

كلُّ وعاءٍ يضيق بما جُعل فيه إلاّ وعاء العلم فإنه يتّسع .

إن هذه القلوب تملُّ كما تملّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة .

لَتهَبُ الشوق أخفّ محملاً من مقاساة الملالة .

كفى العلم شرفاً أن يدّعيه من لا يُحسنه ، ويفرح إذا نُسب اليه مَن ليس مِن أهله . وكفى بالجهل خمولاً أن يتبرّأ منه مَن هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه .

أقلُّ الناس قيمةً أقلهم علما .

العلم دينٌ يُدان به .

العلم أكثر من أن يُحصى فخذوا من كل شيء أحسنه .

مَن أفتى بغير علم لعنته الأرض والسماء .

العلماء غرباء لكثرة الجهّال .

ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا .

شكرُ العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقّه .

ذو الهمّة وإن حطّ نفسه يأبى إلاّ علوّاً . كالشعلة من النار يخفيها صاحبُها وتأبى إلاّ ارتفاعاً .

إذا جلستَ إلى عالمٍ فكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تقول .

العلم مقرون بالعمل : فمَن علمَ عمل . والعلم يهتف بالعمل ؛ فإن أجابَه وإلا ارتحل .

يا حَمَلَةَ العلم أتحملونه ؟ فإنّما العلم لمن علمَ ثم عمل بما علمَ ووافقَ عملُه علمَه .

إن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجّةُ عليه أعظم .

لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكّاً . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقّنتم فأقدموا .

ما أحسن العِلمَ يزَينُه الرفق .

قلتم : إنّ فلاناً أفاد مالاً عظيماً ! فهل أفاد أياماً ينفقُه فيها (١) ؟

ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيمَ أفناه ؛ وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وعمّا عمِلَ فيما علِمَ .

مجاوزتُك ما يكفيك فقرٌ لا منتهى له .

ما أصعبَ على مَن استعبدتْه الشهوات أن يكون فاضلاً .

مَن ملك استأثر (٢) .

منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال .

التاجر فاجر ، والفاجر في النار ، إلا مَن أخذ الحق وأعطى الحق .

قال في جامع المال : لَعَلَّه مِن باطلٍ جمَعَه – ماله – ومِن حقٍّ منَعَه .

الفقر الموت الأكبر .

الفقر يُخرسُ الفطِنَ ، والفقير غريب في بلده .

الفقر في الوطن غربة .

ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلد . خير البلاد ما حمَلَك (٣) .

١ – أفاد : استفاد .
٢ – استأثر : استبد وخصّ نفسه بكلّ مغنم .
٣ – يقول : كل البلاد تصلح سكناً لكل إنسان ، إنما أفضلها ما حملك ، أي أعزّك وأطعمك وآواك .

لو تَمَثَّلَ لي الفقرُ رجلاً لقتلتُه .

ما جاع فقيرٌ إلاّ بما مُتّع به غني .

ما رأيتُ نعمة موفورة إلاّ وإلى جانبها حقّ مُضَيّع .

ما جُمِعَ مالٌ إلا من شحّ أو حرام .

لا تُنال نعمة إلاّ بفراق أخرى .

لا تُنال نعمة إلاّ بعد أذى .

ما خُلق امرؤٌ عبثاً فيلهو ، ولا تُرك سدًى فيلغو (١) .

الخَطَأ في إعطاء مَن لا يبتغي ، ومَنع مَن يبتغي ، واحد !

إذا استغنيت عن شيء فدعه ، وخذ ما أنت محتاج إليه .

إمنع من الاحتكار .

إنما يعاب مَن أخذ ما ليس له .

إياكم والدَّين .

الدَّين مذلّة .

واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المَثُلات لسوء أفعالهم . فتذكروا في الخير والشرّ أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم .

واتّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعظ بكم مَن بَعدكم .

لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

---

١ – يلغو : يأتي باللغو : وهو ما لا فائدة فيه .

قلوب الرجال وحشيّة ، فمَن تألّفها أقبلتْ عليه .

لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً .

كلُّ ما حملتَ عليه الحُرَّ احتَمَلَهُ ورآهُ زيادة في شرفه، إلاّ ما حطّهُ جزءاً من حريته فإنه يأباه ولا يجيب إليه .

وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون .

قد أذنتُ لك أن تكون على ما بدا لا ، .

الهمّ نصف الهرم .

لا أُعاقب على الظنّة .

مَن تعاظَمَ على الزمان أهانه .

أنهاك عن التسرّع في القول والعمل

اتّقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم .

ما أسرعَ الساعات في اليوم وأسرع الأيامَ في الشهر ، وأسرعَ الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العمر !

* * *

الفهرست

الفهرس

صفحة

٥ تقديم

٧ في أدب الإمام

٩ حدود العقل والقلب

١٧ الوحدة الوجودية

٢٧ الأسلوب والعبقرية الخطابية

٣٧ العدالة الكونية وما يمثله عليٌّ منها

٣٩ تكافؤ الوجود

٥٥ الحنان العميق

٦١ صدق الحياة

٦٨ خير الوجود وثورية الحياة

٨١ الفاتحة العلوية

٨٣ الفاتحة العلوية

٨٧ طائفة من رسائله وعهوده ووصاياه

٨٩ عبادة الأحرار

٨٩ أيها الناس

٩٠ يا أبا ذرّ

٩١ كلّما اطمأنّ

٩١ السلام عليك يا رسول الله

صفحة

٩٢ أفضل الناس وشرُّهم

٩٣ استأثر فأساء الأثرة

٩٤ أنا كأحدكم

٩٥ الحقّ لا يبطله شيء

٩٦ أسفلكم أعلاكم

٩٧ عفا الله عمّا سلف

٩٧ الرشوة

٩٨ إن لم تستقيموا

٩٩ أنصفوا الناس

٩٩ أأطلب النصر بالجور

١٠٠ الناس متساوون في الحق

١٠١ إلى أصحاب الجمل

١٠٢ أخرج من جحرك

١٠٢ قيام الحجّة

١٠٣ أراد أن يغالط

١٠٤ وإنّي لَصاحبُهم

١٠٥ إلامَ أجيب؟

١٠٧ في لجّة بحر

١٠٧ قتلوهم صبراً وغدراً

١٠٨ الذين قاتلوني

صفحة	
١٠٨	بُكْم ذوو كلام
١٠٩	لا تنتقم من عدوّ
١١٠	النساء
١١٠	أرباب سُوءَ
١١١	لا مَدَر ولا وَبَر
١١٢	رحب البلعوم
١١٢	نَهَم الأثرياء
١١٣	مع الحقّ
١١٣	ناقل التمر إلى هَجَر
١١٤	اتّقِ الله
١١٥	أرديتَ جيلاً من الناس
١١٥	خدعة الصبيّ
١١٦	سبحان الله يا معاوية
١١٦	يغدر ويفجر
١١٧	ثمنُ البَيعة
١١٧	أَكَلَة الرُّشا
١١٨	أذهبتَ دنياك وآخرتك
١١٨	لأشدنّ عليك
١١٩	متمرّغ في النعيم
١١٩	إحذرْ معاوية
١٢٠	الناس عندنا أسوة
١٢٠	يا أشباهَ الرجال
١٢٢	لو ضربته بسيفي

صفحة	
١٢٣	أقولاً بغير علم
١٢٣	لا أُصلحكم بإفساد نفسي
١٢٤	الرأي مع الأناة
١٢٥	لقد سئمتُ عتابكم
١٢٦	بقاء الدولة
١٢٨	السِّلْمُ أولى
١٢٩	الوصيّة الشريفة
١٢٩	اللهمّ جنّب المنتصر البغي
١٣٠	اللهمّ أصلحْ ذات بيننا وبَينهم
١٣١	ونطق بألسنتهم
١٣١	جعلوهم حكاماً على الرقاب
١٣٢	صنفان
١٣٣	أئمّة العدل
١٣٤	لو أُعطيتُ الأقاليم السبعة
١٣٥	تحرّكه العواصف
١٣٥	لولا تخمة الظالم وجوع المظلوم
١٣٧	أهل الحيلة
١٣٧	أنت وأخوك الإنسان
١٤٠	أنصتوا لقولي
١٤١	تركا الحق وهما يبصرانه
١٤٢	أنا نذيركم
١٤٣	أين العمالقة

صفحة	
١٤٤	أين عمّار
١٤٥	الكِبر والتعصّب والبَغي
١٤٧	الدنيا تُطوى من خَلفِكم
١٤٨	دستور الولاة
١٦٢	حدود الضريبة
١٦٣	السفهاء والتجّار
١٦٤	المرتشي في الحُكم
١٦٥	مع المظلوم
١٦٥	المال للناس
١٦٦	أمانة
١٦٦	لأضربنّكَ بسيفي
١٦٧	الوالي والرشوة
١٦٩	الوالي والهوى
١٦٩	اخفض جناحك
١٧٠	عَلِّمَ الجاهل
١٧١	الوالي الخائن
١٧١	الأخلاق الكريمة
١٧٢	أهل الجشع وأهل الفقر
١٧٣	القاضي الجاهل
١٧٤	يحكم برأيه
١٧٥	وعالمهُم منافق
١٧٥	يعملون في الشُّبُهات
١٧٦	زجْر النفس

صفحة	
١٧٦	إياك
١٧٧	الرضا والسُّخط
١٧٧	النفاق والظلم
١٧٨	العشيرة
١٧٩	طبائع الإنسان
١٧٩	الزمان وأهله
١٨٠	كم من صائم
١٨٠	أصناف الناس
١٨٢	مع كلّ ريح
١٨٢	رُبَّ صغيرٍ غَلب كبيرا
١٨٣	سِراجُه باللّيلِ القمرُ
١٨٣	على منهاج المسيح
١٨٤	لا تقولوا بما لا تعرفون
١٨٥	منطِقهم الصوابُ ومَشْيُهم التّواضع
١٨٧	المنافقون
١٨٨	كان عليهم سرمدا
١٨٩	تحمله على أهوالها
١٨٩	كانوا أطولَ أعمارا
١٩١	ويلٌ لِسككِكم العامرة
١٩١	اللهمّ قد انصاحت جبالنا
١٩٣	الغيبة
١٩٣	يذهبُ اليومُ ويجيءُ الغد

صفحة	
١٩٤	آه من بُعد السفر
١٩٥	طبيعة الوجود
١٩٥	وأجرى فيها قمراً منيرا
١٩٦	تَلاطُم الماء
١٩٧	خلقة الخفّاش
١٩٨	خلقة الطاووس
٢٠١	خلقة النملة
٢٠٢	خلقة الجرادة
٢٠٣	إغفِرْ لي
٢٠٣	ماذا لقيت؟
٢٠٤	العفو عن القاتل
٢٠٤	مظلوم
٢٠٥	الأثوار الثلاثة
٢٠٧	طائفة من روائع أمثاله
٢٣٦	الفهرست